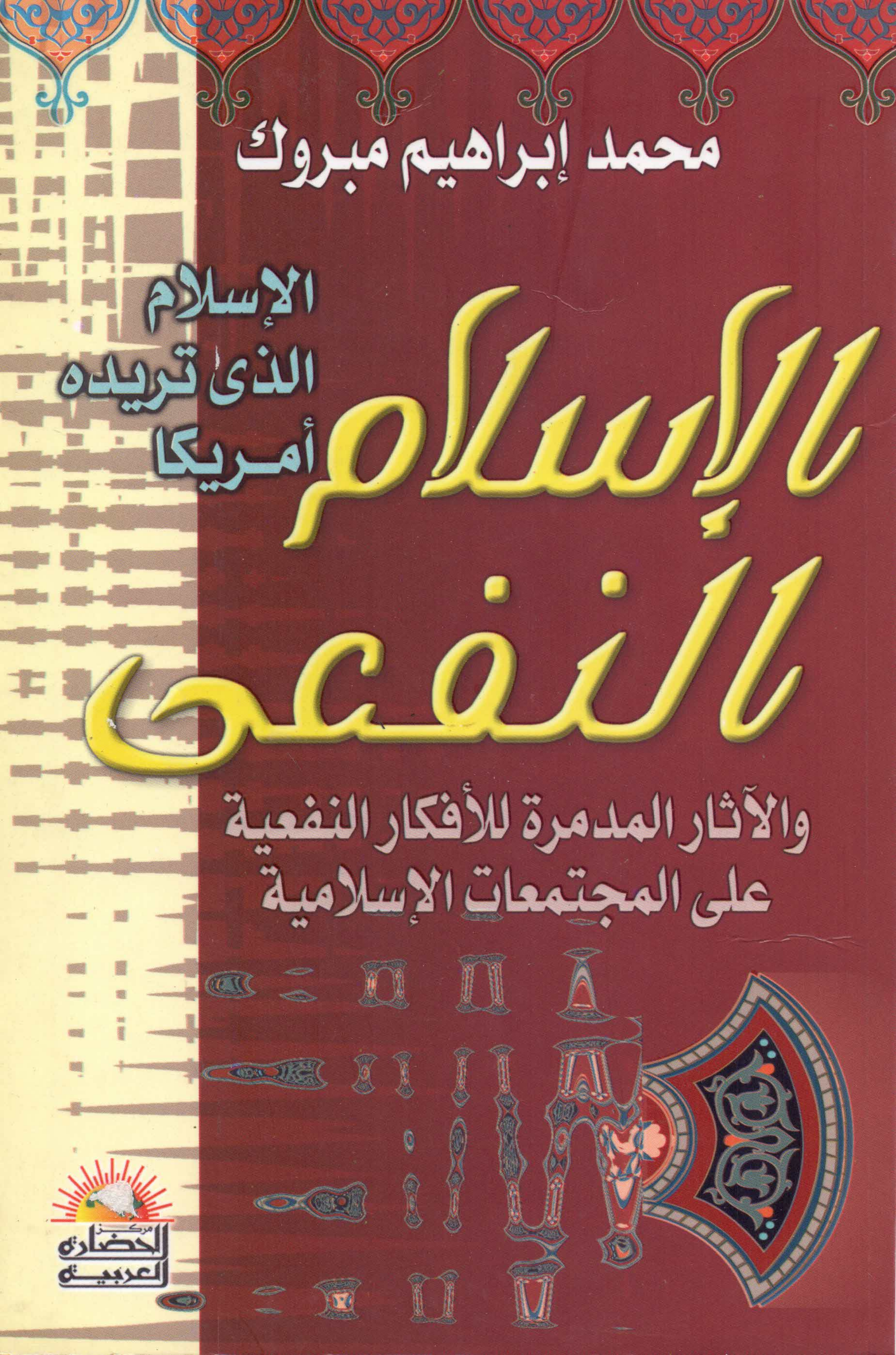
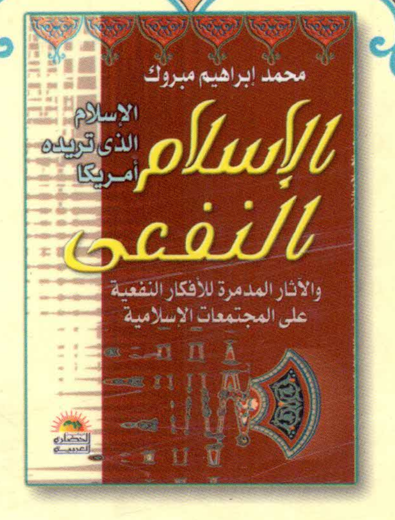

محمد إبراهيم مبروك
الإسلام النفعى
الإسلام
الذى تريده
أمريكا
والآثار المدمرة للأفكار النفعية
على المجتمعات الإسلامية
مركز الحضارة العربية





نستطيع أن نقول إنه واحد من أصحاب أكثر الكتب إثارة للجدل فى العقدين الأخيرين على امتداد العالم العربى مثل :

الإسلام الليبرالى بين الإخوان المسلمين والوسطيين والعلمانيين.

الإسلام والغرب الأمريكى : نظرية فى دوافع الصدام وإمكانية الحوار.

حقيقة العلمانية والصراع بين الإسلاميين والعلمانيين.

موقف الإسلام من الحب بين الرجل والمرأة.

نظرية الفن الإسلامى.

فالكاتب هو المفكر الإسلامى محمد إبراهيم مبروك والذى يوصف عادة بالتمرد، ويقصد بذلك استقلاله عن كل التيارات الإسلامية السائدة، حيث يجمع بين السلفية والتجديد، ويمثل المدفعية الثقيلة للإسلاميين فى مواجهة العلمانيين فى نفس الوقت الذى يتجاوز فيه أطروحاتهم ويطرح مشروعاً إسلامياً بديلاً.

أما الكتاب الذى نحن بصدده فهو أخطر كتبه على الإطلاق، ليس من وجهة نظر النقاد فقط ولكن من وجهة نظره هو أيضاً، فالكتاب بمثابة المدخل لفهم كل أطروحاته وتطورها ولكن الأهم من ذلك أن الكتاب جاء بمثابة بصيرة كاشفة للتفاعلات العقائدية والفلسفية والقيمية الحادثة فى العالم، بل وداخل النفس الإنسانية فى العقود الأخيرة تحت تأثير الانتشار المذهل للأفكار البراجماتية (النفعية) الأمريكية فى المجتمعات الإنسانية. وقد تأكد نفاذ هذه البصيرة من استشراف الكتاب للكثير من النتائج المدمرة لانتشار هذه الأفكار، وكان من أهمها نظريته عن الإسلام البراجماتى (النفعى) والتى تتمثل الآن صورته الواقعية فيما يسمى الإسلام الليبرالى.

لقد أتهم مبروك حين أخرج هذا الكتاب فى أواخر الثمانينيات أنه يبالغ ويبالغ جداً. أما الآن فلم يعد هناك حديث عن الصراع العالمى أو الصراع الإنسانى فى السلوك اليومى، أو عن التحولات الدينية والأخلاقية والقيمية إلا ويدور حول هذه الفلسفة وهذا هو الإنجاز الرئيسى لمحمد إبراهيم مبروك فى هذا الكتاب. أو كما يقول هو نفسه إن هذا الكتاب هو المدخل الأهم لفهم العالم الآن.



الإسلام الذى تريده أمريكا:
الإسلام النفعى



- مركز الحضارة العربية مؤسسة ثقافية مستقلة ، تستهدف المشاركة فى استنهاض وتأكيد الانتماء والوعى القومى العربى، فى إطار المشروع الحضارى العربى المستقل .
- يتطلع مركز الحضارة العربية إلى التعاون والتبادل الثقافى والعلمى مع مختلف المؤسسات الثقافية والعلمية ومراكز البحث والدراسات ، والتفاعل مع كل الرؤى والاجتهادات المختلفة
- يسعى المركز من أجل تشجيع إنتاج المفكرين والباحثين والكتاب العرب ، ونشره وتوزيعه .
- يرحب المركز بأية اقتراحات أو مساهمات إيجابية تساعد على تحقيق أهدافه .
- الآراء الواردة بالإصدارات تعبر عن آراء كاتبيها ، ولا تعبر بالضرورة عن آراء أو اتجاهات يتبناها مركز الحضارة العربية .



رئيس المركز

على عبد الحميد

مدير المركز

محمود عبد الحميد

مركز الحضارة العربية
4 ش العلمين - عمارات الأوقاف
ميدان الكيت كات - القاهرة
تليفاكس : 33448368 (00202)
E.mail: alhdara_alarabia@yahoo.com
alhdara_alarabia@hotmail.com

محمد إبراهيم مبروك

الإسلام الذى تريده أمريكا :

الإسلام النفعى



الكتاب : الإسلام الذى تريده أمريكا :
الإسلام النفعى
الكاتب : محمد إبراهيم مبروك
مصر
الناشر : مركز الحضارة العربية
الطبعة العربية الأولى: القاهرة ٢٠١٠

الغلاف
تصميم وجرافيك: ناهد عبد الفتاح

الجمع والصف الإلكترونى
وحدة الصف بالمركز
تنفيذ : سيد حرزاوى
تصحيح : وفاء عبد الفتاح

رقم الإيداع : ٢٠١٠/٣٥٨٥
الترقيم الدولى : I.S.B.N.978-977-496-030-7

مبروك، محمد إبراهيم
الإسلام الذى تريده أمريكا: الإسلام النفعى/
محمد إبراهيم مبروك . - ط ٢ .- الجيزة:
مركز الحضارة العربية للإعلام والنشر
والدراسات، ٢٠١٠.
١٩٢ ص؛ ٢٥ سم.
تدمك: ٧ - ٠٣٠ - ٤٩٦ - ٩٧٧ - ٩٧٨
١ - الإسلام والبراجماتية
٢ - العنوان. ٢١٤,١٤٤

إهداء

الى كل أعداء القهر فى العالم

تمهيد

من نقطة خلف الظهر نمضى لليسار
ينزلق اليقين لركام من صدأ
توقد الرغبات حتى الرمق الأخير
يغدو العراك طعامنا اليومى
يغمر الرماد كل أركان المدينة
أينما وليت وجهى لا أجد نوحًا
ورجاله الأبرار فروا من كل صوب
وفى الدوار الرتيب
الرتيب
الرتيب
الكل ينتظر الطوفان

محمد إبراهيم مبروك

مقدمة الطبعة الثانية

من عمق المأساة كان اكتشاف الحقيقة.

وبحجم الألم كانت البصيرة نافذة.

هذا هو الواقع الفعلى الذى يقف وراء هذا الكتاب، فحين أخرجت هذا الكتاب إلى النور فى أواخر الثمانينيات اتهمنى بعض الكُتَّاب المشاهير بالمبالغة والتهويل فى حديثى عن النتائج المدمرة لانتشار الأفكار البراجماتية (النفعية) الأمريكية فى المجتمع المصرى، فماذا يا ترى يمكن أن يُقال الآن؟

لقد غدا حديثى عن هذه النتائج المدمرة مجرد تبسيط لما يحدث فى الواقع بالفعل!!

صديق لى (كان فى وقت من الأوقات تلميذًا لى) مؤخرًا حضر من أمريكا (وكان يدرس فيها الدكتوراه فى الفلسفة)، سألنى عن تفسيرى لما يحدث فى الواقع الاجتماعى الذى صدمه عودته من هناك، وكلما حدثته عن جانب من الجوانب تأوه أسفًا، وأخيرًا قلت له: كأنك تعتقد أننى أحدثك عن الشروخ التى تهدد المبنى وتبدى أسفك وحزنك على انهياره الذى يبدو وشيكًا، ومن الواضح أن قصدى لن يصلك وما أريد قوله هو أن المبنى قد انهار بالفعل، وأن كل ما أحدثك عنه هو عن الأنقاض الواقعة فى الأرض.

ولذلك فأنا كثيرًا ما أضحك هزءًا من الذين يتحدثون عن السوس الذى ينخر فى أعمدة المجتمع كيف يتحدثون عن ذلك ولم تعد هناك للمجتمع أعمدة بالفعل، وما يفعله السوس الآن هو أنه ينخر فى جميع مفرداته.

والذى أتحدث عنه هنا لا يتعلق بالمجتمع المصرى فقط، وإنما يتعلق بالغالبية العظمى من المجتمعات الإسلامية والفقيرة منها على وجه الخصوص وكون المجتمع المصرى يقف على قمة ذلك يعود لكونه المجتمع الأسبق من حيث غزو هذه المفاهيم النفعية الأمريكية له منذ منتصف السبعينيات ودخوله فى بوتقة الاحتراق النفعى والسقوط بين المطرقة والسندان ، بين الضغوط الاقتصادية الطاحنة من ناحية (ارتفاع أسعار - بطالة - سحب الخدمات والتأمينات الاجتماعية) وابتعاث مسعور للرغبات من ناحية أخرى من خلال أجهزة إعلامية مدمرة لا تسعى إلا للربح وترتبط بأجهزة مخابرتية معروفة فى الوقت الذى يروج من خلال هذه الأجهزة، ومن خلال الممارسات

الفعلية لقيادات المجتمع أنه لا توجد قيمة فعلية لأى شىء إلا للمال وإنه لا يوجد ما يحدد الحق ولا الباطل غيره وإنه لا يوجد عقل إلا فيه، ولا يوجد جنون إلا فى سواه وأن كل المفاهيم والمبادئ التى تعلمها البشر على امتداد التاريخ قد سقطت الآن وتداس بالأقدام وأن كل المفاهيم والقيم الحقيقية تبدأ من عبادة هذا الإله الجديد.. إله المال.

ولو كان الأمر أمر ضغوط اقتصادية فقط، ولكن القيم السائدة هى قيم إسلامية رشيدة لما توحشت المفاسد كل هذا التوحش، ولو كان الأمر أمر قيم نفعية قذرة لكن يسود المجتمع قدر من الرخاء الاقتصادى لما توحشت المفاسد كل هذا التوحش لكن اجتماع الأمرين معًا حول المجتمع إلى غابة جنونية الكل فيها يقاتل الكل وينزلق الجميع إلى الحضيض كل هذا والتدين محارب ، مطارد، مضطهد متهم بالتطرف والشذوذ والإرهاب، هذا بالإضافة إلى التهم العلمانية المحنطة مثل التخلف والظلامية والرجعية والجمود واللاعقانية إلى آخر هذا الكلام الفارغ.

ومنذ أن تذهب إلى عملك فى الصباح سوف تتصارع مع سواق التاكسى على الأجرة، ما الذى يحدد الأجرة؟ يحددها قدرة السائق على سلب أكبر قدر من المال منك، أما فى عملك فإما أن تشارك فى عمليات السلب والسطووالابتزاز المشاعة (الرشوة فقط ٦٨٪ بحسب التقدر العالمى للتنمية البشرية) وإما أن تطرد خارجًا من اللعبة، فإذا ذهبت إلى السوق وجدت معيارًا جديدًا لتحديد قيمة السلعة هو مقدار جهلك بقيمتها، فإذا خرجت زوجتك لقضاء شأن من الشئون كانت فى حاجة لمن يحرسها، فالحكاية ببساطة أن عشرين ألف امرأة يتم اغتصابها سنويًا، بحسب تقدير معهد البحوث الجنائية، وما خفى كان أعظم، ومن الطبيعى أن يكون ما خفى فى هذه الأمور أعظم وأعظم، وحتى إن كان معها حارس فهى معرضة للكلمات الجارحة فستون فى المائة من النساء يتعرضن للتحرش الجنسى بحسب تقدير أحد مراكز حقوق الإنسان وما قد يفعله الحارس هو أن يقى من معه من التحرش الجنسى بالفعل دون التحرش الجنسى بالقول، وعليه أن يبتلع على الدوام قذائف من المهانة وإهدار الكرامة حتى لا تهدر حياته كاملة فى ثانية واحدة فى أقسام البوليس أو على يد جماهير المتحرشين الذين من بينهم جيوشًا من المتعطلين المدمنين الذين لا يفيقون من المخدرات ليل نهار حيث تبلغ نسب تعاطى المخدرات فى العديد من المناطق أكثر من الخمسين فى المائة، (والبعض يقول: مائة فى المائة) لكن من قال إن الخطر يأتى من هؤلاء فقط، ففحش التبرج قد عاد من جديد والحجاب الإسلامى الذى كان يصون النساء والمجتمع قد تم اختزاله، لدى الملايين إلى

(بادى كارينا) (وبنطلون استريتش) بمعاونة أحد الدعاة الجدد الأكثر شهرة والمدعوم أمريكيًا وبريطانيًا، ولم يكن الرجل - للإنصاف - قد دعا إلى أن ذلك أو وافق تعليه، ولكن ارتبطت صورته بأولئك المريدات صاحبات الحجاب المزيف اللواتى يشاركنه دروسه فى القنوات الفضائية وكأن الأمر إقرار منه على ذلك حتى آل أمر هذا الحجاب المزيف إلى تلك الصورة الكاريكاتيرية المتمثلة فى (البادى الكارينا) (والبنطلون الاستريتش) حيث أطلق العامة - ويا لا قوة حدسهم - اسم هذا الرجل على هذا الحجاب العجيب كما أطلقوا عليه أيضًا اسم (الحجاب الأمريكانى).

أما إذا ذهب ابنك إلى المدرسة أو الجامعة فإنه يذهب فى الحقيقة إلى سوق الممنوعات أو بتعبير أدق سوبر ماركت الممنوعات (مخدرات - خمور - نساء) أو الوسطاء لها على الأقل الذين قد يكونون من الإداريين القائمين على العملية التعليمية أنفسهم وفى المدارس فإن الخلافات بين الطلبة والمدرسين تحسم بالمطاوى، أما فى الجامعات فإن الذى يحسم ذلك هو المال، وهو نفس الشىء الذى يحكم عملية الامتحانات فى النهاية، وإذا كانت بعض المواد فى الثانوية العامة قد تم تسريبها فى مؤخرًا، فما بالك بالذى يحدث فى باقى الامتحانات والاستثناء الوحيد من ذلك هو أن ابن الدكتور لا بد وأن يكون دكتور وابن الضابط لا بد وأن يكون ضابطًا وابن العالم لا بد أن يكون عالمًا، وابن المبدع لا بد أن يكون مبدعًا، وكيف من الممكن أن يحدث ذلك؟ الله أعلم والنتيجة المعروفة فشل كامل فى كل شىء.

كنت أتحدث مع بعض الطلاب أمام أحد الكليات، فإذا بى أسمع أحد الطلاب بجوارى يقول لمن حوله: لابد أن أفعل كل ما أريده هنا قبل أن أتخرج، لأن التخرج يعنى الحكم علىّ بالإعدام.

طبعًا يبالغ؛ لأن ذلك كلام أفلام، ولكن ترى بأى قدر تقل حقيقة الواقع عما يقول؟

ومن الشعب الآن من يتحدث عن عدم إرسال أولاده إلى المدارس خوفًا من الفساد وعن عدم ذهابه إل المستشفيات للعلاج خوفًا من سرقة أعضائه، أما الذهاب إلى أقسام البوليس أو المحاكم للمطالبة بالحقوق فغالب الشعب يرى فى ذلك نوعًا من الانتحار.

ولو وُجد أولئك الفتوات الآن لدهم هؤلاء الفتيان المجانين على أقدامهم كلما شاءوا ذلك. وإن كان نجيب محفوظ أراد أن يقيم الدنيا ويقعدها بسبب الظلم الذى كان يشيعه أولئك الفتوات. فترى ما هى بشاعة الواقع الذى يصنعه هؤلاء المجانين؟ وقبل

ذلك ما هى بشاعة الواقع الذى صنعهم من الأصل؟

فإذا قيل هذا تشنيع وكذب فما زال هناك شرفاء عديدون، أقول نعم، ولكن ما هى نسبتهم؟

وفى المقابل من هؤلاء وبنسبة تزيد عنهم هنالك المتوحشون.. الغرائز المستعرة بلا عقل مثل المسوسين من سكان المناطق العشوائية وعشش الصفيح والعشش المنزوعة الأبواب والنوافذ والمنهارة السلالم، والبيوت المكونة من غرف عديدة تأوى كل غرفة منها أسرة كاملة تشترك فى دورة مياه واحدة بلا سقف وهى نسبة المعدومين التى تتجاوز الخمسة عشرة فى المائة، والمسوسين منهم هم الذين لا يفيقون من المخدرات ليل نهار، وهؤلاء هم الذين يقتلون بعضهم بعضًا والآخرين لأتفه الأسباب وربما بلا أسباب وينتهكون الأعراض لمجرد القدرة على ذلك، وإذا تدخل أحد بينهم فلربما فقد حياته حتى ولو كان من الشرطة، وهى أعمال إجرامية متوحشة تم استنساخها من الأعمال الإجرامية للمجتمع الأمريكى التى يشاهدونها فى أفلام العنف الهوليودية حيث يغدو فتوات نجيب محفوظ مجرد صبيان تافهين لهؤلاء الفتيان لأن المسافة شاسعة بين أولئك الذين كانوا الذين يحكّمون الجنون.

وهناك أيضًا الأخطر من هؤلاء العصابات المنظمة من الكبار الذين يصنعون المليارات من الاتجار بأراضى الدولة أو الآثار أو خطف الأطفال والاتجار بأعضائهم والذين توجد لهم فروع داخل بعض المستشفيات تحيل المرضى المساكين من الصغار والكبار إلى قطع غيار للأثرياء فى الداخل والخارج.

فقدان القيمة.. فقدان الغاية.. فقدان المعنى.. فقدان الجدوى.. فقدان كل شىء ولا يوجد سوى سعار محموم للغرائز توقد فيه أجهزة الإعلام المخترقة أمريكيًا ليل نهار لتتحول، شعوب بالكامل إلى رماد إنسانى.. إلى نشر يعيشون الحياة بلا حياة وينتظرون طوفان يمحو كل ذلك، لكن الطوفان لا يأتى.

ولن ينفع حديث چورچ أورويل عن مزرعة الحيوانات للتعبير عما يحدث، وإنما أنت تحتاج أمثال يونسكو أو كافكا أو بيكيت للتعبير عما يحدث من عبث هذا إن استطاعوا أن يستوعبوا بالفعل ما يحدث فى غاية الجنون التى نعيشها.

إذا كانت القيم البراجماتية (النفعية) الأمريكية هى السبب فى كل هذا، فلماذا لم تفعل ذلك فى العرب نفسه؟

هكذا سألنى صديقى العائد توًا من أمريكا؟

وأجيب: المسألة ببساطة أن هناك قدر من الرخاء فى تلك الدول يجعل الحد الأدنى للخاسرين فى الصراع البراجماتى يكفل لهم قدرًا ما من الحياة المعقولة مما يهيئ للجميع القدرة على الاستمرار ثم من قال إن الغرب خالٍ من هذه المفاسد؟ اقرأ كتب ناقدى العولمة تدرك الانهيارات القائمة فى الغرب نفسه بسبب هذه المفاهيم النفعية وطغيان ثالوث الفساد الأكبر (السياسة - الاقتصاد - الإعلام) ولكن بدرجة أقل طبعًا مما يحدث فى بلادنا التى تعمل فيها هذه المفاهيم داخل طاحونة الفقر التى يعيش فيها المجتمع. وما لنا نذهب بعيدًا؟ فها هو مؤتمر كوبنهاجن الذى انعقد هذه الأيام بين زعماء الدول الكبرى فاجتمع من اجتمع وتحاور من تحاور وصال وجال كلٌ بشعارته ووعوده ومبرراته، ولم ينته إلى أى شىء مع أن أصل المشكلة التى يدور البحث فيها هى تدمير كوكب الأرض بالكامل بسبب انبعاثات صراع الإنتاج الصناعى الاستهلاكى والتسليحى بين هذه الدول والذى لا تتمثل فوائده فى الأساس إلا فى تصاعد ما يدره من أرباح على النخب الرأسمالية وما يحققه من مصالح لزعمائها السياسيين، ولكن فلتحترق الأرض بمن فيها مادام هؤلاء غير مستعدين لأن تتعرض أرباحهم ومصالحهم للأخطار، وكما قال چون كيرى المرشح الأمريكى السابق معلقًا على ذلك، إن أى سيناتور فى الكونجرس غير مستعد فى ظل الأزمة الاقتصادية العالمية (وطبعًا لم يشأ أن يقول فى ظل الخراب الأمريكى على يد المقاومة الإسلامية فى العراق وأفغانستان)؛ لأن يراهن على مركزه إذا وافق على قانون لتخفيض الغازات المنبعثة بعرض بعض العمال للبطالة.. ومع أن الحل بسيط فى إنشاء مصانع مناسبة بديلة وإضافة نفقات ذلك على الضرائب المستحقة على النخب الرأسمالية الكبرى، ولكن من هذا الذى يستطيع أن يمس مصالح هؤلاء ويعرض مصالحه هو نفسه للخطر؟ ومن أجل من؟ ولأى غاية؟ وبأى هدف؟ والكل يدور فى رحى المنافع البراجماتية وتمضى الحياة كلها عبث فى عبث.

لقد أخذت البراجماتية النظرة العبثية للكون من السوفسطائية واستهداف مبدأ اللذة من الأبيقورية، وأضافت فقط أساليبها الجديدة التى تتوائم مع العصر، وهكذا أنتجت فلسفة لم تلبث إلا وقد غدت مذهبًا لم يمر عليه قرن من الزمان إلا وسيطر على العالم أجمع، حيث يمثل العقل القائد لروح العولمة التى تعمل النخب البراجماتية الغربية على فرضها على العالم.

والآن هل حقًا كان هذا الكتاب يمثل مبالغة وتهويلاً فى أواخر الثمانينيات؟

لم يكن كذلك على الإطلاق، وإنما كان يحاول التعبير عما كان يحدث بالفعل ويغوص

فى أعماقه ليكشف عن حقيقته، لكن كُتَّاب المؤسسات المُوَجَّهين كانوا وما زالوا أبعد الناس عن اكتشاف الحقيقة والحديث عنها، فهؤلاء لا يفكرون ولا يكتبون إلا فى نطاق المسارات المحددة لهم من قِبَل تلك المؤسسات، سواء كانت حكومية أو غير حكومية، وفى إطار المصالح التى يحددها لهم الواقع البراجماتى المُعاش، ومن ثم فإنه ليس من الغريب ألا تفرز هذه المرحلة مفكرًا واحدًا يهتدى به الناس.

كنت صغيرًا جدًا عندما ذُبِحَ حلمى أقول ذُبِحَ حلمى ولا أقول فقدت حلمى لأننى كنت أدرك جيدًا أننى غالبًا ما سأفقده، ولكن واقع المأساة الحقيقى هو أنه ذُبِحَ تمامًا والذين صنعوا المأساة كانوا يعلنون أمام الدنيا أنهم يعبدون المال، فألقوا أعظم الزهور فى المستنقع النتن وقبضوا من الشيطان الثمن.

ظللت سنينًا أغوص فى العلوم وفى عقول الناس لكى أحاول أن أفهم ما الذى حدث؟ وكيف حدث؟ حتى أدركت ما هى البراجماتية وما كانت البراجماتية يكاد يعرفها أحد فى بلاد العرب الك أيام، ولم تكن لها فى اللغة العربى سوى فصول قليلة فى بعض الكتب الفلسفية المتخصصة، أما الآن فتكاد الدنيا جميعًا، بما فى ذلك بلاد العرب تتحدث عن البراجماتية ، وغدت الطبعة البراجماتية من الدين المتمثلة فى الإسلام الليبرالى فى الطبعة السائدة فى أجهزة الإعلام الآن..

وأعود لأضحك الضحك المرير من هؤلاء الذين يتحدثون عن الحل للخروج مما نعانيه من دمار وقد ألقوا بالدين وراء ظهورهم. هل الحل فى التربية.. فى التعليم.. فى التصنيع.. فى التصدير.. فى إبدال زعيم مكان زعيم..

هل كل هذه الأمور تعنى شيئًا وشيطان البراجماتية يدمر الجميع.. قاتلوا الأفكار والمفاهيم البراجماتية الأمريكية أولا، ثم تحدثوا بعد هذا عن أى حلول ولن تستيطعوا أن تفعلوا ذلك إلا بالإسلام والإسلام فقط.

وأخيرًا، فإننى أتوجه بالشكر للأستاذ على عبد الحميد على إخراجه لهذه الطبعة إلى النور، ولقد كان دائمًا متحمسًا لهذا الكتاب، ويرى أنه يعبر عن الواقع الآن بصورة أوضح مما قبل فتحمل عبء نشر هذا الكتاب الصعب وغير التجارى فى ظل ظروف قاسية يمر بها نشر الكتاب العربى بوجه عام، فجزاه الله عن ذلك خير الجزاء.

محمد إبراهيم مبروك
الجيزة - يناير ٢٠١٠
ت/ ٠١٠١٤٩٠٤٩٩

مقدمة الطبعة الأولى

الحمد لله الذى أخرج هذا الكتاب إلى النور.. وذلل لنا فى سبيل ذلك الصعاب بلطفه الجميل.. والصلاة والسلام على الرسول البشير النذير..

وبعد..

فإنه مما لا شك فيه أن الإسلام دين مبدئى لا يقبل التبعيض أو التَّجَزُّؤ، وكذلك فإنه لا يقبل التوفيق أو التلفيق مع أى دين أو مذهب أو فلسفة أخرى، فإذا حدث شىء من ذلك فإنه يُعد دينًا جديدًا ليس له أدنى علاقة بالإسلام.

ومع ذلك فإننا أردنا بمصطلح الإسلام النفعى أو «البراجماتى» أن نعبر عن أخطر عملية تضليل يمارسها الكثيرون الآن «ولا أقول البعض» ونعنى بذلك عملية استغلال الإسلام للمصالح الخاصة والالتزام بظاهر إسلامى يبتغى وجه الله يُضمر داخله باطنًا نفعيًا يبتغى وجه الشيطان مع محاولة تطويع المفاهيم الإسلامية للعمل على تبرير ذلك.

ولكن لنأت إلى القصة من أولها؛ لأن قضية استغلال الإسلام للمصالح الخاصة تأتى فى إطار قضية أكبر انعكست آثارها السلبية على المجتمع بحيث لم تعد تستطيع العين أن تخطئها وهو ما يسمى بشيوع الفساد وما نسميه نحن بشيوع المفاهيم النفعية أو البراجماتية.

والآن نستطيع أن نتساءل: وما هى الفلسفة النفعية «البراجماتية»؟ وما هى علاقتها بالمجتمع المصرى؟!

نقول: الفلسفة البراجماتية هى الفلسفة التى تجعل من المنفعة العملية المعيار الوحيد للحكم على الأشياء أو الأفكار، فالحقيقى هو كل ما يأتى عن تجريبه أو تطبيقه منفعة مفيدة، أما كل ما هو غير ذلك فهو لا شىء. وفى الحقيقة فإن الأفكار والممارسات النفعية «البراجماتية» ليست جديدة تمامًا على الفكر والسلوك الإنسانى ولكنها تمثل تطويرًا وتنسيقًا لبعض الأنماط الفكرية والسلوكية القديمة، وهذا ما أشار إليه أكثر من مرة وليم جيمس نفسه «وقد تم توضيح هذه النقطة داخل الكتاب» ولقد كان للصراع الطويل على النفوذ والأموال الذى قام عليه المجتمع الأمريكى دوره الكبير فى بلورة هذه الأفكار والممارسات فى الفلسفة البراجماتية التى جاءت كناتج موضوعى جدًا لما يمكن أن يفرزه ذلك المجتمع من فلسفات وعندما تكون المنفعة العملية هى المعيار الوحيد

للحكم على الأشيـاء، وحيث إن ذلك يؤول فى التطبيق العملى إلى إحلال المصالح الخاصة محل المبادئ والقيم التى تحكم الأمور فإن ذلك لا يؤدى إلى تبرير الانتهازية فقط، ولكن إلى صبغها بصبغة الحقائق الجديرة بالاحترام.

ويقول آخر «فإن البراجماتية هى عملية انتقال بارعة من المذهبية الفلسفية الملتزمة إلى التبرير الفلسفى لكل ما هو قائم بالفعل على أنه ما تفرضه الاحتياجات الإنسانية وعلى أنه الوحيد الذى يتلاءم مع افتراضها المسبق لمحدودية قدرتنا المعرفية، وهى فى الوقت نفسه تعبير حقيقى جدًا عن النسق الفكرى الذى انتهت إليه الحضارة الغربية فى أقصى نموها المادى».

ولأننا نقع فى ظل هيمنة أمريكية فرضتها علينا ظروف سياسة بالغة التعقيد نخص منها بالذكر ما أدت إليه الحقبة الساداتية من تغلغل للنفوذ الأمريكى فى المنطقة فإن ذلك قد أدى بدوره إلى تغلغل الأفكار النفعية فى أعماق مجتمعنا المصرى، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

لقد انزلقت البلاد فى الحقبة الساداتية إلى هاوية من الفقر والجوع والتبعية الذليلة وفقدان الهدف وضياع الهوية وانهيار القيم، فكان ذلك خير بيئة؛ لأن تنمو وتترعرع فيها المفاهيم النفعية التى علمت الناس أن المنقذ الوحيد من هذا الضياع هو الأنانية وأن الحق الوحيد فى هذا الجحيم هو الانتهازية.

ونظرًا لجسامة الموقف الذى نعانى منه الآن، فإننا نكون مخادعين لأنفسنا إذا حمّلنا أجهزة الحكم وحدها عبء الخروج من هذا الضياع، فالتركة الساداتية أثقل بكثير من قدرة أى حكومة من الحكومات على التحمل، ولهذا فإن المسئولية تقع علينا جميعًا دون أن يقلل ذلك من الدور الرئيسى المنوط بأجهزة الحكم والذى يجب عليها أداؤه. ومن هنا فإن هذا الكتاب غير موجه نحو قطاع معين من المجتمع المصرى وإنما هو يحاول أن يواجه الأفكار والمفاهيم النفعية التى تغلغلت فى المجتمع المصرى بشتى قطاعاته.

ومع ذلك فإن الكتاب يوجه اهتمامًا خاصًا نحو قطاعين من المجتمع أولهما: طبقة الرأسماليين الطفيليين الذين نموّا نموًا سرطانيًا رهيبًا فى جسد المجتمع المصرى الذى تحلل وكادت أن تزهق روحه، ومن اتبعوهم ممن باعوا أنفسهم لهم.

إن هؤلاء الرأسماليين الطفيليين أو القطط السمان أو رموز الفساد أو النخب البراجماتية «كما يسميهم كاتب هذه السطور» تقع عليهم مسئولية نهب هذه البلاد والمضى بها نحو الانهيار.

أما ثانيهما: فالمقصود به التيار الإسلامى ذاته ومن يُنسبون إليه وهى محاولة من

محاولات النقد الذاتى التى يراد بها تزكية نفوس المسلمين من العمل لغير وجه الله سبحانه وتعالى؛ لأن نمط التعامل مع الدين بمنظور نفعى هو جوهر باطن الإثم الذى قال عنه الدكتور محمد سعيد رمضان البوطى: إنه الخطر الأكبر الذى يواجه المسلمين وهو أحد الأشكال المهمة للتدين الفاسد الذى يندد به دائمًا شيخنا الجليل محمد الغزالى.

بقيت عدة نقاط أحاول أن ألخصها الآن:

- إن التعرض للفلسفة البراجماتية لا بد أن يؤدى بنا إلى التعرض لبعض القضايا السياسية المتعلقة بها مثل مدى علاقة موضوعنا الإسلام النفعى بما قاله الشهيد سيد قطب عن الإسلام الأمريكانى فى أوائل الخمسينيات، ولذلك فإننى أقول: إن موضوع الإسلام النفعى أو موضوع استغلال الإسلام للمصالح الخاصة موضوع قديم قِدَم التاريخ؛ لأنه موجود فى كل الأديان، ولعل ما كان يقوم به الكهنة قديمًا والبابوات فى العصور الوسطى من استغلال باسم الدين من أهم الأمثلة التى تُضرب على ذلك. ومن أقدم ما قام بذلك فى الإسلام أصحاب المصالح الخاصة من المطالبين بدماء أمير المؤمنين عثمان بن عفان أو كما يُطلق عليهم «الذين ارتدوا قميص عثمان». وهكذا فإن الإسلام النفعى هو الإسلام الذى يُستغل للمصالح الخاصة أيًا كان نوعها والتى قد تكون مصالح أشخاص يرغبون فى السلطة أو الجاه أو اكتناز الأموال، وقد تكون مصالح حكام يرتدون المظاهر الإسلامية التى يهدفون من ورائها إلى بسط نفوذهم واتساع عروشهم، وقد تكون مصالح حزب من الأحزاب أو هيئة من الهيئات تبغى الوصول إلى الحكم، وقد تكون مصلحة دولة ذات نفوذ تسعى إلى بسط نفوذها على بعض الدول الأخرى التى لا حيلة لها. ومن هنا فإن ما قاله الشهيد سيد قطب عن الإسلام الأمريكانى يصلح لأن يكون فرعًا من موضوعنا «الإسلام النفعى» وكذلك فإن ما كان يسود من إسلام يخدم المصالح الروسية فى المنطقة فى مرحلة من المراحل أى «الإسلام الروسى» فإنه يصلح أيضًا لأن يكون فرعًا من موضوعنا.
- ولا بد أيضًا أن نشير أن المصلحة السياسية هى الحكم الأساسى فى العلاقات السياسية دون أن يكون هناك أدنى عيب فى ذلك؛ فالممارسات السياسية البراجماتية باتت ملحوظة للجميع.

غاية ما فى الأمر أننا نتمنى من حكامنا أن تكون مصلحة الإسلام وليس شىء آخر هو المعيار الذى يجب أن يحكم تلك العلاقات.

- وهذا الكتاب يحاول أن يسجل بعض القواعد والملامح لعملية استغلال الإسلام

والمتاجرة به، أما تطبيق ذلك على بعض الهيئات أو الأشخاص فهو أمر لا يملكه إلا من كان يملك الحقائق الثابتة الحاسمة لإصدار مثل هذا الحكم وهو أمر بعيد عنا كل البعد وعلى ذلك فإننا لا يمكننا أن نتهم بذلك جهات حملت شعارًا إسلاميًا مثل شركات توظيف الأموال ولا يمكن أن ننفيه عنها أيضًا، أما من يمتلك أدلة حاسمة على إدانة أى جهة من الجهات فله أن يقول ما يشاء.

- كما أننى لا أقصد من موضوع الإسلام النفعى «البراجماتى» مجرد الحديث عن المتاجرين بالدين والمتزينين به ممن يدركون قيامهم بهذا الدور، وإنما القضية التى أتناولها هنا هى القضية ذات المستوى الأعمق الذى لا يعنى مجرد النفاق التقليدى، وإنما ما يدخل فى إطار الرياء الخفى الذى طالما حذرنا منه الرسول ﷺ وشبيه ذلك ما كتبه الإمام الغزالى فى كتابه «أصناف المغرورين» والإمام ابن الجوزى فى كتابه «تلبيس إبليس» ونجده بوجه خاص فيما كتبه الدكتور محمد سعيد رمضان البوطى فى كتابه الفريد «باطن الإثم»، يقول الدكتور البوطى: «إن أحداث المسلمين ومصائبهم المريرة لتزيدنى كل يوم يقينًا بأن «العاملين للإسلام» اليوم مشدودون إلى الوراء تفرقًا وضيعة وهوانًا بما ينطوون عليه من «باطن الإثم» أكثر مما يصطبغون به من ظاهر المعاصى والآثام».
- وأود أن أعتذر عما جاء من صعوبة فى موضوعَىْ «الطريق إلى الحقيقة عند حكماء المسلمين، والفلسفة البراجماتية ونقدها» اقتضتها دقة المعالجة للموضوعين، وقد يكون شفيعى فى ذلك أن هذين الموضوعين يهمان فى الأساس القارئ المتخصص، وعلى أى حال فإن أبواب الكتاب الأخرى قد اشتملت على الأفكار المهمة فى هذين الموضوعين ويستطيع أن يطلع عليها القارئ العادى بسهولة.

وأخيرًا فإننى أستعير فى إنهاء هذه المقدمة ما قاله الشيخ الغزالى عن نفسه فى كتابه «السنة النبوية بين أهل الفقه وأهل الحديث» قال الشيخ: «إننى ألقى ناسًا يزعمون أنفسهم أقطابًا وهم فقراء إلى المبادئ الأولى فى تربية النفس وإخلاص القلب ونشدان وجه الله، وما أبرئ نفسى وإنما أسأل ربى المغفرة».

والله ولى التوفيق،،،

محمد إبراهيم مبروك

فبراير ١٩٨٩

القسم الأول

المبدئية فى مواجهة

الأفكار والمفاهيم النفعية «البراجماتية»

باب تمهيدى

خلفية موجزة عن
الصراع الفكرى والحضارى
بين الإسلام والغرب

العقلية الغربية ليست عقلية تتمحور حول نفسها فقط ولكنها عقلية تمحور الوجود ذاته حول نفسها أيضًا، بل وحول الطبقة القوية منها بوجه خاص.

وإذا كانت المكونات العضوية للحضارة الغربية هى الوثنيات الأسطورية الإغريقية والرومانية والفلسفات الهيلينية والديانتين اليهودية والمسيحية فعلينا أن نتساءل عن ماهية عطاءات تلك المكونات للعقلية الغربية أو عن أى الأشياء فى تلك المكونات كان يؤول فى النهاية انحياز تلك العقلية إليها.

لقد كان الإنسان الأوروبى - فى الواقع - هو محل عبادة آلهته الوثنية بدلا من أن تكون محل عبادته، ولكم سجلت الأساطير الغربية القديمة «يونانية كانت أو رومانية» كيف كانت الآلهة تهيم عشقًا بالإنسان الغربى وتهبط من عليائها لتقدم له فروض الحب والولاء بل والطاعة أيضًا!! وما يستتبع ذلك من معاشرة جنسية بين هذه الآلهة المفتونة ومن افتتنوا بهم من البشر وما يتمخض عن ذلك من ذرية. ولقد عملت هذه الأساطير على أن ترسخ فى العقول دائمًا أن أبطال وعظماء التاريخ الأوروبى الذين تفخر بهم هذه الأساطير ما هم إلا الذرية الطبيعية لتلك المعاشرة، فهم إن لم يكونوا آلهة بالكامل فهم على الأقل أنصاف آلهة.

وعلى سبيل المثال نجد فى ملحمة الأوديسة الإلهة الإغريقية «أثينا» تتقرب إلى البطل اليونانى أوديسوس قائلة له فى تغزل:

إنك تفوق البشر والآلهة مكرًا ودهاء
وكلانا يتقن الكذب الذى ينفع ولا يضر
فأنت بين البشر أرجحهم عقلا وأفصحهم لسانًا
وأنا بيت الآلهة أكثرهم ذكاء وأخصبهم خيالا[١].

أما الفيلسوف الشهير أبيقور فقد دعا الناس إلى تنظيم رغباتهم بحسب القدرات والإمكانيات المتاحة لهم، فإن استطاعوا ذلك صاروا لا يفترقون شيئًا - عنده - عن الآلهة!!

---

(١) يقول الدكتور لطفى عبد الوهاب يحيى أستاذ الحضارة بجامعة الإسكندرية: «لقد كان راسخًا فى تصور اليونان فى عصورهم المبكرة أن هناك تزاوجًا ومعاشرة بين بعض الآلهة بما فيهم كبيرهم زيوس وبين بعض البشر.. والصورة التى يذكرها فى هذا الصدد شعراء الملاحم اليونان فى العصر المبكر كثيرة ويطول أمر سردها .. إن هذا التداخل قد وصل إلى الحد الذى تجد فيه البشر والآلهة يكادون يقتربون من التساوى، بل ترجح فيه كفة البشر الآلهة أحيانًا مثال ذلك أوريستيس وربات العقاب».

«الأسطورة فى مأساة أوديب ملكًا» بحث للدكتور لطفى عبد الوهاب يحيى، نشر بمجلة عالم الفكر المجلد السادس عشر: العدد الثالث ديسمبر ١٩٨٦».

أما سقراط الذى كان يسير فى الأسواق والشوارع باحثًا عن الحكمة دون أن يدعى معرفتها، ومحذرًا للناس من اتباع السوفسطائيين الذين كانوا يبرهنون على الشىء الواحد أنه حق وأنه باطل بحسب الفائدة العائدة عليهم من الذهاب إلى أحد القولين فقد حكموا عليه بالإعدام بشرب السم.

وأفلاطون - الذى يكاد يقترن اسمه بالمثالية - بعد أن قسم مجتمعه المنشود «جمهوريته المثالية» إلى عدة طبقات هرمية وضع الصناع فى منزلة يرثى لها وأوصى بالشيوعية الجنسية للطبقة الحاكمة التى منحها كل السلطات الديكتاتورية، ولم يترك فى جمهوريته «المثالية»!! مكانًا لضعيف، حيث أوصى بطرد الضعفاء منها.

أما أرسطو أشهر فلاسفة الإغريق وفخر الحضارة الغربية ومعلم الإنسانية الأول - كما يدعون - فيتصور الله فى فلسفته عاجزًا ومنعزلا عن العالم ولا يفكر إلا فى ذاته، أما أفكاره السياسية والاجتماعية فقد ذهب المفكرون إلى أنها كانت تسويغًا لوضع الطبقات الحاكمة فى بلاد اليونان وتبريرًا منطقيًا لها لكى يستمر الوضع القائم على ما هو عليه.

ولا يستطيع أحد أن ينكر قيام الديمقراطية المباشرة عند الإغريق ولكنها مورست بشكل محدود فى بعض المدن اليونانية القديمة ولم تخل هذه الممارسات على كل حال من الأرستقراطية.

ومن ذلك العهد والمؤرخون الغربيون يؤرخون للعالم على أنه صراع بين المواطنين الأوروبيين الأحرار وبين غيرهم من البرابرة[٢].

وقامت الدولة الرومانية دولة البغى والسيطرة والعدوان، دولة قامت على القوة ولا تفهم منطقًا غير القوة، ولهذا فقد كان من الطبيعى جدًا أن يقوم القانون الرومانى القديم - وهو المصدر الأساسى لكافة القوانين الغربية حتى الآن - على منطق القوة والاعتراف بالحق القائم على القوة وعلى أن يحافظ كل المحافظة على المراكز القانونية التى أنشأتها القوة مهما صاحب هذا النشوء من ظلم وعدوان.

أما التعاليم اليهودية فقد جعلت المادة هى الغاية الأساسية من الصراع الإنسانى واعتبر اليهود أنفسهم شعب الله المختار الذى تستباح من أجله أموال البشر ودماؤهم وأعراضهم، واعتقدوا أن الجنة الموعودة ما هى إلا فردوسهم الأرض الذى لن يشاركهم فيه أحد، ولله عندهم صفات يكيفونها كيفما يشاءون فمثلا إذا غضبوا من الله فإنهم

---

(٢) رجاء جارودى: «حوار الحضارات».

يقاتلونه ويبنون الأبراج لمقاتلته!!!

ويذهب علماء الأديان إلى أن أصل المسيحية الغربية يرجع إلى مزيج من الديانة السماوية المنزلة وديانتهم الوثنية القديمة وأن الذى قد تسبب فى ذلك هو وساطة بعض الكُهَّان ورجال الدين وحاشية القيصر الذين عز عليهم سقوط آلاف الشهداء قتلا وتعذيبًا نتيجة اضطهاد القياصرة لأتباع الديانة الجديدة فصنعوا ذلك الصنيع، والرواية الغربية لقصة ميلاد المسيح تشبه إلى حد كبير ما يحدث من وقائع فى أساطيرهم القديمة التى قد أشرت إليها سلفًا، ولك أن تفهم المغزى من وراء نزول الإله الابن وخالق العالم والمسئول عنه - عندهم - من عليائه لالتماس خلاص البشر من أنفسهم ثم يترك نفسه لأعدائه يصلبوه! لماذا؟ ليفتدى ذنوب البشر!!! هكذا هو الفداء، وهكذا هى الآلهة عندهم.

ولقد أضفوا على تعاليم المسيح المدونة فى كتبه المقدسة طابعهم المميز فمثلا «دع ما لله لله وما لقيصر لقيصر» دليلا على وجوب انسلاب إرادة الشعوب أمام بطش القياصرة واستبدادهم، وقوله: إذا ضربك أحد على خدك الأيمن فأدر له خدك الأيسر» فقد طبقوه بأن جعلوا من أنفسهم ذلك الأحد الذى يضرب ويبطش وعلى باقى البشر أن يتسامحوا ويديروا له الخد الأيسر أيضًا.

ومر الزمان وجاء الإسلام كانقلاب كونى كامل على كل التصورات المشوشة والقداسات المزيفة والعلاقات الإنسانية الظالمة انقلاب كونى ثائر على كل الطواغيت والمستبدين والآلهة المصطنعة، دعوة نورانية متفجرة حطمت كل الأساطير الخرافية والأفكار الرجعية والتقاليد البالية والعصبيات القبلية وألقت بها فى مكانها المناسب فى مزبلة التاريخ. وامتدت دولة الإسلام من حدود الصين شرقًا إلى المحيط الأطلنطى غربًا وأحاطت بأوروبا من كل جانب ولم تترك لها إلا نصف المساحة المعروفة لها الآن، وكان من الطبيعى أن تضطرم فى صدور الأوروبيين نيران الحقد والانتقام فكانت الحروب الصليبية.

يقول المؤرخ الأمريكى كافين رايلى[٣] عن هذه الحروب وغيرها من الحروب الغربية: «إننا جعلنا الحرب أمرًا يستحق الاحترام بأن أضفنا عليها هدفًا أخلاقيًا ساميًا. وقد تصدينا للحرب بدرجة من التحضر ولا يطيب لنا أن نعترف بحاجتنا إلى إمبراطورية أو

(٣) الغرب والعالم: القسم الأول «سلسلة عالم المعرفة: الكويت».

عبيد كما كان يفعل الرومان، ولا يوجد فى مجلس الشيوخ الأمريكى عضو يستطيع أن يقول -كما قال كاتو- غزوًا كما فعل البرابرة الأوائل والفايكنج فيما بعد بالغنائم التى سنحصل عليها. إننا نحب أن نلجأ إلى المبررات المثالية لحروبنا ويجب على نحو أشد حتى من الرومان أن نجد طريقة تجعلنا نطلق عليها الحرب الدفاعية، ولا بد لنا من الاقتناع بأننا نضحى فى سبيل غيرنا. وهذا يقتضى الاقتناع بأن الآخرين مهددون بقوة خطيرة تكاد تكون شيطانية، وأننا الحماة المصطفون للتهذيب والفضيلة والخير وقد تعلمنا (كما توصى الكلمات الدينية فى العبارة السابقة) أن نجعل حروبنا مقدسة بأن نصبح جنودًا مسيحيين والواقع فإن الأفكار البربرية والإقطاعية قد حضرت إلينا بتوسط الكنيسة المسيحية، وقد اتضح لنا أن التدخل المسيحى كان يؤدى أحيانًا إلى تهدئة الأهالى لأى شىء يهيجهم وكثير من العادات البربرية الأكثر همجية قد هذبت بتدخل الكنيسة.

ولكن إصرار الكنيسة على تمسكنا بأهداب الأخلاق قد يكون سلاحًا ذا حدين إذ إن أى شىء يصبح أخلاقيًا بمجرد أن نطلق عليه هذا الاسم، زيادة على ذلك فالاقتناع بأننا الأكثر أخلاقية أو الأكثر صوابًا يمكن أن يولد تعصبًا مسكرًا تدور منه الرءوس.

لقد اكتسبنا القدرة قبل الحروب الصليبية بعهد طويل على تبرير أشد أفعالنا بربرية باسم الله أو باسم الحضارة المسيحية أو باسم العالم الحر وهى الصورة العلمانية لهذه الحضارة» اهـ.

والحمد لله فقد انتهت الحروب الصليبية الأولى - التى دفعت إليها أوروبا بالملايين من أبنائها تحت شعار الصليب الكاذب - بانتصار المسلمين الساحق والعادل بعد أن ترسخ فى ذهن المغامرين الأوروبيين على حد قول المفكر والمؤرخ الإنجليزى هـ.ج. ويلز[٤]: «إن الرجال كانوا يذهبون لقتال المسلمين فلا يعود منهم إلا الملوك والنبلاء فرادى مشردين وغالبًا ما يكون ذلك بعد أن تفرض ضرائب باهظة على الناس لجمع الفدية لهم».

وكانت أهم نتائج هذه الحروب التى أدت إلى الاحتكاك الطويل بين المسلمين والأوروبيين أن النور الإسلامى قد أشرق على ظلام أوروبا نفسها والتى كانت تعيش فى ظلمات الجهل والتخلف والتمزق والاستبداد والكهانة والصراع الدامى بين الأمراء والملوك والبابوات حول السلطة والزعامة.

---

(٤) «معالم تاريخ الإنسانية» لـ هـ. ج. ويلز: المجلد الثانى، الجزء الثالث من الترجمة العربية لعبدالعزيز توفيق جاويد «لجنة الترجمة والتأليف والنشر»

وكانت أهم المعطيات النهضوية التى منحها الإسلام لأوروبا هى تجريد الملوك والزعماء ورجال الدين من هالات التقديس والكهانة والعنصرية وإحالتهم إلى أشخاص عاديين فى ظل العدالة التشريعية الإسلامية يقع عليهم ما يقع على آحاد الأمة من الواجبات والحدود، إن قواعد الإسلام العظيمة فى العدل والمساواة والحق والحرية والشورى والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر عملت على اختزال المفاهيم التى تحكم العلاقات بين البشر إلى نديَّة استمدت وجودها من الله سبحانه وتعالى.

لقد دارت هذه الأفكار دورتها فى الفكر الأوروبى الحديث ثم ظهر أثرها المباشر وغير المباشر فى أفكار مفكرى أوروبا «وخصوصًا مفكرى الثورتين الأمريكية والفرنسية جيفرسون وفولتير وروسو» وما الإعلان عن حقوق الإنسان فى أمريكا وفرنسا أو حتى الأمم المتحدة إلا طبعة رديئة ومبتورة من حقوق الإنسان التى أعلنها الإسلام منذ أربعة عشر قرنًا.

أضف إلى ذلك أن عقيدة التوحيد قد أدت إلى تعرية المظاهر الكونية والأشياء الطبيعية من الأوهام التى كانت تتعلق بها وبددت مخاوف الإنسان تجاهها بعد أن كانت موضوعًا للعبادة والتقديس فانطلقت العقول العلمية تبحث وتنقب وتكشف وتجرب فى حرية كاملة وكانت النتيجة الحتمية لكل ما سبق هو اكتشاف المنهج العلمى التجريبى الذى أهداه علماء المسلمين لعلماء أوروبا(٥).

ولكن أوروبا بعقليتها المعهودة لم تتلق هذه المعطيات لإيمانها بالإسلام كدين وإنما انحازت إلى هذه المعطيات وصاغتها كحركة علمانية تحررية فى مواجهة استبداد الكنيسة والسلطة البابوية فى العصور الوسطى، وأضافت إليها أبعادها الخاصة التى تطورت منها بشكل ذاتى كالسياسات الميكافيلية والتى كانت على حد تعبير كافين رايلى(٦) «صورة جديدة للانطلاقة الوثنية القديمة»، هذا بالإضافة إلى البعد الفاوستى للعلاقات الإنسانية «وهو ما لاحظه جارودى بحق فى كتابه «حوار الحضارات»، وكذلك أنماط القيم المتغيرة التى تحددها تقلبات السوق الرأسمالية.

لقد ظلت أوروبا تقف موقفًا دفاعيًا أمام المد الإسلامى حتى عام ١٦٨٣ «أى العام الذى حوصرت فيه فيينا عاصمة النمسا على أيدى المسلمين الأتراك» وبالرغم من

---

(٥) راجع فى ذلك على سبيل المثال: قضية البعث الإسلامى: وحيد الدين خان. الغرب والعالم: كافين رايلى - حضارة الإسلام تشرق من جديد: أنور الجندى - العرب تاريخ وحضارة: أنتونى ناتنج.

(٦) الغرب والعالم.

التفوق العسكرى والتكتيكى الغربى الذى حدث بعد ذلك إلا أن أوروبا لم تستطع أن تغامر بشن هجوم معاكس على العالم الإسلامى إلا فى نهاية القرن الثامن عشر، حتى علل المؤرخ الكبير أرنولد توينبى[(٧)] ذلك «بسبب الصورة التى كانت فى مخيلة الغربيين عن شجاعة الأتراك والمسلمين وبسالتهم العسكرية».

إن الجهل بالتاريخ وبحقائق الإسلام من أهم الأسباب الرئيسية فى ذلك الشعور بالانسحاق والدونية الذى يعانى منه البعض أمام الحضارة الغربية بوجه عام مما جعلهم أوعية متسعة ومفتوحة لكل ما ينتجه الغرب من أفكار ومفاهيم وقيم.

لقد ظل الحقد والعداء للإسلام والرغبة فى الثأر والانتقام منه كامنًا فى صدور الغربيين على امتداد التاريخ وهذا ما جعله الهدف الرئيسى لغارات المستعمرين الغربيين ومغامراتهم، يقول المفكر المهتدى محمد أسد[(٨)] فى تفسير ذلك: «قد يبدو من سخرية التاريخ أن يظل هذا الحقد الغربى القديم ضد الإسلام قائمًا بطريقة لا شعورية فى زمن خسر فيه الدين القسم الأكبر من تأثيره فى مخيلة الغربى. بيد أن هذا فى الحق لا يبعث على الدهشة، فنحن نعرف أن شخصًا ما يمكنه أن يفقد بالكلية المعتقدات الدينية التى لقنها فى طفولته ومع ذلك فإن انفعالا معينًا ذا صلة بتلك المعتقدات يظل أصلا يستمر دونما وعى فى حالة العمل إبان حياته فيما بعد. إن خيال الحروب الصليبية لا يزال يرفرف فوق الغرب حتى يومنا هذا، كما أن جميع اتجاهاتها وتوجهاتها نحو الإسلام والعالم الإسلامى لا تزال تحمل آثارًا واضحة جلية من ذلك الشبح العتيد الخالد».

لقد كان هدف الاستعمار الغربى فى البدء على حد قول المفكر الإسلامى على شريعتى[(٩)] هو «إلغاء أصالة البشر الثقافية فى العالم كله من أجل إرساء دعائم المبدئية المطلقة لقيم الغرب» تلك القيم التى تصدر إلى مجتمعاتنا الإسلامية مثل «صندوق من المواد الغذائية توضع عليه علامته التجارية ويصل من الغرب فيستهلكه المفكرون، أو يصير مفكرًا وواعيًا كل من يستهلكه» وهكذا فقد كان هدف الاستعمار دائمًا هو أن يفرض أنماط السلوك الإنسانى التى تؤدى إلى اتساع فوهة أوعيتنا الاستهلاكية لكل

---

(٧) الغرب والعالم.

(٨) «أثر الحروب الصليبية على نظرة الغرب إلى الإسلام»: المختار الإسلامى.

(٩) العودة إلى الذات: دار الزهراء للإعلام والنشر.

ما يقدمه الغرب من منتجات، وبهذه الطريقة نقوم بالدور المرسوم لنا فى دفع عجلة المجتمعات الغربية التى يقودها ذلك النمو الذى يصفه الفيلسوف الكبير رجاء جارودى[١٠] بأنه «الازدياد الكمى فى الإنتاج وفى الاستهلاك دون الرجوع إلى مشروع إنسانى أو إلى صفة الحياة حيث إن هذا الازدياد الكمى هو المعيار الوحيد لتقدير جميع أشكال الحياة الاجتماعية بصرف النظر عن أية غائية إنسانية ولو أدى ذلك إلى الدمار» وعلى الجميع أن يتقبل تلك القيم الغربية التى يفرضها هذا النوع من النمو وعليهم أن يعتقدوا «أن ثقافتهم المحلية وشخصيتهم المحلية غير ذات مفهوم وأن عليهم من أجل أن يكونوا متحضرين أن يتقبلوا أدوات الغرب وأنماطه وقيمه»[١١].

والذى حدث فى النصف الثانى من القرن العشرين أن مركز ثقل الدول الكبرى قد تحول إلى أمريكا فأصبحت هى التى تتولى عجلة القيادة الغربية، مما أدى بدوره إلى قيادة الفكر البراجماتى الأمريكى الصنع - للفكر الغربى بوجه عام، فهو الفكر الذى يتناسب مع ذلك النمو الإنتاجى الكمى الذى يقود الحضارة الغربية ونتج عن ذلك أن القيم الغربية نفسها قد اختزلت إلى القيم البراجماتية النفعية التى تقدر قيمة الأشياء بمدى المنفعة الناتجة عنها، فالفلسفة البراجماتية لا تعتقد بصحة أو بطلان فكرة ما إلا بمقدار ما تحققه من المنفعة والأعمال الحقيقية الجديرة بالتقدير عندها هى الأعمال التى تعود على الإنسان بالنفع دون التساؤل عن مدى شرعية الأساليب المستخدمة أو الأضرار التى تلحق بالآخرين من جرائها ما دامت القيم الأخلاقية التى تقاس بها تلك الأعمال هى قيم الربح والخسارة.

ولأننا نسقط فى هوة التبعية السياسية والاقتصادية والإعلامية للغرب فإن تلك القيم البراجماتية الغازية قد مضت فى طريقها إلى نخر عقولنا والاستقرار فى ضمائرنا.

وإن كانت تلك القيم تعمل فى الغرب على إشعال الصراع الإنسانى من أجل المال والثروة - وهو فى الغالب صراع من أجل الازدياد الكمى وليس من أجل المصالح المعيشية الحقيقية - فماذا يا ترى من الممكن أن تفعل تلك القيم فى مجتمعاتنا التى يطحنها الفقر ويتعارك أفرادها من أجل الحصول على القوت الضرورى والمأوى الطبيعى؟؟.

إن هذا الكتاب يحاول أن يقدم إجابة موضوعية عن ذلك السؤال.

---

(١٠) حوار الحضارات.

(١١) العودة إلى الذات.

الباب الأول

التصور الإسلامي للوجود

﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾

أولا: الطريق إلى الحقيقة عند حكماء المسلمين

هناك عدة طرق لدى العلماء والحكماء المسلمين تمضى جميعها لتستقى من معين واحد معين الحقيقة.

اولا: طريق الوحى:

بالرغم من أن الوحى يعتبر من أهم الشواهد القاطعة على وجود الله إلا أن دور الوحى كطريق للمعرفة يأتى بعد مرحلة الإيمان بالله، حيث يعتبر الطريق الأساسى للمعرفة القطعية عند حكماء المسلمين بعد هذه المرحلة.

ثانيًا: طريق العقل:

يقسم المفكرون المسلمون الطريق العقلى إلى قسمين:

أولهما: البديهيات أو الضرورات العقلية أو المسلمات الرياضية ومن أمثلتها: النفى والإثبات لا يصدقان معًا فى شىء واحد «مبدأ عدم التناقض»، والحادث لا يوجد دون سبب «قانون العلية»، الواحد نصف الاثنين، الكل أكبر من الجزء، الصفات المتضادة لا تنسجم فى موضوع واحد، ومن المسلّمات الرياضية أنه إذا كان أ < أو > أو = ب وكانت ب < أو > أو = جـ فإن أ < أو > أو = جـ.

ويعتبر المفكرون المسلمون هذه البديهيات أو المسلّمات ضرورات عقلية يقينية تقوم على أساسها كل المعارف الأخرى ويعتبرون التشكيك فيها لا يصدر إلا عن عقول مريضة تريد إحالة كل المعارف الكونية إلى عبث.

ولقد استخدم القرآن الكريم الكثير من هذه الضرورات العقلية وأهمها المسلّمة الرياضية المشار إليها التى تسمى لدى المفكرين المسلمين بقياس الأولى وقد عرفه ابن تيمية بأنه «إثبات الحكم للشىء بناء على ثبوته لنظيره أو لشىء أولى بالحكم منه» وقد جاء فى القرآن الكريم:

﴿أَوَلَيْسَ الَّذِى خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم﴾ وكذا: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَن يُحْيِى الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ (٧٨) قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِى أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾.

ثانيهما: الاستدلالات العقلية والمنطقية:

بالرغم من التقدير الكبير للعقل لدى المفكرين المسلمين إلا أنهم لا يعتبرون الاستدلالات العقلية بمنأى عن الوقوع فى الخطأ حيث إن العقل لا عصمة له. وهم يرجعون ما تتعرض له هذه الاستدلالات من أخطاء إلى بُعد المسافات بين المقدمات والنتائج المرجوة منها وعدم الإلتزام بالإحاطة والتجرد عند التعرض للمسألة المطروحة، وعلى هذا فإن الاستدلالات العقلية عندهم صواب لم يثبت عليه الخطأ، ويلخص ذلك المقولة المشهورة: «كلامنا صواب يحتمل الخطأ وكلام غيرنا خطأ يحتمل الصواب».

وبالإضافة إلى ما سبق فإن المفكرين المسلمين وضعوا للعقل حدودًا خاصة يقدرون أنه لا يستطيع تجاوزها فهو وإن كان يستطيع الاستدلال على وجود الله إلا أننا لا نستطيع الاعتماد عليه فى الاستدلال على صفاته أو على الأخذ به فى الغيبيات بوجه عام.

وتجد هذا الموقف واضحًا عند مفكرى السلف «وموقفهم من المعتزلة الذين يقدمون العقل على النقل معروف» وعند واضعى أصول الفقه حيث يعتبرون الدليل العقلى دليلا ظنى الدلالة وتجده أيضًا عند ابن حزم فبالرغم من تقديره الكبير للاستدلالات العقلية إلا أنه يعترف بعُرضة من يريد إقامة حجته على الاستدلال العقلى للوقوع فى الخطأ[1]. ويزداد هذا الموقف وضوحًا وتأكدًا عند الغزالى فى كتابه «المنقذ من الضلال» وعند ابن تيمية فى كتبه «نقض المنطق والرد على المنطقيين ودرء تعارض العقل والنقل» وهذا ما يذهب إليه أيضًا أغلب المفكرين الإسلاميين فى العصر الحديث وعلى رأسهم وحيد الدين خان.

ويشترط فى الاستدلال العقلى لكى يقترب من اليقين الإحاطة بالمسألة أو القضية التى يتصدى لها وكذلك التجرد عند البحث عن حكم عقلى لها، ومن المفهوم أن هذين الشرطين قد يصعب توفرهما، لكنهما يظلان شرطين أساسيين للاستدلال العقلى.

وهذا هو أيضًا نفس موقف القرآن الكريم من هذا الموضوع فالشرط الأول ينطبق عليه قول الله تعالى: ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولًا ﴾.

---

(١) راجع فصل حجج العقول فى كتاب ابن حزم «الإحكام فى أصول الأحكام».

وينطبق على الشرط الثانى قول الله تعالى لنبيه داود: ﴿يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾.

أما الآية الكريمة: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى﴾. فإنها تلخص هذين الشرطين معًا.

موقف المفكرين المسلمين من منطق أرسطو:

باستثناء البعض ممن يسمون بالفلاسفة المسلمين من أمثال ابن سينا والفارابى، فإن المفكرين والحكماء والعلماء المسلمين قد وقفوا من المنطق الأرسطى موقف الرفض، بل الاستعلاء والسخرية:

يقول الإمام الشافعى[٢]: «ما جهل الناس ولا اختلفوا إلا لتركهم لسان العرب وميلهم إلى لسان أرسطو» ويقصد بذلك تركهم حكمة العرب وميلهم إلى منطق أرسطو ويصرح ابن قتيبة[٣] فى أدب الكاتب بأن «واضع المنطق لو عاش حتى عصرنا «ويعنى عصر ابن قتيبة» لكى يسمع الكلام فى الدين والفقه والنحو لعد نفسه من البكم، أو يسمع كلام رسول الله ﷺ لأيقن أن للعرب الحكمة وفصل الخطاب» ويقول ابن تيمية[٤]: «إنه لم يكن أحدٌ من نظار المسلمين يلتفت إلى طريق المنطقيين بل الأشعرية والمعتزلة والكرامية والشيعة وسائر الطوائف كانوا يعيبونها ويبينون فسادها».

ويبين فى كتابه «الرد على المنطقيين» أنه حتى القضايا الصادقة من المنطق اليونانى «لا يحتاج إليها الذكى ولا ينتفع بها البليد».

ونحن نقصد من سرد هذه الأقوال أن نظهر مدى أسبقية العقلية المسلمة وتطورها عن العقلية الأوروبية التى لم تستطع الفكاك من أسر المنطق الأرسطى إلا بعد موقف المسلمين منه بزمن طويل.

ثالثًا: الطريق التجريبى:

كثيرًا ما يضرب القرآن الأمثلة فى تأسيس المعرفة اليقينية على الإدراك الحسى فهو حين يرد على افتراءات المشركين يقول عنهم: ﴿مَّا أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَلا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ﴾ فهو قد نفى دعواهم لانتفاء المشاهدة، فمن أين إذن قد أتوا بتلك

(٢، ٣، ٤) نقلا عن الدكتور محمد الجليند فى كتابه «نظرية المنطق بين فلاسفة الإسلام واليونان».

الدعوى؟! إلا أن القرآن يشترط فى الحس. لكى يكون طريقًا للمعرفة - السلامة من المرض والسحر والسلامة من الهوى والغى الجسيمين.

فالمرض والسحر قد يجعلان الإنسان يرى ما ليس هو واقعًا بالفعل، فعندما يتحدث القرآن عما فعله سحرة فرعون فى موسى ﷺ يقول: ﴿ فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ﴾.

أما الذين يقعون فى أسر الغى والهوى الجسيمين فقد وصفهم الله تعالى بأنهم ﴿ صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لا يَرْجِعُونَ ﴾ أى أن الوقوع فى ذلك يعطل أدوات الحس نفسها عن الإدراك السليم، يقول تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَّ يَسْمَعُونَ بِهَا أُوْلَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴾.

ولقد بات معلومًا أن المسلمين هم الواضعون الحقيقيون لأسس المنهج التجريبى[٥]. ولكن الذى قد لا يكون معلومًا للبعض أن متقدمى المفكرين المسلمين كانوا يستخدمون التجربة أيضًا فى الاستدلال على صحة معارفهم الإنسانية، فتجد مثلا العبارة الآتية: «وهذا أمر يشهد به الحس والتجربة» تتكرر باستمرار فى كتابات عالمين كبيرين كابن تيمية وابن خلدون للاستدلال على صحة آرائهما المتعلقة بالمعارف الإنسانية وخصوصًا ما يتعلق بسلوك الإنسان.

وعلى هذا الأساس لم يكن غريبًا أن المفكرين المسلمين فى العصر الحديث كانوا أشد المتحمسين للمنهج التجريبى كطريق علمى لالتماس المعرفة الصحيحة وذلك على أساس أنها بضاعتهم ردت إليهم.

ولكنهم يؤصلون موقفهم من المنهج التجريبى كالآتى:

أولا: أن المنهج التجريبى ذاته يقوم على الكثير من الاستدلالات العقلية كالقياس والاستقراء؛ لذلك فكلما اعتمدت التجربة اعتمادًا كبيرًا على هذه الاستدلالات كلما كانت عرضة لتوجيه الانتقادات إليها، وكلما قل دور الاستدلالات العقلية فيها، كلما

---

(٥) يقول بريفولت فى كتابه «بناء الإنسانية»: «إن المناقشات التى دارت حول واضعى المنهج التجريبى هو طرف من التحريف الهائل لأصول الحضارة الأوروبية وقد كان منهج العرب التجريبى فى عصر بيكون قد انتشر انتشارًا واسعًا وانكب الناس فى لهف على تحصيله فى ربوع أوروبا» نقلا عن الأستاذ محمد شديد في كتابه «قيم الحياة فى القرآن الكريم».

كانت نتائجها أقرب إلى الصحة.

ثانيًا: أن النظريات العلمية هى عبارة عن فروض علمية ناجحة استطاعت أن تفسر الكثير من مشاهداتنا إلا أنه بازدياد قدرتنا على المشاهدات الأدق قد تعجز هذه الفروض عن تفسير تلك المشاهدات وبذلك تسقط عنها الصفة العلمية.

ومثال ذلك نظريات نيوتن فى الضوء التى قابلها العلماء بحماس شديد فى أول الأمر ثم ثبت بعد ذلك محدودية مجالها وفشلها فى تفسير مظاهر جديدة للضوء.

يقول البروفيسور سوليفان بعد نقد وجهه إلى النظريات العلمية: «هذا العرض للنظريات العلمية يثبت أن معنى «نظرية علمية صحيحة» أنها «فروض علمية ناجحة» ومن الممكن تمامًا أن يكون سائر النظريات العلمية باطلا، ذلك أن النظريات التى نعتبرها اليوم «حقيقة» ليست إلا «قياسًا على وسائلنا المحدودة للملاحظة»، ولا تزال قضية الحقيقة فى عالم العلم «قضية عملية نفعية»[٦].

ثالثًا: إنه إذا كان من المستحيل إثبات الدين علميًا لدى الغربيين ويتعلق بموضوع غير قابل للإثبات بالتجربة العلمية فللسبب نفسه يجب أن يكون رفض الدين مستحيلا أيضًا، بناء على نفس المقاييس، وبكلمة أخرى «يتلخص موقف العصر الحديث فى أنك لو حاولت إقامة الأدلة لإثبات الدين فإنهم سيقولون لك: إنك تجهد نفسك عبثًا؛ لأن الدين ليس بشىء يمكن إثباته علميًا لعدم إمكان خضوعه لمقاييس العلم الحديثة ولكن هؤلاء أنفسهم عندما يقيمون الأدلة ضد الدين، يجعلون من ذلك الدين نفسه «الذى سبق أن زعموا أنه غير قابل للخضوع للتجربة العلمية» ميدانًا يمكنهم إقامة الأدلة العلمية لرفضه!!»[٧].

رابعًا: ويؤكد المفكرون والحكماء المسلمون - على حد قول الإمام محمد باقر الصدر[٨] - على أنهم لا ينكرون على التجربة فضلها العظيم على الإنسانية ومدى خدمتها لميادين العلم وإنما هم يريدون أن يفهم هؤلاء التجريبيون أن التجربة ليست هى المقياس الأول والمنبع الأساسى للأفكار والمعارف الإنسانية.

خامسًا: بالرغم من كل ما سبق فإن حكماء المسلمين يتحمسون للمنهج التجريبى ولكن بشروطهم الخاصة ويطمئنون إلى نتائجه فى المعارف الإنسانية أكثر من

---

(٦) نقلا عن المفكر الكبير وحيد الدين خان فى كتابه «الإسلام يتحدى».

(٧) نقلا عن المؤلف السابق فى كتابه «الدين فى مواجهة العلم».

(٨) فلسفتنا.

الاستدلالات العقلية أو «المذهب العقلى» وعلى رأس الذين ينحون هذا المنحى وحيد الدين خان ورشدى فكار. حتى إن المفكر الكبير وحيد الدين خان يقترح أن تكون حقائق العلم الحديث هى المواد الأساسية لعلم الكلام الإسلامى المعاصر.

ولكنْ هناك سؤال يطرح نفسه كثيرًا: هل من الممكن أن يحدث صدام بين بعض المعارف الناتجة عن طريق الوحى مع بعض المعارف الناتجة عن طريق المنهج العلمى التجريبى؟

يجيب المفكرون والحكماء المسلمون: إن ذلك فى الحقيقة لم يحدث أبدًا وإنما الذى قد يحدث من تصادم ظاهرى سببه يرجع إلى أحد أمرين: إما عدم الوعى السليم بالحقيقة القرآنية، وإما عدم ارتقاء المقولة العلمية إلى درجة الحقيقة فى مفهومهم العلمى للحقيقة.

فهناك بعض النظريات، أو بقول أقرب إلى الدقة فروض كما سبق أن أشرنا إلى ذلك لا تجد ما يسندها إلا مجرد قرينة جائزة ولكنها تجد العلماء الغربيين قبولا علميًا يرتقى إلى درجة الحقيقة، وذلك فى حالة عدم وجود نظرية أقوى لتفسير تلك المشاهدات والتجارب التى تفسرها النظرية أو الفرض السابق، وفى حالات كثيرة يكون ذلك القبول ناتجًا عن رفض الغربيين أنفسهم للفروض الأخرى - والتى قد تتمتع بقرائن أقوى - لأنها تتعارض مع أغراض معينة لهم تخرج عن النطاق العلمى.

وقد يحدث كثيرًا بعد اتساع القدرات العلمية على المشاهدة والتجريب أن تعجز النظريات السابقة عن تفسير المشاهدات والملاحظات الجديدة وتصطدم مقولاتها معها، فيضطر العلماء الغربيون إلى أن يضربوا بها عرض الحائط والبحث عن نظرية أخرى مشروطة بشروطهم.

ولأن تلك النظريات من غير الممكن تقبلها لدى الحكماء المسلمين على أنها حقائق علمية، فإنها تظل عندهم مجرد فروض لا يستطيعون من أجلها الإطاحة بالحقائق القرآنية واليقينية. يقول الدكتور رشدى فكار(٩) فى تفسير ذلك: «إننا نستبعد الأطروحات المغشوشة أو المتعجلة وهى أطروحات ما نسميها «بالإحلال أو التبرير» والتى تسعى إلى إحلال العلم محل الدين أو العكس - إحلال الدين محل العلم - أو تبرير العلم بالدين أو تبرير الدين بالعلم الدنيوى النسبى والمحدود دون وعى بتسامى الدين فى كماله

(٩) لمحات من منهجية الحوار والتحدى الإعجازى للإسلام.

وشموله من منطلقه وعبر مسيرته وغائيته الخالدة، عن العلم بجزئياته ومرحليته بين التخطىء والتصويب، فإن كان ولا بد من تبرير فالعلم هو الذى يبحث عن سند وتبرير له من جانب الدين ليميز بين علم بناء للإنسانية وعلم مدمر لها».

والذى يظهر مدى ثقة المسلمين فى ذلك الموقف أبحاثهم المستمرة التى تقوم بالمقارنة بين الحقائق الإسلامية عن الإنسان والكون وآخر ما توصل إليه العلم الحديث من حقائق وذلك فى مؤتمراتهم التى يعقدونها بشكل مستمر وبحماس شديد عن الإعجاز العلمى فى الإسلام حتى إنهم يقومون بدعوة العلماء غير المسلمين من كل مكان فى العالم للمشاركة فى تلك الأبحاث.

رابعًا: طريق الوجدان:

فى مرحلة الاستدلال على وجود الله فإن الطريق الوجدانى يعتبر أحد الطرق الرئيسية التى تصل بالإنسان إلى الله بل إن هذا الطريق عند بعضهم «كالإمام الغزالى» هو المنقذ من الضلال الذى قد يقع فيه الإنسان فى عملية البحث عن الحقيقة وحتى حكماء المسلمين العصريين بالرغم من عقليتهم الشديدة التطور فإنهم ما زالوا يعتبرون الطريق الوجدانى أفضل الطرق الموصلة إلى الله.

يقول حكيم الإسلام العظيم - وحيد الدين خان[١٠]: «إن المسلم لا يحتاج إلى دليل عقلى حتى يؤمن بالعقائد الإسلامية، فإن منبع يقينه هو مشاهدته الداخلية، أو هو ذلك الوجدان الذى يعتبر - فى رأيى - أعلى وأرفع من التصديق العقلى».

أما بعد مرحلة الاستدلال على وجود الله أى بعد مرحلة الإيمان فإن الأمر يختلف عن ذلك كثيرًا لأن ما اطمئن إليه الوجدان، على الوجدان أن يستمد منه ما يزكيه ويهديه إلى الطريق المستقيم، أى أن الوحى يصير منبعًا للوجدان ذاته.

---

(١٠) الدين فى مواجهة العلم.

ثانيًا: التصور الإسلامى للوجود وأثره على الإنسان والمجتمع

التصور

ينطلق تصور المسلم للوجود من الإيمان بالله، فمن بؤرة هذا الإيمان تنطلق دائرة تصوراته وتفقد بفقدها، فارتكاز الإنسان على وعى ما لتصور الوجود لا يكون معقولا إلا بطرح هذه الإشكالية.. هل الله موجود أم غير موجود؟

فإذا كانت الإجابة هى الإيمان بوجود الله فإن النتيجة الحتمية لذلك هى الإيمان بباقى التصور الذى يقتضيه ذلك الإيمان.

فالإيمان بأن لهذا الكون خالقًا يقتضى أن لهذا الكون غاية من أجلها خلقه الله؛ لأن العبث صفة مستحيلة على الله خالق الكون.

وما دام أن لهذا الكون غاية أرادها الله الخالق له، فإن ذلك يعنى أنه قد وضع فى وعى الإنسان القدرة التى يعقل ويهتدى بها إلى تلك الغاية. وعلى ذلك فحقيقة الخير هى كل العوامل التى تهدف إلى تحقيق تلك الغاية التى خلق الله العالم من أجلها.

والمسلمون يؤمنون أن غاية الكون التى خلقه الله من أجلها هى العبادة لله وهى تعنى عندهم: الإخلاص والخضوع له وحده لا شريك له والتوجه إليه وحده دون غيره بالمحبة والرجاء والخوف والتذلل والتوكل والاستعانة وكل الأعمال التعبدية الأخرى.

وهى «مزيج من الحب والخوف، حيث يجرى الإنسان نحو الذى يخافه، ويتمنى وصال الذى يخشى عذابه. وهى اضطراب كله سكون، وسكون كله اضطراب»[11].

وكلما اجتهد المسلم فى عبوديته كلما تحرر من سطوة كل القوى الأرضية الطاغوتية حتى تزول كل الحجب بينه وبين الله فيصير عبدًا ربانيًا يستمد النور من نور الله، والقوة من قوته.

والمسلمون يؤمنون أن الكون مطبوع على طاعة الله والخضوع له وجعل الله الناس سواسية لا فضل لعربى على أعجمى إلا بالتقوى، فإذا أخلص المسلم عبوديته لله هانت

---

(١١) وحيد الدين خان: حكمة الدين.

فى قلبه كل المخلوقات واستصغر جبابرة الخلق فى نظره وصار سيدًا وخليفة لله فى أرضه.

أما إذا بعد الإنسان عن الله وعصاه تهون عليه نفسه ويبتلى بالهم والقلق والشطط والخوف من آحاد الناس، والرعب من أهون المخلوقات،

فليتك تحلو والحياة مريرة ... وليتك ترضى والأنام غضاب
وليت الذى بينى وبينك عامر ... وبينى وبين العالمين خراب
إذا صح منك الود فالكل هين ... وكل الذى فوق التراب تراب

والعبودية لله تقتضى ارتقاء الإنسان وعزته، وسموه عن النقائص، فهى مشروطة برعاية حقوق العباد ومتضمنة لحسن معاملتهم ويكون الحاصل عن ذلك، شمول العبودية لارتقاء الإنسان وتحقيق السعادة بين البشر.

والتوحيد فى الإسلام يعنى ثلاثة أمور:

اولا: توحيد الربوبية:

وهو يعنى أن الله وحده لا شريك له هو الذى خلقنا وخلق العالم وهو رب الناس أجمعين، وهو مالك الأمر فى هذا العالم كله لا شريك له فى ملكه ولا معقب له فى حكمه.

ثانيا: توحيد الألوهية:

وهو يعنى أمرين؛ أولهما: أن الله وحده لا شريك له هو الذى توجه إليه دون سواه جميع الشعائر والأعمال التعبدية من صلاة ودعاء وتوكل وخوف ورجاء واستعانة، أما الثانى فيعنى أن الله وحده لا شريك له هو الحاكم الآمر الذى نتلقى منه الشرائع التى تحكم كل قضايا وأمور حياتنا ونظام معيشتنا وكل ما يتعلق بدنيانا من سياسة واقتصاد وقواعد اجتماعية وغير ذلك من الأمور.

ثالثًا: توحيد أسماء وصفات:

وهو يعنى الإيمان بما جاءت به النصوص من أسماء وصفات لله مثل كلامه وضحكه وفرحه واستوائه وغضبه ورضاه وملكوته وعرشه دون إعمال للعقل فى تلك الأمور الغيبية بالقياس والتشبيه أو النفى والتعطيل أو الرد والتأويل ولكن فى إطار قوله تعالى:

﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾.

وعقيدة التوحيد - تمنح المسلم الشعور بالأمن والحرية والانطلاق فى هذا العالم دون خوف أو رهبة من أحد، فالتوحيد التزام أمام إله واحد يعبده الإنسان ويحبه، ويتلقى منه أوامره ونواهيه، أما ما بالكون من مخلوقات فهو يعلم أن الله قد سخرها لخدمته لو أخلص عبوديته، فالمسلم ينظر إلى كل ما خلق الله من مخلوقات دون الإنسان والملائكة - نظرة استعلاء، وينظر إلى كل البشر مثله نظرة مساواة، أما الملائكة فهم رسل الله إلى الأنبياء لهداية البشر؛ ولهذا فهو لا يخضع إلا لله الواحد الأحد، وليس لأحد حق عليه إلا الله أو ما منحه الله للآخرين من حقوق عليه، ويكون التزام الإنسان عند هذا الحد هو التزامًا أمام الحقوق التى منحها الله إياهم وليس التزامًا أمام رهبة الآخرين أو الخوف منهم.

فللإنسان مطلق الحرية فى أن يفعل ما يشاء فى هذا الوجود ما دام قائمًا بأداء واجباته نحو الله الواحد الأحد الذى يؤمن به ويحبه ويخشاه.

ولا مقارنة بين تلك الحرية الإسلامية المشروطة بأداء واجبات الله، وحرية الملحدين غير الملتزمة بقيد أو شرط؛ لأن أداء واجبات الله يؤدى إلى أمن الإنسان ذاته والأمن والسلام العالمى بين البشر، فحرية المسلم حرية كاملة مع الأمن الكامل، أما حرية الملحد فهى حرية التمزق والهلاك.

والإيمان بالله يمنح الإنسان الشعور بأن هناك قوة عليا أزلية سرمدية لا يجوز عليها الفناء، بعكس هذا العالم الفانى الذى يمضى حتمًا إلى الزوال، فيحيا المؤمن حياة كلها الأمل والرجاء لإيمانه بأن الله دائم باق، وكأن هذا الإيمان هو النور الذى يخرجه من ظلمات الشعور بالفناء السارى على جميع الموجودات الذى يشعر به الملحدون فيصيبهم اليأس والخوف والرعب، فالإيمان بالله أمل ورجاء وقوة والإلحاد به تشاؤم ويأس وخوف وأسر للإنسان فى شرك الشعور بفناء الوجود ومسيره إلى الزوال.

والإيمان بالله فى الإسلام ليس مجرد كلمة تلقى جزافًا، وإنما هو «إقرار باللسان وتصديق بالجنان «بالقلوب» وعمل بالأركان»[١٢].. فالمؤمن بالله تقع عليه مسئولية هذا الإيمان، فيكون مسئولا عن كل الأمور الداخلة فى مجال إرادته أمام الله، ومحاسبًا عن تلك المسئولية.

---

(١٢) الإمام الشافعى: الفقه الأكبر.

يقول شاعر الإسلام محمد إقبال: «حين أتذكر أنى مسلم أرتعد، لأنى أعرف جيدًا تبعات الإيمان بلا إله إلا الله».

والعقل فى الإسلام له حدوده التى يقف عندها وأهم هذه الحدود هى الغيبيات التى يقتضى إيمان المسلم التسليم بها ﴿الٓمٓ ① ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ② الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾.

«فلا تثبت قدم المسلم فى الإسلام إلا على ظهر التسليم والاستسلام فمن رام على ما حظر عنه علمه، ولم يقنع بالتسليم فهمه حجبه مرامه عن خالص التوحيد، وصافى المعرفة وصحيح الإيمان، فيتذبذب بين الكفر والإيمان والتصديق والتكذيب، والإقرار والإنكار، موسوسًا تائهًا شاكًا، لا مؤمنًا مصدقًا، ولا جاحدًا مكذبًا»[١٣].

والحاكمية لله تعنى أنه سبحانه هو المالك الآمر المشرع الذى لا يجوز لأحد غيره أن يحكم أو يأمر أو يشرع. فحق التشريع غير ممنوح لأحد من الخلق، غير ممنوح لهيئة من الهيئات، ولا لحزب من الأحزاب ولا لبرلمان ولا لمجموع البشرية فمصدر الحكم هو الله.. هو الذى يملكه وحده، وكل ما للناس هو مزاولة التطبيق لما شرعه الله أو الاستنباط والقياس على أحكام الله فيما لم يرد به نص.

والجاهلية ليست فترة تاريخية، وإنما هى حالة توجد كلما وجدت مقوماتها فى وضع أو نظام، وهى فى صميمها الرجوع بالتصور والحكم والتشريع إلى أهواء البشر، لا إلى منهج الله وشريعته للحياة، ويستوى أن تكون هذه الأهواء أهواء فرد أو أهواء طبقة، أو أهواء أمة، أو أهواء جيل كامل من الناس.. فكلها.. ما دامت لا ترجع إلى شريعة الله.. أهواء..

والطاغوت هو كل قوة قاهرة تتمثل فى دولة أو جماعة أو هيئة أو تنظيم أو شخص من الأشخاص - أو كائنًا ما كان من شىء - تبغى على الله وتتمرد على سلطانه وتنفذ حكمها فى أرضه وتحمل عباده على طاعتها بالإكراه أو بالإغراء واستسلام الإنسان لمثل تلك القوة وارتضاؤه لطاعتها مما لا شك فيه عبادة للطاغوت.

﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ «النحل: ٣٦».

والملائكة هم عمال الله فى مملكته، فبواسطتهم ينزل الله عذابه أو رحمته على من يشاء من خلقه وبواسطتهم يقبض الأرواح عند الموت.

---

(١٣) الإمام الطحاوى: العقيدة الطحاوية.

وبواسطتهم يسجل على كل إنسان ما يأتى به فى حياته من الأقوال والأفعال أو ما يمر بخلده من الأفكار والآراء وهم حراس جناته وزبانية جحيمه.

والملائكة وإن كانوا عبادًا لله مكرمين إلا أن الله قد كرم الإنسان، بفضله عليهم وسجودهم له وعلمه من العلم ما لا يعلمون.

والمسلمون يؤمنون بوجود الجن ويؤمنون أنهم مكلفون مثلهم وأن منهم المسلمين ومنهم الصالحين وأن الشياطين هم المتمردون من عالم الجن، ويقول الله تعالى عن الشيطان: ﴿إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُم بِهِ مُشْرِكُونَ﴾.

والمسلمون يؤمنون بأن السحر والحسد حقيقتان ذكرهما القرآن وأنهما ليسا بضارين أحدًا إلا بإذن الله وأن خير حصن يحتضن له المؤمن منهما هو القرآن الكريم.

والمسلمون يؤمنون بكل الكتب السماوية التى أنزلها الله على خلقه ومنها الكتب التى صرح القرآن بأسمائها مثل التوراة والإنجيل والزبور وصحف إبراهيم وموسى وكذلك أيضًا الكتب التى لم يصرح القرآن بأسمائها وعلى حسب العقيدة الإسلامية ما من أمة فى الأرض إلا وقد جاءها من الله رسول بكتاب مبين، وما كل الكتب التى أنزلها الله فى مختلف بقاع الأرض وفى مختلف أممها وشعوبها إلا جداول ينبوع واحد وأشعة مشكاة واحدة وما نزلت كلها إلا بنفس الحق والصدق والهدى والنور الذى يعرف به الإسلام، هذا من حيث الإيمان، أما من حيث الاتباع والطاعة فعلى المسلم أن ينقطع تمامًا عن سائر تلك الكُتب ويسلم كل روحه وجوارحه للقرآن وحده وذلك لما اعترى هذه الكتب من تبديل وتحريف، أما القرآن فهو كتاب الله الذى قدر له السلامة والحفظ كما فى قوله تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾، كما أن الكتب السماوية الأخرى كانت منوطة بأمة من الأمم وبفترة من فترات الزمان أما القرآن الكريم فهو رسالة الله الهادية إلى الأمم كافة وشريعة الله الحاكمة التى نسخت كل ما يسبقها من شرائع[١٤].

والمسلمون يؤمنون بكل رسل الله ولا يفرقون بين أحد من رسله فكلهم قد جاء بالحق والهداية إلى الناس ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ﴾، يونس: ٤٧. ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلاَّ خَلا فِيهَا نَذِيرٌ﴾، فالحق الذى أتى به كل الرسل واحد، ولهذا فالمسلمون لا يفرقون بينهم ولكنهم يؤمنون

---

(١٤) راجع «الحضارة الإسلامية» للعلامة المودودى.

بأن الله فضل بعضهم على بعض وفضل رسولنا الكريم محمدًا ﷺ عليهم جميعًا، فهو عبده المصطفى ونبيه المجتبى ورسوله المرتضى، وهو خاتم الأنبياء وإمام الأتقياء وسيد المرسلين وحبيب رب العالمين والمثل والقدوة الحسنة لخلقه أجمعين، كان خلقه القرآن وكانت شمائله هى أقصى ما يتطلع إليه البشر من الشمائل ليسموا إليها، وكانت حياته حياة رجل أرسله الله ليهدى الناس إلى الحق وهو يمشى فوق بركان ثائر بقلب مطمئن.

والرسل بشر مثلنا ينطبق عليهم ما ينطبق على سائر البشر من خصائص طبيعية، ولكنهم صفوة البشر الذين صاروا بوحى الله منارات الهداية إلى الحق، وكل من ينكر ما يختص به الرسل من الوحى فإنه يخرج بذلك عن ملة الإسلام.

والمسلمون يؤمنون بأن ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، وأن الله تعالى خالق كل شىء وأنه ما من ذرة فى السماوات ولا فى الأرض ولا فيما بينهما إلا والله خالقها وخالق حركاتها وسكناتها سبحانه لا خالق غيره ولا رب سواه[١٥].

وهم يؤمنون بأن «للعباد قدرة على أعمالهم ولهم مشيئة وإرادة وأفعالهم تضاف إليهم حقيقة وبحسبها كلفوا وعليها يثابون ويعاقبون ولم يكلفهم الله إلا وسعهم وقد أثبت لهم ذلك فى الكتاب والسنة ووصفهم به ولكنهم لا يقدرون إلا على ما أقدرهم الله عليه ولا يشاءون إلا أن يشاء الله»[١٦].

يقول تعالى: ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا (٧) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا (٨) قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا (٩) وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا ﴾.

ويقول سبحانه وتعالى أيضًا: ﴿ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴾.

ويقول جل شأنه: ﴿ إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَن شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا (٢٩) وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾.

فالإنسان لا يستطيع أن يختار شيئًا إلا إذا منحه الله القدرة على الاختيار وعلى ذلك فإن مشيئته معلقة على منح المشيئة الإلهية هذه القدرة له. فإذا منحته المشيئة الإلهية القدرة على الاختيار كان - بتملكه تلك القدرة - حرًا فى اختيار الفعل الذى يريده سواء كان هذا الفعل خيرًا أو شرًا، فالمشيئة الإلهية هى التى تمنحه القدرة على الاختيار دون أن تتدخل فى نوع الاختيار ذاته، أى أن القدرة الإلهية هى التى تمنح الإنسان نطاق

(١٥) الإمام حافظ بن أحمد حكمى: ٢٠٠ سؤال فى العقيدة الإسلامية.

(١٦) الإمام حافظ بن أحمد حكمى: ٢٠٠ سؤال فى العقيدة الإسلامية.

الاختيار فإذا اختار الإنسان طريق الهدى ففى نطاق المشيئة الإلهية وإذا اختار طريق الضلال ففى نطاق المشيئة الإلهية أيضًا(١٧).

وهذه العقيدة الإسلامية فى القضاء والقدر تبعث فى النفوس الثقة والمسئولية وتدفعها وتحفزها على انتهاج السلوك المستقيم وبذل الأسباب لارتقاء الصعاب وتنشيط الهمم على السعى والكسب وبلوغ المعالى وذلك لاعتقاد الإنسان فى إرادته الحرة على اتخاذ سلوكه وأفعاله، كما أنها تحمى الإنسان من اليأس والقنوط والإحباط إذا لم تساعده ظروفه على بلوغ أهدافه ومساعيه وذلك لإيمانه بأن ذلك مرتبط بمشيئة الله العلى القدير كما أنها تهدى الإنسان إلى السلوان والرضى بما قسمه الله من الأقدار وما وهبه إياه من الخيرات وما ابتلاه به من المصائب.

والمسلمون يؤمنون بأن الله لم يخلق الإنسان عبثًا.

يقول تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لا تُرْجَعُونَ﴾.

وإنما للإنسان غاية محدودة وهى الخلافة عن الله فى الأرض بإقامة عبوديته فيها وهو مسئول عن تلك الأمانة أمامه.

﴿يَوْمَ لا يَنفَعُ مَالٌ وَلا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلاَّ مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾، والإيمان باليوم الآخر هو الإيمان بعدل الله وحكمته النافذة وتطلع نحو السمو والخلود وتحلل من ذلك العالم الزائل الفانى إنه اليوم الذى فيه ﴿تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ «إبراهيم: ٤٨».

﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ﴾ وعلى ذلك فإن المسلم يحاول دائمًا أن يتحلل من كل القيود المادية التى تربطه بالأرض متشوقًا إلى الخلود فى الدار الآخرة التى هى خير وأبقى. ﴿تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الأَرْضِ وَلا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾.

فالمسلم يؤمن بقول الله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً ﴿٧﴾ وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا﴾. ويقول الرسول ﷺ: «الدنيا سجن المؤمن

---

(١٧) راجع المرجع السابق وكذلك كتاب «العقائد الإسلامية» للشيخ سيد سابق.

وجنة الكافر» وإن الجنة قد «حفت بالمكاره والنار بالشهوات» إن قول الرسول ﷺ لابن عمر: «عش فى الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل» يظل الصراط المستقيم للمؤمنين المخلصين.

لكن المسلم لا يعمر آخرته بخراب الدنيا ولا يعمر دنياه بخراب آخرته ولكنه يصلح دنياه بالعمل الصالح المخلص لآخرته، يقول تعالى: ﴿ وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا ﴾ ويقول الرسول ﷺ: «خيركم من لم يترك آخرته لدنيا ولا دنياه لآخرته ولم يكن كلا على الناس». رواه الخطيب فى التاريخ، إن المسلم يمشى على الأرض بثبات وقوة مجاهدًا لإعلاء كلمة الله وإقامة خلافته فيها مستعمرًا لخيراتها متفاعلا مع واقعها مترفعًا عن زخارفها واعيًا لسنن الله الخالدة ومسترشدًا بها.

ولأن الدنيا هى دار الفناء ولأن الآخرة هى دار البقاء ولأن الله قد وعد المؤمنين به بالرضوان والنعيم المقيم ولأن ما قدر له الفناء مهما طال عمره ليست له أية قيمة بالنسبة لما وعد الله به من خلود أبدى لا نهائى فإن أفعال المسلمين كلها تتحدد بما يرفع من قدرهم ومنزلتهم فى تلك الدار الباقية الخالدة.

إن المسلم ذا القلب العامر بطاعة الله ومحبته يتوق إلى آخرته عاشقًا متلهفًا للنعيم والخلود وهو يعيش بين عشاق الخراب.

فالمسلم يعشق الحقيقة ويعشق الخلود ويعشق الجنة ويعشق الطمأنينة والسكينة والرضا، وغاية عشقه لقاء الله ورضوانه.

الإنسان

وكلما ازداد قلب المؤمن حبًا لله ازداد له عبودية وحرية عما سواه وكلما ازداد له عبودية ازداد له حبًا وحرية عما سواه[١٨].

يقول الرسول ﷺ فى الحديث الصحيح: «ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان: من كان الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، ومن كان يحب المرء لا يحبه إلا لله، ومن كان يكره أن يرجع للكفر بعد إذ أنقذه الله منه كما يكره أن يلقى فى النار».

وعلى أساس هذا المنطلق الإيمانى للمسلم تتحدد الماهية التى يجب أن تكون عليها علاقاته وروابطه بالبشر والوجود كله بوجه عام.

(١٨) الإمام ابن تيمية: العبودية.

ومن هذا التصور الإيمانى تتحدد القواعد والنواميس التى تحكم العلاقات البشرية وتتآلف وتتجاوب مع نواميس الله الكونية.

فإذا أقام الإنسان حياته على مناهج وقوانين غير ربانية فإنها تتصادم مع سنن الله الحاكمة للكون والتى ليس لها تبديل ولا تحويل، إن ذلك السخط والتذمر الذى يحدث فى الكون ما هو إلا ناتج طبيعى عن ذلك التنافر بين أشياء الكون ومكوناته وبين التوجهات المعاصرة للنشاط الإنسانى المعادية لها، وثورة الطبيعة التى تحدث الآن - على الإنسان والمتمثلة فى جفائها معنا والتقتير علينا بخيراتها وفى ذلك الغضب المتحفز للبيئة ولذرات الكون علينا هى ناتج فعلى عن فقدان التوازن والتآلف بين المناهج والقوانين والتوجهات التى تحكم حياة البشر وبين قوانين الله ونواميسه التى تحكم الكون والطبيعة، فالكون جميعه وحدة واحدة تعظم الله وتسبحه.

والإيمان بالله هو المنطلق الذى يرى المسلم من خلاله ماهية الحقائق؛ ولهذا فالحقيقة واضحة والرؤية ناصعة والمسلم فى تواصل دائم مع الله يريه ما هو الحق ويرجوه أن يرزقه اتباعه ويريه ما هو الباطل ويرجوه أن يرزقه اجتنابه ووحى الله هو المصدر الوحيد لكل الحقائق العقائدية ولذلك فإن الإسلام يحرر الناس من كل الأوهام التى تتعلق برءوسهم وتنغص عليهم حياتهم وتحجبهم عن التوحيد الخالص لله رب العالمين.

يقول الرسول ﷺ: «من تعلق تميمة فقد أشرك».

ويقول أيضًا: «إن الرقى والتمائم والتولة شرك» ومعنى التولة: أشياء تصنع لتحبب المرأة إلى زوجها، ويقول كذلك: «الطيرة (أى التطير والتشاؤم) شرك» ويسأله معاوية بن الحكم: ومنا أناس يتطيرون؟ فيقول: «ذلك شىء يجده أحدكم فى نفسه فلا يصدنكم»[١٩].

وبهذا يتخلص المسلم من كل هذه «العقد» الجاهلية التى تتحكم فى حياة الكثير من الناس.

والمسلم مهما بلغ من الطاعة والرقى فهو يدرك جيدًا أنه لا شىء أمام الله خالقه من العدم ومانحه وجوده وهداه وسعادته ولذلك فهو لا يحيد عن مكانة العبودية التى أرادها الله له ولا يشطح بفكره إلى ذلك الجنون الذى يدعيه بعض المتصوفين عن

---

(١٩) فتح المجيد فى شرح التوحيد.

الاتحاد مع الله والفناء فيه أو التطاول على الله بمقارنة الإنسان به كما يفعل فلاسفة الغرب.

وإيمان المسلم يقتضى تسليمه ورضاه وحبه لكل ما شرع الله من أحكام وأوامر ونواه دون أن يسمح لهواه بالعبث أمام شرع الله فيعجبه هذا الحكم ولا يعجبه هذا الحكم لأنه لو حدث منه شىء من ذلك لا يكون مؤمنًا أصلا.

يقول تعالى: ﴿فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾.

ويقول جل شأنه: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾.

ويقول الرسول ﷺ: «لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعًا لما جئت به».

والتاريخ الإنسانى فى التصور الإسلامى ليس صراعًا من أجل المصالح الشخصية أو الطبقية للبشر وإنما هو صراع بين المؤمنين الذين يبغون الدار الآخرة ولا ينسون نصيبهم من الدنيا وبين الآخرين عبيد الدنيا عشاق الخراب.

والدين هو الأساس الأول والرئيسى للعلاقة والانتماء فى الإسلام وعلى هذا الأساس الأول تتحدد العلاقات والانتماءات الأخرى التى يقبلها الإسلام، يقول تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا...﴾.

ويقول الرسول ﷺ: «لا يؤمن أحدكم حتى يحب الشىء لا يحبه إلا لله».

فالموالاة ليست إلا لله فقط وللرسول وللمؤمنين، يقول تعالى: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾. بل إن مجرد الولاية لغير الله والرسول والمؤمنين تعد فى الإسلام كفرًا وخروجًا عن الدين.

والمسلم مأمور باستعمار الأرض واستخراج خيراتها وإصلاح معيشته وتحقيق النفع العام للمسلمين وللبشرية جمعاء - يقول الرسول - ﷺ: «من الذنوب ما لا يكفرها إلا الهم فى طلب العيش» رواه الطبرانى، «طلب كسب الحلال فريضة» البيهقى. «طلب الحلال جهاد»: القضاعى فى «الجامع الصغير». «ما أكل أحدكم طعامًا خيرًا من عمل يده» البخارى. «إن الله يحب العبد المؤمن المحترف» الطبرانى والبيهقى. «من فقه الرجل أن يصلح معيشته وليس من حب الدنيا طلب ما يصلحك» البيهقى.

«من سعادة ابن آدم المرأة الصالحة والمسكن الصالح والمركب الصالح، ومن شقوة ابن آدم المرأة السوء والمسكن السوء والمركب السوء».

«خيركم من لم يترك آخرته لدنياه ولا دنياه لآخرته ولم يكن كلا على الناس» الخطيب فى «التاريخ».

إن كل هذه النصوص الإسلامية تعمل على تحفيز المسلم واستنشاط همه لأقصى درجة ممكنة للعمل على تحصيل ما يصلحه وما يأتى بالنفع له ولجميع المسلمين بل وللمجتمع البشرى كله، دون أن يخل بذلك من توازنه فى تلبية ما تقتضيه دنياه من التزامات وتلبية ما تقتضيه آخرته من التزامات.

ولكن المهم فى كل ما سبق أن تكون الآخرة هى مبتغاه حتى فى سعيه من أجل تلبية متطلبات دنياه.

وسلوك المؤمن مرآة إيمانه، والرسول ﷺ هو الذى وصف الإيمان بأنه «ما وقر فى القلب وصدقه العمل».

وسئل: أى المؤمنين أكمل إيمانًا؟ فقال: «أحسنهم أخلاقًا». وسئل: من أحب عباد الله إلى الله تعالى؟ فقال: أحسنهم أخلاقًا وهو القائل: «خياركم أحاسنكم أخلاقًا».

فالمؤمن يرتقى بحسن خلقه إلى أعلى المراتب وأشرف المنازل عند الله سبحانه وتعالى.

يقول الرسول ﷺ: «إن العبد ليبلغ بحسن خلقه عظيم درجات الآخرة وأشرف المنازل وإنه لضعيف العبادة، وإنه ليبلغ بسوء خلقه أسفل درجة فى جهنم».

ويقول: «إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق».

ولهذا فإن خلق المسلم وشرف نفسه وزكاة روحه وتحرر قلبه من كل العلائق والوشائج المادية كل ذلك يمثل القيمة الحقيقية له فى المجتمع المسلم.

إن الإيمان الحقيقى هو الإيمان الذى ينعكس على سلوك المسلم الاجتماعى وسلوكه تجاه الكون بوجه عام، ولذلك فإن نشاط المسلم - الذى يشمل أقواله وأفعاله وحركاته وسكناته وصمته وفكره - داخل الإطار الكونى هو المرآة الصادقة لحقيقة إيمانه.

والنصوص التى تؤكد على حقيقة الارتباط بين إيمان المسلم وسلوكه الاجتماعى أكثر من أن تذكر:

يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ ۝١ فَذَٰلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ

﴿٣﴾ وَلا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ﴾.

وتفسير هذه الآيات فى مختصر الطبرى «أقدم المفسرين» هو: «أرأيت يا محمد الذى يكذب بثواب الله وعقابه، فهذا الذى يكذب بالدين هو الذى يدفع اليتيم عن حقه ويظلمه، ولا يحث غيره على إطعام المحتاج».

ومن أقوال الرسول ﷺ فى ذلك الارتباط بين إيمان المؤمن وسلوكه الاجتماعى:

«الدين المعاملة».

«لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه».

«من لم يهتم بأمر المسلمين فليس منا».

«ليس منا من بات شبعان وجاره طاوٍ «جائع».

«ليس منا من دعا إلى عصبية، ليس منا من قاتل على عصبية، ليس منا من مات على عصبية».

«لا يدخل الجنة من لا يأمن جاره بوائقه».

«لا يدخل الجنة من كان فى قلبه مثقال ذرة من كبر».

«من احتكر طعامًا أربعين يومًا فقد برئ من الله وبرئ الله منه».

«من مشى مع ظالم فقد سعى إلى النار».

«خير الناس أنفعهم للناس».

فالمؤمن الحق لا ينعزل عن الناس ولا يستنكف معاشرتهم وتحمل أذاهم لأن «المؤمن الذى يخالط الناس ويتحمل أذاهم خير من المؤمن الذى لا يخالط الناس ويتحمل أذاهم» و«المؤمن يألف فلا خير فيمن لا يألف ولا يؤلف» و«بحسب امرئ من الإثم أن يحقر أخاه المسلم»، فالاختلاط بالناس والعمل على إصلاحهم والتواضع واللين لهم من أهم الخصال التى يتصف بها المؤمنون فى الإسلام.

ونحن لا نتحدث هنا عن علاقة الذنوب والكبائر بعقيدة المسلم وإيمانه وإنما المحور الذى يدور حوله حديثنا هو أن الاعتقاد فى أن الإسلام دين منعزل عن السلوك والنشاط الاجتماعى للمسلم اعتقاد يتناقض تمامًا مع حقيقة الإيمان التى تحدث عنها القرآن وشرحها لنا الرسول ﷺ.

إننا يجب أن نجاهد جهادًا طويلا لكى نحرر العقول والقلوب من ذلك التدين المزيف الذى يفصم الإيمان بالله عن سلوك الإنسان ونشاطه الاجتماعى ويحدده فى التردد

على المساجد وإقامة الشعائر والتمتمة بالأذكار والالتزام ببعض الملابس والهيئات المرتبطة بالتدين فى أذهان الناس، إن ذلك المفهوم القاصر للإسلام قد فرض على الناس لقرون طويلة وكان الهدف من ذلك أن يرسخ فى أذهانهم أن الدين أو التدين هو مجرد الالتزام بتلك الأمور حتى إن الكثيرين من الذين تحرروا من ذلك المفهوم نظريًا ما زال سلوكهم العملى أسيرًا له فنجدهم لا يدخرون جهدًا فى الالتزام والمحافظة الدءوبة على السنن التعبدية لكنهم على غير استعداد لبذل أدنى جهد فى تأدية الفروض الاجتماعية الواجبة عليهم تجاه إخوانهم من المسلمين وقد يبلغ اهتمام بعضهم فى المحافظة على استخدام السواك أكثر من الاهتمام بدفع الحرج والمشقة عن بعض إخوانهم المسلمين والذى قد لا يكلفهم إلا القليل من البذل والجهد.

إننا نحقق بذلك التدين المزيف أكبر الآمال التى يسعى إليها العلمانيون بعزل الإسلام عن واقع الحياة العملية وحصره فى النطاق الضيق لبعض الشعائر والهيئات والأعمال التعبدية.

أما إذا استخدم هذا التدين المزيف كوسيلة لتحقيق بعض المصالح والمنافع الخاصة فإنه يصير بذلك تدينًا براجماتيًا «نفعيًا» وهو الخطر الكبير الداهم الذى نسعى إلى قتاله فى هذا الكتاب.

ولهذا فلا بد لنا من أن نقف وقفة صلبة من ذلك الغثاء الذى لا يغنى عن الحق شيئًا ونقول: إن من لا ينعكس إيمانه على سلوكه الاجتماعى واستهداف الصالح العام للأمة فليشك فى إيمانه - وذلك بمقتضى ظواهر النصوص القرآنية والنبوية التى سردناها سابقًا - أما تدينه فهو مجرد وهم زائف، فإذا استغل هذا التدين الزائف فى اجتلاب المصالح والمنافع الشخصية فإنه يكون بذلك قد تاجر فى دينه وباع آخرته بدنياه.

ومن أهم خصائص المنهج الإسلامى: صفة التوازن، التوازن بين دنيا الإنسان وآخرته والتوازن بين حقوقه وواجباته، والتوازن بين ما لنفسه وما لأهله وما للناس، والتوازن بين عبادته ومتعته وراحته ونومه.

يقول الله تعالى: ﴿ وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا ﴾.

ويقول الرسول ﷺ: «خيركم من لم يترك آخرته لدنياه ولا دنياه لآخرته».

ويقول عمرو بن العاص: اعمل لدنياك كأنك تعيش أبدًا ولآخرتك كأنك تموت غدًا.

وقال الرسول ﷺ لعبد الله بن عمرو بن العاص عندما بلغه أنه أقسم: «والله

لأصومن النهار، ولأقومن الليل: «ألم أخبر أنك تصوم النهار وتقوم الليل؟» فقال عبدالله: بلى يا رسول الله. قال: «فلا تفعل، صم وأفطر، ونم وقم فإن لجسدك عليك حقًا وإن لعينيك عليك حقًا، وإن لزوجك عليك حقًا، وإن لزَوْرك «أى زوارك» عليك حقًا» وفى رواية: «وإن لولدك عليك حقًا».

وليس ذلك التوازن هو مجرد وسط حسابى بين كل نقيضين تعارف عليهما البشر فهو ليس ناتجًا موضوعيًا عن فكر ومقاييس بشرية لانحرافات الإنسان وشطحاته وأغراضه وانحناءاته - وهو على كل حال أمر لا يملك عقل بشرى قياس أبعاده هنا وهناك لكى يمكنه استنباط وسط حسابى له - وإنما ذلك التوازن هو حكمة الله التى منحها للإنسان لضبط الاعتدال فى تلبية حاجاته الحقيقية وميوله ورغباته ومشاعره الحقيقية الكامنة فيه وهى أمور لا يملك تقويمها إلا الله سبحانه وتعالى:

والمسلم يتطلع إلى الجمال فى كل شىء، وقد سئل الرسول ﷺ: «إن الرجل يحب أن يكون ملبسه حسنًا ونعله حسنًا أفهذا من الكِبر؟ فقال: «إن الله جميل يحب الجمال، الكِبر بطر النعمة وغمط الناس».

ولكن ليس الجمال فى الإسلام هو الجمال المادى فقط وإنما هو أيضًا جمال السجايا - والطباع والأخلاق، جمال الطاعة لله والسكينة بطاعته، جمال الاتساق مع كل ما هو ربانى، جمال الانسجام مع سنن الله فى الكون والإنسان.

يقول تعالى: ﴿قُل لاَّ يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ﴾.

ويقول الرسول ﷺ: «خير النساء التى تسره إذا نظر، وتطيعه إذا أمر، ولا تخالفه فى نفسها ولا مالها بما يكره». رواه أحمد والنسائى.

«رحم الله امرأ اكتسب طيبًا وأنفق قصدًا وقدم فضلا ليوم فقره وحاجته».

ومن هذا الجمال أيضًا اللين والرحمة واليسر فى الدين وليس كما يعتقد الجهلاء أن الدين يقترن بكثرة التحريم.

يقول تعالى: ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾.

ويقول الرسول ﷺ: «إن الرفق لا يكون فى شىء إلا زانه ولا ينزع من شىء إلا شانه».

«لا يرحم الله من لا يرحم الناس» متفق عليه.

«بشروا ولا تنفروا ويسروا ولا تعسروا» متفق عليه.

«لا تشددوا على أنفسكم فيشدد عليكم، فإن قومًا شددوا على أنفسهم فشدد الله

عليهم، وتلك بقاياهم فى الصوامع والديارات» ثم تلى قوله تعالى: ﴿ وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ﴾ الحديد: ٢٧. رواه أبو داود.

والمسلم يخوض الصراع فى معترك الحياة ببسالة المقاتل وبراعة المحارب وعفة المجاهد وبقلب الشهيد.

إنه لا يضع على عينيه أى غشاء من الفكر المسبق لكى يرى الواقع ويكيفيه بما يتوافق مع ذلك الفكر، وإنما هو يرى الواقع ويتعامل معه كما هو واقع بلا تحفظات أو مصادرات أو تأويل أو تجميلات أو رتوش، وعليه أن يتفاعل مع هذا الواقع ويصلحه ويقومه - فى صبر وأناة - بقيمه وحكمته ومنهاجه القويم لكى يستنهضه ويرتفع ويسمو به إلى مثله العليا وطموحاته السامية المنشودة.

وإذا أردنا أن نعبر بصيغة فلسفية معاصرة عن ذلك المنهج الذى يحكم حركة المسلم فى الحياة نقول إنه المثالية الواقعية، المثالية التى تسمو بالإنسان إلى رضى الله ورضوانه والواقعية التى تفرض عليه التعامل مع الواقع بموضوعية كاملة وهما هنا مزيج واحد لا يتباينان ولا ينفصلان ولا يتبادلان دوريهما فإذا أردنا أن نعبر عن هذا المزيج بصيغة فلسفية معاصرة فلن نجد غير هذه الصيغة ولكننا نستطيع أن نقول إن هذا المزيج تعبير عصرى مناسب إلى حد كبير لما يعنيه المنهج الإسلامى القويم الذى يحكم حركة حياة المسلم.

فالمسلم رجل يعيش على الأرض ويتآلف معها بروح تحلق فى السماء، فهو يتفاعل مع الواقع الاجتماعى الأرضى بما يحمله من عقيدة ربانية ومنهج إلهى ليسمو به إلى آماله التى يتطلع بها إلى عالم الخلود الذى سوف يستقر به فى نهاية المطاف.

المجتمع

لأن الله وحده هو مالك الوجود فهو وحده الذى يحكم وهو وحده الذى يشرع[٢٠].

فالله هو الحاكم الأعلى والواضع الوحيد لأصول الحكم فى الإسلام، أما الحاكم البشرى فهو الخليفة أو الإمام الذى تنتخبه الأمة لكى يسوسها بما يتفق مع هذه الأصول ولذلك فإن هذا الحاكم يجب أن يكون أكثر المسلمين حرصًا واجتهادًا على تطبيق هذه الأصول على متغيرات الواقع، ومن هذا نفهم عدم التعارض بين كون

(٢٠) الفيلسوف المسلم رجاء جارودى: الإسلام دين المستقبل.

حاكمية الأمة لله وحده وبين قابلية أحكام الحاكم البشرى للأخذ والرد وعرضتها للتصويب والتخطىء؛ لأن النقد الذى قد يقع على هذه الأحكام يقع فى الحقيقة على صحة اجتهاد الحاكم البشرى فى تطبيق أحكام السماء على متغيرات الواقع دون أن يمثل ذلك اعتراضًا أو نقدًا لأحكام السماء ذاتها.

وكل إنسان هو خليفة لله فى أرضه ومسئول عن تلك الخلافة والتى تعنى إعلاء كلمته وإقامة شرعه وتحقيق عبوديته.

ولهذا فالأمة الإسلامية جميعها مسئولة عن تحقيق خلافة الله فى أرضه وإقامة حكمه وعدله، فالحاكم الوحيد فى الأمة الإسلامية هو الله والأمة جميعها مسئولة عن تطبيق أحكام الحاكم الأعلى، أما الخليفة أو الحاكم البشرى للأمة فهو أكثر الأشخاص اجتهادًا وحرصًا على تطبيق هذه الأحكام ومن هذا الاجتهاد والحرص على تطبيقها يستمد سلطته وحكمه، وجماهير الأمة المسلمة المسئولة عن تطبيق أحكام الله هى التى تختار من أبنائها أكثرهم حرصًا واجتهادًا فى تطبيق هذه الأحكام، وهى التى تعزله عن سلطاته إذا تراخى أو أهمل فى تطبيقها، فالأمة كلها قيومة على تطبيق أحكام الله وراعية لها ومسئولة عنها، وبهذا يكون القائم بكل أمور الحكم هو جماهير الأمة أما الحكم نفسه فهو لله رب الوجود.. أى أن الشعب هو الذى يحكم نفسه ولكن بما أنزل الله من أحكام.

وكذلك فإن المشرع الوحيد هو الله، هو الواضع للأصول الثابتة فى التشريع وهو الذى شرع لمجتهدى الأمة الاجتهاد فى الفروع المتغيرة منه «وهى أغلب التشريع» لاستخلاص الأحكام الملائمة للواقع المتغير ولكن بشرط اتفاق هذه الاجتهادات مع مقتضيات الأصول.

ولأن الله هو مالك الوجود وحده فإن الملكية فى الإسلام ليست ملكية مطلقة، ولكنها ملكية تحمل صاحبها مسئولية كبيرة ووظيفة عظيمة وهى خلافة الله على هذه الأموال التى يمتلكها وهذه المسئولية لا تحرم صاحبها من الانتفاع أو الاستمتاع بما يملك، وإنما تفرض عليه مجموعة من الالتزامات التى تستهدف الصالح العام للأمة كالرعاية لتلك الأموال والحفاظ عليها من التبديد أو التلف وحمايتها من الأعداء والاستثمار الصالح الدائم لها وتأدية حقوق الفقراء والمحتاجين فيها لأنه إذا جاع جائع فى الأمة فلا مال عند ذلك لأحد، وكذلك فإن على مالك هذه الأموال الالتزام بالتوجيهات التى يوجهها له الخليفة الذى يمثل إرادة الأمة فى إدارة هذه الأموال وذلك بشرط استهداف الصالح

العام من تلك التوجهات.

والمجتمع الإسلامى مجتمع يقوم على فرضية المساواة المطلقة بين أبنائه أمام أحكام الله فعلى حد قول الرسول ﷺ: «والله لو سرقت فاطمة بنت محمد لقطعت يديها» ولا تفاضل بين أبناء هذا المجتمع إلا بالتقوى لأن «كلكم لآدم وآدم من تراب» «والناس سواسية كأسنان المشط لا فضل لعربى على أعجمى ولا لأبيض على أسود إلا بالتقوى».

ولكن هذه التقوى ليست ميزة أو حصانة أو خصوصية تحجب صاحبها عن تطبيق الأحكام الشرعية عليه أو ترفعه من الخضوع لنفس الأحكام التى تطبق على غيره هذا فضلا عن كونها لا تمنحه أى قدر من الكهنوت أو الوصاية على المسلمين، فالإسلام بذاته حرب لا هوادة فيها على كل الأشكال الكهنوتية والطاغوتية ولأن أهم ما تعنيه شهادة أن لا إله إلا الله هو إقرار الألوهية لله وحده والقضاء على كل الوسائط التى تحول بين الإنسان وربه وتحرير الإنسان من كل الوصايا والتكهنات والتحكمات والقيود الجاهلية التى تحاول التدخل فى شكل وحقيقة العلاقة بينه وبين ربه.

إنه مجتمع يدعو رسوله ﷺ إلى أن يقتص منه من أثخن له ظهرًا «لو كان هناك من أثخن له ظهرًا»، ويتنازع فيه خليفته «على بن أبى طالب» مع يهودى على درع له فيحكم فيه القاضى لليهودى لعدم وجود بينة مع الخليفة، وينزل القرآن على الرسول ﷺ ليبرئ يهود بنى قريظة (أى أعداء الرسول) ويدين بيتًا من بيوت الأنصار (أى أنصار الرسول وأقرب المقربين إليه) بتهمة سرقة درع لأحد المسلمين، إنها المساواة الحقيقية، مساواة بين البشر من حيث كيانهم كبشر، ومن حيث وجودهم الفعلى كأناس يعاملون بعضهم بعضًا ومن حيث مراكزهم القانونية الحقيقية كرعايا خاضعين للشريعة والقانون، ومن حيث قيمتهم الاجتماعية التى تمنع أن يكون هناك أى أساس للتفاضل بينهم غير تقوى الله عز وجل.

فهذه هى المساواة الحقيقية، وهذا هو العدل الحقيقى وليست المسألة مسألة توزيع متساوٍ للنقود والثروات دون أن يعنى ذلك مساواة حقيقية فى الحقوق والكرامة.

فالإسلام ينظر إلى الثروات على أنها إحدى القدرات أو الهبات التى ينعم الله بها على عباده مثلها فى ذلك مثل الصحة والقوة والذكاء والجمال والجاه والسلطان والعصبية وغير ذلك من النعم التى ينعم الله بها على عباده؛ ولأننا لا نملك توزيع هذه النعم والقدرات على البشر توزيعًا حسابيًا متساويًا يكون من الظلم المجحف توزيع الأموال على البشر توزيعًا حسابيًا متساويًا لأن ذلك سوف يؤدى إلى اختلال الميزان المتكافئ لمجموع هذه الهبات والقدرات والنعم.

ولكن الذى يهدف إليه الإسلام فى هذه الأمور هو تنظيم وتوجيه ومراقبة هذه القدرات بحيث لا يطغى إحداها على الأخرى فكما أن الإسلام يحارب الكِبر والعجب بالنفس والبطش بالناس والدعوة إلى العصبيات فإنه يحارب أيضًا تركيز الثروات فى يد قلة من الناس بينما يعانى باقى أبناء الأمة من الفقر والحرمان والجوع، ولذلك عمل الإسلام على تريد الانتفاع والاستغلال السليم لثروات أبنائه، حتى لا تكون الثروة دافعًا لطغيان الغنى أو لبث الحقد فى قلب الفقير.

ومجتمع المؤمنين مجتمع يسوده الصدق والحب والمودة والتآلف والتراحم وينهى فيه عن سوء الظن والتحسس والتجسس والتنافس والتحاسد والتباغض والتدابر والظلم والاعتداء والخذلان والاحتقار والرياء.. يقول الرسول ﷺ: «مثل المؤمنين فى توادهم وتراحمهم كمثل الجسد إذا اشتكى عضو منه تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى».

ويقول الرسول ﷺ: «إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث، ولا تحسسوا ولا تجسسوا ولا تناجشوا ولا تحاسدوا ولا تباغضوا ولا تدابروا، وكونوا عباد الله إخوانًا كما أمركم. المسلم أخو المسلم، لا يظلمه ولا يخذله ولا يحقره، التقوى ها هنا - التقوى ها هنا ويشير إلى صدره - بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم كل المسلم، على المسلم حرام دمه وعرضه وماله، إن الله لا ينظر إلى أجسادكم ولا صوركم ولكن ينظر إلى قلوبكم».

وفى هذا المجتمع الرشيد المتآلف تمتلئ صدور المؤمنين ثقة بالله وبالنفس وترتفع رءوسهم عزة وكرامة وشموخًا فهم أعزة أشداء على الكافرين أذلة على أمثالهم من المؤمنين رحماء فيما بينهم يبتغون فضلا ولهذا فهم فى جهاد ورباط دائم إلى يوم القيامة.

﴿ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ﴾.

﴿ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ ﴾.

﴿ اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾.

وكذلك فإن ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا ﴾.

إن المسلمين قوم لا يقاتلون إلا من أجل سبب واحد فقط هو إخراج الناس من الظلمات إلى النور.

الباب الثانى

الفلسفة البراجماتية ونقدها

الفلسفة البراجماتية

مدخل :

من الممكن تقسيم الفلاسفة الأوروبيين إلى فريقين، هما المثاليون والماديون، وهو تقسيم ناتج عن موقفهم الفلسفى من نظرية المعرفة التى تدور حول سؤال رئيسى فى الفلسفة هو: ما هى العلاقة بين الفكر والمادة أى بين ذات الإنسان الواعية والعالم الخارجى وأيهما أسبق الفكر أم المادة؟ العالم الخارجى أم الوعى الداخلى؟ أما الماديون فيقولون إن المادة سابقة للفكر، أى إن العالم الخارجى موجود وجودًا مستقلا عن الوعى، وسواء كان هناك إدراك أم لا فالعالم موجود.. بل إن غلاة المادية يقولون إنه حتى الفكر، ما هو إلا إفراز المخ مثلما نجد الصفراء إفرازًا للكبد.. أما المثاليون فيقولون إن الفكر سابق للمادة وإنه لولا الوعى لما كان عالم خارجى، وهم يشبهون العالم الخارجى بجزيرة مظلمة تائهة وسط البحر والوعى هو الضوء الذى يكشف هذه الجزيرة التى لولاه لكانت فى حيز العدم[1].

وعلى هذا فالمثاليون يعتبرون مصدر المعرفة هو العقل دون الحواس، فهو الوسيلة الصادقة لمعرفة العالم، والماديون يقولون إن الحواس هى وسيلتنا لإدراك العالم، كما أن التجربة هى وسيلتنا لمعرفة الأشياء.

والمذهب المثالى العقلى هو دائمًا أحدىّ ويقصد الفلاسفة من هذه التسمية أنه يبدأ من الكليات والكونيات والعموميات ويعظم من وحدة الأشياء، أما الماديون التجريبيون فهم يبدءون من الأجزاء ويجعلون من الكل طائفة أو مجموعة أو جملة ومن ثم فهم يعتبرون أنفسهم تعدديين.

ويتبنى الفلاسفة المثاليون العقلانيون الدفاع عن الأديان والقيم الخلقية عادة، أما الماديون فينكرونها، أو على الأقل يهملونها ويخلصون اهتمامهم للوقائع الجزئية أو الأشياء التجريبية.

ونحن لو أردنا أن نوضح نمطى التكوين العقلى لدى الفلاسفة الغربيين بشىء ما من

---

(١) دكتور صلاح عدس: ملامح الفكر الغربى المعاصر «كتاب الهلال».

التجاوز - الذى يضطره التوضيح - فإننا سنضع خصائصهما فى عمودين متقابلين على طريقة وليم جيمس عند تقديمه للأفكار البراجماتية هكذا:

مثالى	مادى
عقلى	تجريبى
دينى	لا دينى
احدى	تعددى

وعلى الرغم من ذلك فالمذهبان برغم تباينهما الكبير، فقد اتفقا على أن هناك مرجعًا ما أو أتلا قائمًا بالفعل يمكن الرجوع إليه فى معرفة مدى صحة فكرة مطروحة أو رأى أو قول ما، وإن يكن هذا الأتل القائم عند المثاليين هو فكرة فى الرأس وعند التجريبيين واقعة خارجية تدرك بالحواس.

ولأن المنازعات الفكرية بين الفريقين لا تنتهى فلقد ادعى البراجماتيون أنهم يقدمون طريقة جديدة لحسم هذه الخلافات، فالطريقة البراجماتية لا تهتم إلا بالفرق الذى قد يحدث لأى امرئ - من الوجهة العملية - بالنسبة لفكرة ما بدلا من غيرها، فإذا لم يكن ثمة فرق عملى يمكن تتبعه فالإبدال إذن تعنى من الوجهة العملية نفس الشىء، ومن ثم فإن أى نزاع حولها يكون نزاعًا عقيمًا تافهًا عديم الجدوى من وجهة نظرهم.

فالبراجماتية تسمى بالفلسفة العملية لأنها تجعل من المنفعة مقياسًا للحق والباطل بل ومقياسًا للخير والشر، فالفكرة تكون صحيحة أو باطلة بمقدار ما تحققه للإنسان من نفع فى حياته العملية، لا لأنها صحيحة فى ذاتها أو لأنها مطابقة للواقع أو غير ذلك.

واللفظ مشتق - كما يقول وليم جيمس - من نفس الكلمة اليونانية (noayuo) بمعنى العمل التى تؤخذ منها كلمتا مزاولة وعملى، ثم أخذ بعد ذلك معنى الفلسفة العملية النفعية، وأول من أدخل هذا اللفظ فى الفلسفة هو الفيلسوف الأمريكى تشارلز بيرس «١٨٣٩ - ١٩١٤» فى مقال له بعنوان «كيف نجعل أفكارنا واضحة» ذكر فيه أنه «لكى نبلغ الوضوح التام فى أفكارنا من موضوع ما فإننا لا نحتاج إلا إلى اعتبار ما قد يترتب من آثار يمكن تصورها، ذات طابع عملى قد يتضمنها الشىء أو الموضوع».

ودارسو الفلسفة البراجماتية يعتبرون الفيلسوفين الأمريكيين وليم جيمس وجون

ديوى وكذلك الفيلسوف الإنجليزى فرديناند شيلر هم أهم الفلاسفة الذين يمثلون الفلسفة وقد أشرنا إلى بعض المبادئ العامة التى يتفقون عليها ولكن اهتمامنا فى هذا الكتاب سيكون منصبًا على أفكار وليم جيمس بوجه خاص وذلك بسبب الجوانب المتعددة التى تعرضت لها فلسفته البراجماتية خصوصًا ما يتعلق منها بالدين والأخلاق وكذلك لنفوذ فلسفته بين الأمريكيين بسبب العرض الجذاب الشائق السهل الذى قدم به تلك الفلسفة.

الطريقة البراجماتية عند وليم جيمس:

نشأ وليم جيمس من أسرة عريقة فى الثقافة والعلم، فوالده هو هنرى جيمس المفكر والقسيس البروتستانتى المعروف، وقد عمل هنرى على تثقيف ابنه وتزويده بشتى المعارف، ويرجع الباحثون الميل الدينى عند وليم جيمس إلى والده[٢]، أما أخوه فهو هنرى جيمس القاص والروائى المعروف أيضًا[٣].

اهتم فى بداية حياته بدراسة الطب والتشريح ثم انصرف عنهما إلى علم النفس الفيزيائى وما لبث أن تعداه اهتمامه إلى علم النفس العام الذى قاده إلى دراسة الفلسفة والكثير من المشاكل الدينية والميتافيزيقية، وأهم كتبه هى إرادة الاعتقاد «١٨٩٧»، والبراجماتية أو الفلسفة العملية «١٩٠٧» ثم معنى الحقيقة «١٩٠٩» وكان فيلسوفًا ذائع الصيت بل يعتبر أشهر فيلسوف أمريكى فى عصره.

كان جيمس أكثر الفلاسفة البراجماتيين حماسة وجرأة فى عرض الأفكار البراجماتية مما جعله أكثرهم عرضة للانتقاد، وبالإضافة إلى ذلك فقد كان يمتاز بأسلوب أدبى شائق يطبع به فلسفته البراجماتية.

يقول وليم عن الاتجاه البراجماتى: «إنه اتجاه تحويل النظر بعيدًا عن الأشياء الأولية، المبادئ، النواميس، الفئات، الحتميات المسلم بها، وتوجيه النظر نحو الأشياء الأخيرة، الثمرات، النتائج، الآثار، الوقائع، الحقائق».

والبراجماتية ليس لها أية عقائد يقينية أو جزمية أو أية مذاهب أو مبادئ اللهم إلا طريقتها ومنهاجها، وأسماء مثل الإله، المادة، العقل، المطلق لا نستطيع اعتبارها نهاية

---

(٢) دكتور زكريا إبراهيم: دراسات فى الفلسفة المعاصرة: مكتبة مصر.

(٣) مقدمة كتاب البراجماتية.

مطاف سعينا نحو الحقيقة، إذ يتعين على الإنسان من وجهة نظره أن يخرج من كل كلمة قيمتها النقدية الفورية العملية وأن يمرسها على العمل بإظهار كيفيتها فى نطاق مجرى خبرته وعندئذ فهى لا تبدو حلا بقدر ما تبدو برنامجًا أو منهاجًا للمزيد من العمل، ومن ثم فإن النظريات تصبح أدوات ووسائل لا حلولا لألغاز ولا إجابات عن أحجبة نستطيع أن نسكن إليها فنحن علينا أن نضع «كل المفاهيم المطروحة على بساط البحث على المحك البراجماتى وسنفوز بالنجاة من الجدل الباطل العقيم فإذا لم يكن ثمة فرق يحدث بين قولين بالقياس إلى صحة هذا أو ذاك، فإذن فالاثنان حقًا عبارة واحدة فى شكلين كلاميين. إذا لم يكن ثمة فرق عملى يحدث سواء كانت عبارة معينة صحيحة أم باطلة، إذن فالعبارة ليس لها معنى حقيقى وفى كلتا الحالتين فليس هناك شىء يستحق أن نتنازع من أجله، وأولى بنا أن نوفر جهدنا فليس هناك شىء يستحق أن نتنازع من أجله، وأولى بنا أن نوفر جهدنا ونمضى إلى أمور أكثر جدوى وأهمية. إن الحقائق ينبغى أن يكون لها نتائج عملية»(٤)، ولكن ما هى النتائج العملية التى تهمنا؟ يجيب على ذلك بأنها النتائج النافعة فقط.

وفى نفس الوقت فإن البراجماتية لا تظاهر أو تناصر أو تمثل أو تنوب عن أية نتائج خاصة، لأنها مجرد طريقة فحسب، مجرد منهاج فقط.

معنى الحقيقة البراجماتية عند وليم جيمس:

إننا إذا أردنا أن نبحث عن معنى الحق أو الحقيقة عنده فعلينا أن نتساءل: ما هى القيمة الفورية للحق أو الحقيقة اختبارًا أو تجريبيًا وممارسة؟ وهو التساؤل الذى يطرحه وليم جيمس ثم يجيب عنه قائلا: «إن الأفكار الصحيحة هى تلك الأفكار التى نستطيع هضمها وتمثيلها ودمغها بالمشروعية وتعزيزها وتوثيقها وإقامة الدليل عليها، والأفكار الخاطئة هى تلك التى لا نستطيع ذلك معها، هذا هو الفرق العملى الذى يحدث إذا كان لدينا أفكار صحيحة. ومن ثم فهذا هو معنى الحقيقة لأن هذا هو كل ما نعرفه عن الحقيقة»(٥).

وكما يعتقد - فإن حيازة أفكار صحيحة تعنى فى كل مكان حيازة أدوات للعمل والأداء - لا تقدر بثمن، وإن الفكرة عن مأوى فى غابة مثلا تكون صحيحة لأن المقام أو

---

(٤) وليم جيمس: البراجماتية.

(٥) مقدمة وليم جيمس لكتابه: «معنى الحقيقة» وتشملها الترجمة العربية لكتابه «البراجماتية».

المأوى الذى هو هدفها أو موضوعها يكون نافعًا وإن حيازة الحقيقة أبعد ما تكون هنا عن كونها فى ذاتها، فهى لا تزيد عن كونها وسيلة أو أداة أولية لبلوغ ضروب أخرى من الإشباع والرضى والسرور والحيوية.

والحق يجب دائمًا أن يفضل على الباطل عندما يرتبط كلاهما بالموقف ولكن عندما لا يرتبط أى منهما بالموقف فإن الحق يتساوى مع الباطل فى كونه ليس واجبًا.

«إن القيمة العملية للأفكار الصحيحة، تشتق بصفة أولية من الأهمية العملية لموضوعاتها بالنسبة لنا، وليس ثمة ريب فى أن موضوعاتها ليست حقًا مهمة فى كل الأوقات فربما فى مناسبة أخرى «أى بفرض أنى لست فى غابة» لا تكون بى حاجة إلى المقام أو المأوى، وعندئذ ففكرتى عنه مهما تكن محققة ستكون من الناحية العملية فكرة منفصمة وغير مرتبطة وأولى بها أن تظل قميئة.

وحيث إن أى موضوع قد يصبح يومًا ما مهمًا بصفة مؤقتة، فإن ميزة حيازة رتيد من الحقائق الإضافية، حقائق تكون تحيحة بالنسبة لمواقف ممكنة أو محتملة فحسب، ميزة واضحة وضوح الصبح لكل ذى عينين.

إننا نختزن حقائق إضافية وندخرها فى ذاكرتنا، ثم نملأ مراجعنا بالفائض، وكلما أتبحت حقيقة من تلك الحقائق الإضافية مرتبطة عمليًا بمطلب عاجل من مطالبنا أو بضرورة ملحة من ضروراتنا فإنها تنقل من مخزن التبريد حيث كانت قابعة لكى تؤدى عملا فى العالم ويزداد نشاط اعتقادنا بها»[٦].

والبراجماتى إذا وافق على كون فكرة ما حقًا فهو يوافق أيضًا على أى شىء يمكن أن تقوله مهما يكن موضوعها.

ولكن كيف نستطيع أن نحكم على شىء بأنه نافع؟ أو ماذا يعنى لفظ إثبات أو تحقيق الفكرة؟ يقول جيمس«إنه لمن العسير إيجاد عبارة واحدة تصف هذه النتائج أحسن من قاعدة الاتفاق العادية فمثل هذه النتائج هى ما يكون فى ذهننا عندما نقول: إن أفكارنا تتفق مع الواقع أو الحقيقة فهى تقودنا بصفة رئيسية عن طريق الأفعال والأفكار الأخرى التى تحض عليها إلى أو نحو أو حيال أجزاء أخرى من الخبرة نشعر بها طول الوقت على اعتبار أن مثل هذا الشعور من ضمن إمكاناتنا ولكونه كذلك فإن الأفكار الأتلية تظل فى حالة اتفاق. أما الارتباطات والتحولات فتأتى لنا من نقطة لنقطة على

---

(٦) البراجماتية.

اعتبار كونها تقدمية، متناغمة، كافية، مغبطة. وهذه الوظيفة الخاتمة بالإرشاد الموافق هى ما نعنيه بتحقيق أو إثبات فكرة»[٧].

«إن تحقيق الفرض يعنى أنه لا يفضى إلى إحباط أو تناقض لأنه إذا سار كل شىء على ما يرام وفى تناغم، فنحن نتيقن بأن التحقق ممكن لدرجة تجعلنا نسهو عنه ونحذفه وعادة ما تثبت الأحداث ما يصوغ ذلك»[٨].

وملخص ما قاله جيمس فى الفقرة السابقة أن الأفكار تكون صحيحة بقدر ما تعيننا على إقامة علاقات مشبعة مع الأجزاء الأخرى لخبرتنا.

إن الحقيقى فى أوجز عبارة «ليس سوى النافع الموافق المطلوب فى سبيل تفكيرنا تمامًا، كما أن الصواب ليس سوى الموافق النافع المطلوب فى سبيل مسلكنا»[٩].

إرادة الاعتقاد:

يذهب وليم جيمس أن هناك أفكارًا ليس فى استطاعتنا أن نحكم عليها بأنها صحيحة أو كاذبة لأن المعرفة العلمية الصحيحة مستحيلة تمامًا فى دائرتها، فماذا يكون موقفنا إذن من هذه الأفكار؟ هل ينبغى علينا أن نتوقف عن الحكم عليها؟ أم هل يحسن بنا أن نفترض عدة فروض من أجل تفسيرها؟ الواقع أننا لا نستطيع أن نحيا أو نفكر دون قدر من الإيمان أو الاعتقاد - من وجهة نظره - إلا فرضًا ناجحًا، فلماذا لا نلتجئ إلى إرادة الاعتقاد حيث يمسر الوصول إلى بداهة عقلية يقينية؟ ألا يحدث أحيانًا أن يكون «الاعتقاد» نفسه عاملا فعالا من عوامل تحقق ما نؤمن به أو ما نعتقده؟

إن اعتقادك بأمانة شخص ما قد يكون هو الكفيل ببث روح الأمانة فى نفسه، كما أن ثقتك به قد تجعل منه شخصًا جديرًا بالثقة حقًا.

فلماذا لا نقول إن هناك حالات يخلق الإيمان فيها نفسه وسائل تحققه؟ بحيث يصح القول بأن الفكرة تولد الواقعة كما أن الرغبة تولد الفكرة[١٠].

وفى رأيه «إن البعض ليؤثر الامتناع كلية عن البحث عن الحق خشية الوقوع فى الخطأ، وأما الفيلسوف العملى فإنه يعرف أن البحث عن الحق مهمة خطيرة لا بد فيها من الجرأة والمخاطرة: ولهذا فهو لا يريد تعليق الحكم، بل يؤثر الوقوع فى الخطأ عن

(٧، ٨، ٩) البراجماتية.

(١٠) د. زكريا إبراهيم: دراسات فى الفلسفة المعاصرة.

الامتناع كلية عن البحث عن الحق ومتى استطاع الإنسان أن يعثر على الحق مكفولا بشتى الضمانات حتى يتوقف عن الحكم بدعوى أنه ليس ثمة بداهة يقينية أو ليس ثمة ضمان لصحة معتقداتنا. إن الحياة لا تحتمل أدنى تأخير فلماذا لا نعمل واضعين حياتنا نفسها بين أيدينا، حتى ندع للتجربة نفسها أن تفصل فى معتقداتنا وآرائنا ومبادئ أفعالنا»[11].

إن الشاك يخشى أن يخدع وخلال خوفه قد يفقد حقيقة مهمة ويتساءل جيمس: «أى دليل هناك فى أن الخداع خلال الأمل أسوأ بدرجة كبيرة للغاية من الخداع خلال الخوف»[12].

موقف الفلسفة البراجماتية من الدين:

يقول جيمس: «إن المفاهيم الكونية الشاملة كأشياء تدخل فى الاعتبار والحساب، قد تكون بنفس الدرجة من الحقيقة بالنسبة للبراجماتية كالأحاسيس المعينة الجزئية سواء بسواء، وهى حقًا لا مغزى لها ولا حقيقة إذا كانت عديمة الجدوى، ولكنها إذا كان لها أى نفع أو استخدام فهى على هذا الأساس فيها هذا القدر من المعنى أو المغزى. والمعنى يكون صحيحًا إذا توازن النفع توازنًا متوافقًا مع منافع الحياة الأخرى»[13].

ومن هذا نفهم أن البراجماتية تدافع عن الدين من باب المنفعة والحاجة الإنسانية التى تأتى من ورائه وهى بذلك من الممكن أن تسمى دينية لدى جيمس فهو يقول: «إذا سمحتم أن الدين من الممكن أن يكون مذهبًا ارتقائيًا فحسب فى نمطه، ولكن سواء تجاوزتم أخيرًا عن ذلك النمط من الدين أم لا، مسألة أنتم وحدكم الذين تستطيعون البت فيها، إن البراجماتية يتعين عليها أن تؤجل الجواب اليقينى التعسفى؛ لأننا لا ندرى للآن على سبيل الجزم واليقين أى نوع من الدين سيعمل على أحسن نحو فى المدى الطويل، إن المعتقدات المتطرفة المختلفة العديدة للناس ومغامراتهم العقائدية العديدة هى فى الواقع المطلوب لإقرار البينة ولعلكم تقومون بمغامراتكم فى هذا الصدد استقلالا، كل بمفرده»[14].

(١١، ١٢) د. زكريا إبراهيم: دراسات فى الفلسفة المعاصرة.

(١٣) البراجماتية.

(١٤) البراجماتية.

وعلى هذه الأسس البراجماتية فإنه «إذا كان فرض الله يعمل إكفاء ورضى فى أوسع معانى الكلمة، فهو فرض تحيح، ومهما تكن الصعوبات المتخلفة منه، فالخبرة تومئ إلى أن الفرض يعمل إكفاء ورضى، ما فى ذلك أدنى ريب، وأن المشكلة هى بناؤه وتحديده وتصميمه وإنجازه بحيث يلتحم التحامًا يتسم بطابع الكفاية والإرضاء، فى مقومات الحقائق العاملة الأخرى»[١٥].

إننا بدلا من أن نتساءل عما يسيِّر الأشياء هل هى المادة أم الله؟ يجب أن يكون تساؤلنا كالتالى: ما هو الفرق العملى الذى يمكن أن يحدث الآن إذا قُدِّر للعالم أن تسير دفته بواسطة المادة أو بواسطة الله؟

فإذا كانت هناك «مادة تبشر بالنجاح مقيدة بقوانينها - حتمًا مقتضيًا، بحيث تقود عالمنا دائمًا إلى الاقتراب من الكمال على نحو موتول، وستجد أن أى رجل عاقل منطقى سيعبد تلك المادة - هكذا يزعم جيمس - توًا وبكل غبطة، كما يعبد سبنسر القوة المزعومة التى لا سبيل إلى معرفتها - إنها لم تؤد إلى البر حتى الآن فقط ولكنها ستؤدى إليه إلى الأبد، وهذا كل ما نحتاج إليه.

وحيث إنها من الوجهة العملية تفعل كل ما يستطيع الله أداءه، فهى معادلة ومكافئة له، ووظيفتها هى وظيفة إله، وفى عالم يكون فيه إله مما لا لزوم له، فإن إلهًا لا يمكن افتقاده شرعًا وجلالا من مثل ذلك العالم أبدًا»[١٦].

وبالنسبة لماضى العالم فليس ثمة فرق سواء اعتبرناه من عمل المادة أم حسبنا أن روحًا قدسًا هو خالقه ومنشئه. أما بالنسبة للمستقبل فإن المادة لا تبشر بشىء من النجاح الذى نسعى إليه، بل تبشر بالتحطيم النهائى المطلق للكون وتحوله إلى مأساة فى نهاية المطاف لذلك فإنه يجب أن يكون اعتراضنا الحقيقى على المادة - فى زعمه - هو قنوط نتائجها العملية.

هذا فى حين أن فكرة الله مهما تكن أقل وضوحًا من تلك الأفكار الحسابية التى أ تبحت سارية رائجة فى الفلسفة الميكانيكية لها على الأقل الميزة العملية المتفوقة عليها من حيث نتائجها النفعية التى تمنح الأمل فى المستقبل.

والشعور الإيمانى الذى وجده شعراء من أمثال دانتى ووردزورث وعاشوا به هو الذى منح أشعارهم ما فيها من عافية خارقة وقوة مواسية، وهذه الاستغاثات والاسترحامات

(١٥، ١٦) البراجماتية.

العملية والعاطفية المختلفة، وهذه التوافقات الخا تة بمواقفنا واتجاهاتنا الملموسة المحسوسة من الأمل والتوقع وكل الآثار والنتائج اللطيفة الرقيقة الأنسية التى تجلبها اختلافاتها، هذه هى المعانى الحقيقية - فى رأيه التى تهمنا من المادية أو الألوهية.

والإله الذى يحتاجه كل منا - على حد قوله - يتصوره البعض معزيًا مقويًا، والبعض منذرًا معاقبًا تبعًا لحالتهم وحاجاتهم، وهو إله متناه نحن أجزاء منه باطنة وهو نفسه جزء من العالم، ويجب أن نغفل عن تفات ذلك الإله النظرية المعروفة من وجود بالذات وروحانية وبساطة وما أشبهها لأنها عديمة الفائدة ومن ثم عديمة المعنى، أن نقتصر على الصفات المفيدة لنا مثل القدرة والخيرية لأنهما تبعثان فينا الرجاء(١٧).

الخلاتة أنه إذا كان فرض وجود الله عملا مشبعًا بأوسع معنى للكلمة فهو تادق بل وعلينا أن نتمتع بهذا الإله قبل كل ذلك؛ الجهد والعناء الكبيرين فى البحث عن كون الله موجودًا أم غير موجود.

---

(١٧) تاريخ الفلسفة الحديثة: يوسف كرم.

نقد الفلسفة البراجماتية

مدخل:

لا يكاد يجد المرء بين البشر من ينكر «أن كل إنسان يسعى وراء سعادته» فهذه مسألة قد ترسخت فى الوعى البشرى ولا يكاد يختلف حولها اثنان. ولكن السؤال الذى أثار جدل الناس والفلاسفة على مر الأزمان هو: ما هى هذه السعادة المنشودة؟

هنا تختلف التصورات ويتعارك الجدل حول المحددات والعوامل التى يقوم عليها مفهوم السعادة.

إن الفلاسفة عندما أرادوا ألا يسقطوا فى الوهم أو السعادة المزيفة التى تخدع الكثيرين، ذهبوا يلتمسون الحقائق التى يستطيعون من خلالها الوتول إلى السعادة الحقيقية المنشودة.

حسن، فما هى إذن الوسائل التى من الممكن أن تؤدى إلى معرفة هذه الحقائق؟

لقد تأكد لدى الحكماء الشرقيين منذ القِدم أن الوسائل المعرفية للحقيقة عقلية كانت أو تجريبية أو حدسية «وجدانية»، غير كافية وحدها للوتول إلى الحقائق الكبرى اليقينية، فالتجئوا إلى الدين يستمدون منه النجاة واليقين.

أما الفلاسفة الغربيون فلم يسمح لهم غرورهم بذلك فظهر العقليون والتجريبيون والشكاك والسوفسطائيون.

وكاد الصراع ينحسر بين العقليين والتجريبيين، وحاول كل فريق منهما التأكيد على تحة أفكاره وإنكاره لأفكار مخالفيه، حتى تمخضت معارك الأفكار بينهما عن وعى العقل الغربى على عدم قدرة فلاسفة الجانبين على إدراك اليقين الذى لا يقبل الشك وأن النتائج التى وتل إليها الجانبان لا يستطيع أحد التسليم بها أو الارتكان إليها.

وقد بات هذا الأمر مفهومًا بعد أن انكشف غرور التجريبيين الذين كانوا يعلنون يقينية نتائجهم وكان هذا مصدر سخريتهم من الأديان بوجه خاص.

فبعد التقدم العلمى الكبير الذى أظهر خطأ الكثير من النظريات العلمية التى توتل إليها العلماء فى مجالات العلوم الطبيعية وكذلك بعد أن حطم التطبيق العملى الكثير من النظريات والأفكار الفلسفية التى توتل إليها الفلاسفة التجريبيون، بات مفهومًا

لدى الغربيين مدى ضعف المنهج التجريبى ذاته عن الوتول إلى حقائق يمكن الاطمئنان إليها خصوتًا فى مجال المعرفة الفلسفية.

وقد تطور هذا الوعى الغربى إلى مرحلة لم يعد فيها من الممكن لدى فلاسفتهم الوتول إلى إجابات حاسمة بالنسبة للأسئلة الإنسانية الدائمة والملحة التى يوجهها إليهم شبابهم بوجه خاص.

وقد نتج عن ذلك انتشار المذاهب العبثية - منذ أوائل القرن الحالى بين شبابهم بصورة لم يسبق لها مثيل، حتى إننا نستطيع القول بكل ثقة إن العبث هو المذهب الغالب الآن على فكر وسلوك الشباب الغربى بوجه عام.

وحتى الفلسفات التى ربطت نفسها بالعلم مثل الوضعية المنطقية والفلسفية التحليلية قد حَجَّمَت هى بنفسها من دور الفلسفة والفكر بوجه عام ولم تسمح لهما سوى بالتهميش على النتائج التى يتوتل إليها العلم، وأسقطت أو شككت على الأقل فى كل النتاج الفلسفى الذى توتل إليه البشر، حتى إنك لتجد فيلسوف الفلسفة التحليلية «برتراند رسل» يقول عن «هيجل» رائد الفلسفة الجدلية التى سادت القرن التاسع عشر والتى تعتبر الماركسية أحد روافدها يقول برتراند رسل عن فيلسوف كهذا - فى كتابه تاريخ الفلسفة الغربية: «إن كل ما جاء به باطل».. وقد نتج عن كل ما سبق انتشار موجة المذاهب العبثية - منذ أوائل القرن الحالى. بين شبابهم بصورة لم يسبق لها مثيل، وكذلك انتشار الأعمال الأدبية الطافحة بالحيرة والغربة والعبث لأمثال كفكى والبير كامو وبيكيت واليونيسكو، وهو أمر ساعد عليه إلى حد كبير تلك الحالة المفزعة التى خلفتها لدى الأوروبيين الحربان العالميتان الأولى والثانية ولهذا فإننا نستطيع القول بكل ثقة إن العبث هو المذهب الغالب الآن على فكر وسلوك الشباب الغربى بوجه عام وهو ما أدى بدوره إلى سرعة انتشار الأفكار والمفاهيم البراجماتية.

ولكن ماذا كان موقف الفلاسفة البراجماتيين من هذا الموقف العاجز الذى يعانيه الفكر الفلسفى الغربى بوجه عام؟؟

لقد أنكر الفلاسفة البراجماتيون النتائج التى توتل إليها الفريقان «العقليون والتجريبيون» ونعوا عليهم الجدال والخصام والشقاق بسبب قضايا هى فى رأيهم لا جدوى منها، بل ولا قيمة لها!!

وأنكروا أى نوع من الحقائق خارج المحك البراجماتى.

خذ مثلا تعريف وليم جيمس للاتجاه البراجماتى: «إنه اتجاه تحويل النظر بعيدًا عن الأشياء الأولية، المبادئ، النواميس، الفئات، الحتميات المسلم بها، وتوجيه النظر نحو الأشياء الأخيرة، الثمرات، النتائج، الآثار».

وفى الحقيقة فإن القضية لا تقتصر على تحويل النظر بعيدًا عن الأشياء الأولية والمبادئ والنواميس والفئات والحتميات المسلم بها - بالرغم من أن هذه المسميات هى محور اهتمام الفلاسفة بوجه عام - ولكن الأخطر من ذلك هو قول الرجل: «إن البراجماتية ليس لها أى عقائد يقينية إلا طريقتها»، أى إنها تحويل النظر بعيدًا عما تعارف عليه الفلاسفة من اهتمامات ثم عدم اعتراف بأى نوع من العقائد اليقينية أو المبادئ والمسلمات ثم يتكلم بعد ذلك عن مصدر للمعرفة وحيد هو الطريقة البراجماتية.

وهذا يعنى ببساطة أن الرجل ينكر وجود أى نوع من الحقائق قبل استخدام الطريقة البراجماتية وليست العملية فقط هى مجرد تحويل اتجاه أو عدم التزام.

فإذا كان جيمس يغرينا بأن نتنازل عن أى مفهوم للحقيقة تعارف عليه البشر، وهو يريد أيضًا أن يفقدنا أى مقياس أو حكم من الممكن أن نحتكم إليه «أى أن السبورة التى بها الكثير من السهام المتقاطعة يريد أن يجعلها سوداء تمامًا»، فما هو يا ترى ذلك السهم الذى يرسمه لنا والذى من المفترض أن تهدينا إشارته إلى الحقائق التى نسعى إليها؟

آسف جدًا من استخدامى للفظ حقائق فأنا بهذه الكلمة أفترى افتراء كبيرًا على الرجل فهو لم يستهدف من طريقته البحث عن الحقائق، بل ولم يَدَّعِ أنه يبحث عنها أو يهتم بها وإنما ادعى فقط أنه سوف يدلنا على المنافع، على المنافع فقط!

صحيح أن بعض الفلاسفة البراجماتيين سيسمون تلك المنافع حقائق بعد ذلك، ولكن تلك قضية مبعثها إرضاء اهتمامنا نحن وليس اهتمامهم هم، ففيلسوف مثل جون ديوى كان يتجنب حتى استخدام ألفاظ مثل الحق والباطل والصدق والكذب، ويعتبرها ألفاظًا ميتافيزيقية لا جدوى من البحث عن معنى لها.

ولكى يرضى عنا البراجماتيون فلا بد أن نتخلى عند الحديث معهم عن مصطلحات مثل البديهيات والمسلمات والمنطق السليم والقبول العام أو الدليل العقلى أو العلمى فكل هذه المصطلحات ليس لها معنى مجد لديهم، ولا أعرف إذا تخلينا نحن عن كل ذلك، كيف يمكننا إذن أن نحاورهم؟ وبعد أن نسلب من كل ما نمتلك من مقاييس يمكن أن

نحتكم إليها، كيف يمكننا معرفة صحة أو خطأ ما يقول وليم جيمس أو زملاؤه البراجماتيون؟ لقد صادر كل ما لدينا من حقائق ومسلمات لكيلا يبقى لنا إلا التسليم بما يقول.

وكيف يمكننا أن ندرى أن ما سيدلوننا عليه من منافع، هى منافع حقًا أم غير ذلك؟ وإذا دلونا هم على مقياس لهذه المنافع، فإلى أى شىء من الممكن أن نستند إليه لكى ندرك أن مقياسهم هذا صحيح أم غير ذلك؟

بل يكون أهم سؤال فى الأمر كله هو إلى أى شىء استندوا لكى يثبتوا صحة مقياسهم للمنافع؟

إن جيمس يحاول أن يقنعنا أن الخبرة هى الحكم الوحيد لإدراك المنافع فما هى وسائله التى يحاول إقناعنا بها على ذلك؟

إنه لو حاول إقناعنا بوسائل استدلالية لها قبول عام عندنا بذلك قد انتهى إلى ما ابتدأ بإنكاره علينا تمامًا.

لأن كل الوسائل الاستدلالية التى قد يتفق عليها قدر ما من البشر، قد بدأ جيمس فلسفته بنفيها تمامًا، فإذا قال لنا إن الشىء يكون نافعًا إذا وجدتم فى خبرتكم أنه نافع يكون قد التجأ إلى بعض المسلمات التى تشترك فى قبولها خبراتنا جميعًا، فإذا وجدت هذه المسلمات المشتركة لكانت هى فى ذاتها هدمًا لفلسفته جميعًا ولكانت حكمًا يغنينا عن طريقته البراجماتية وعن كل ما أرهق العقول من فلسفات، أما إذا لم تكن هذه المسلمات المشتركة فى خبراتنا موجودة لآل حديثه عن الحكم إلى خبرة كل منا بمفرده، وهذا فى الحقيقة ما يؤول إليه المذهب فى النهاية.

الطريقة البراجماتية:

الطريقة البراجماتية عند وليم جيمس هى أن نضع كل المفاهيم والأفكار المطروحة على بساط البحث على المحك البراجماتى فتكون الأفكار الصحيحة هى الأفكار ذات النتائج العلمية النافعة وهى تكون كذلك إذا وجدت التوافق والتناغم مع الأجزاء الأخرى فى خبرتنا.

ونحن إذا أردنا أن نناقش هذا الكلام فلا بد أن نتجه رأسًا إلى الحكم النهائى لصحة الأفكار الذى وضعه جيمس لنا وهو الخبرة والتى اعتبر الحديث عنها هو نظريته فى المعرفة.

يشرح لنا جيمس[١٨] حكم الخبرة على تحة الأفكار كالآتى:

إن الحقيقة أو الواقع تشبه شعورًا يدرك إدراكًا حسيًا يشبه الحقيقة أو الواقع بطريقة مباشرة أو غير مباشرة، ولكن هل الواقع المدرك يحس به المرء بنفس الطريقة التى يحس بها الآخرون؟ أى هل مشاعرنا تجاه الواقع المدرك متشابهة؟

يرد وليم جيمس عن ذلك فيقول: «إن هذا شىء لا يمكننا أبدًا أن نتأكد منه ولكننا نفترض كأبسط فرض يقابل الحالة، وفى الواقع من الأمر فإننا لسنا أبدًا متأكدين.

وكنظرية للمعرفة ففى وسعنا فقط أن نقول إن المشاعر التى لا ينبغى أن تشبه بعضها بعضًا، فإن كليها لا يمكنها أن تعرف نفس الشىء بنفس الطريقة»[١٩].

وهو بالرغم من إنكاره للبديهيات والمنطقيات التى نتعامل نحن بها إلا أنه يلتجئ إلى بديهيات أولية يتحدث عنها بطريقة بالغة الغموض على أنها مدركات بشرية مختزنة فى الخبرة لها القدرة على أن تكون وسيلة الاتصال بالعقول الأخرى وذلك بالتشابه المتبادل لتلك الفئة من مشاعرنا الإدراكية التى لديها القدرة على تعديل بعضها البعض الآخر والتى هى مجرد «معرفات: إحاطة» خرساء يجب أن تشابه وقائعها وحقائقها وهذه المدركات فى نهاية المطاف هى الحقائق الوحيدة التى نعرفها بطريقة مباشرة، ما دامت تجد الانسجام والتوافق فى حالة من التعديلات المتبادلة مع مدركات الخبرة يكون شيئًا حقيقيًا لأن الشىء الوحيد الصحيح حرفيًا هو الواقع أو الحقيقة، والحقيقة الوحيدة التى نعرفها والتى تمثل الواقع المحسوس الملموس لنا هى تدفق أحاسيسنا وانفعالاتنا وهى تمر[٢٠].

لقد جعل جيمس من الخبرة الحكم الوحيد على تحة الأفكار والمفاهيم المطروحة وهو بهذه الطريقة - وبعد أن أنكر وسخر من كل المفاهيم والحقائق التى ارتكن إليها المفكرون والحكماء والفلاسفة - بدلا من أن يشير لنا إلى النور الذى نستمد منه هدايتنا يهرب هو نفسه فى الضباب، وهل يوجد فى كل العلوم الإنسانية مجال أكثر غموضًا وضبابية من مجال الخبرة فى علم النفس؟

إن السؤال المشروع الآن هو ما الذى يمكن أن يتفق عليه الفلاسفة والنفسيون والعلماء من مفاهيم عن الخبرة وعملياتها النفسية؟

---

(١٨) عن كتاب البراجماتية بتصرف.

(١٩) المرجع السابق.

(٢٠) عن المرجع السابق بتصرف كبير «اختصارًا».

وهناك سؤال آخر محورى - نستطيع أن نناقش بعده تفاتيل النظرية - هو ما الذى كوّن فينا تلك الخبرات النفسية هل هو شيء مسبق على واقعنا؟ أم كونتها انعكاسات وقائع خارجة عنا؟ أم هى تفاعل بين هذا وذاك؟ وفى الفرض الأخير نسأل: على أى أساس تم هذا التفاعل؟

وهل يكفى جيمس للإجابة عن ذلك ادعاؤه بأنها العمليات المتراكمة للبداهة؟ «والتى يتحدث عنها بقدر كبير من الغموض».

لأنه لو كان يقصد بالبداهة الأوليات والمسلمات المنطقية التى نفهمها نحن فإنه لا يجوز له أن يستند إليها فى تكوين مصدره الأساسى للمعرفة «الخبرة» بعد أن حقر من قيمتها المعرفية وأنكر علينا أن تكون ضمن وسائلنا فى الاستدلال على الحقائق.

أما إذا كان يعتبر أننا نستخدم تنفات ثانوية للبداهة أما هو فيستخدم تنفاتها الأولية القديمة التى تدس أشياءها الدائمة بين أحاسيسنا «وهذا الكلام مجرد تعابير أدبية غامضة أسهل منها وأكثر أمنًا وقبولا مفهومنا للبديهيات المنطقية»، نقول على فرض ذلك يكون مقياسك الحقيقى ووسيلتك المعرفية الأساسية هو هذه البديهيات وليس الخبرة ويكون عليك أن تدلنا فى عبارات حاسمة لا لبس فيها ولا تمييع - الهدف من ورائه التمرير - ما هى هذه البديهيات فلا تقل لنا مثلا إنها المدركات القديمة الدائمة فى أحاسيسنا لأن هذا الكلام ذاته يحتاج إلى إدراك متفق عليه وهو أمر مفقود بالطبع فيصير مجرد لغو سفسطائى ليس هناك جدوى من ورائه سوى الهروب من الاتهام بالعبث وتمرير للأفكار النفعية بلا برهان، وأعقل من ذلك مرارًا الارتكان إلى شطحات المتصوفين وادعاءاتهم اللاعقلانية!

أيًا كان الأمر فالرجل يعترف فى نهاية فصله عن البداهة، فإنها بالرغم مما تحظى به من التوقير والتبجيل وعلى الرغم من سريان استعمالها على نحو عام مشاع بين الناس جميعًا إلا أنها ما زالت مجالا للشك والارتياب بالنسبة له، وهو يستحلفنا قائلا: «بالله عليكم احتفظوا بهذا الشك فى البداهة»[٢١].

وهنا قد يسأل سائل: إذا كان هذا هو موقفه النهائى من البداهة أيًا كان معناها عنده أو عند الآخرين، فعلى أى أساس يريد أن يجعل منها حجر الزاوية فى فلسفته؟

أجيب على ذلك بأن الرجل فى الحقيقة لا يبحث عن شيء يسمى بداهة ولا يبحث

---

(٢١) المرجع السابق.

عن شىء يسمى حقًا أو شىء يسمى تحيحًا، إن الرجل يبحث فقط عن تبرير أو تمرير لكل كا هو نفعى وهو ينكر أى حكم سابق على طريقته من الممكن أن يظهر لنا معنى هذا النفع، ولا يقدم لنا من عنده مقياسًا حقيقيًا يطمئن إليه هو نفسه بل يقدم وسيلته المعرفية بكل الشك والارتياب والاستجداء من أجل القبول! ولا يبقى لنا بعد ذلك إلا ما هو نفعى بالمعنى الذى يجده كل شخص للمنفعة أو إلى ما يستريح إليه من المنافع، فهذا ما يريد أن يصل إليه الرجل ولْنُسمِّ نحن ما يقوله كما نشاء فهذا أمر لا يزعج فلسفته كثيرًا.

وإنك لتجد هذا الذى أقوله مضمرًا بشكل مستمر فى الكثير من عباراته.

خذ هذه العبارة التى يسردها فى مجال حديثه عن البداهة، يقول جيمس: «إن البداهة تتجلى كمرحلة محددة تمامًا فى فهمنا للأشياء، مرحلة تشبع بطريقة ناجحة - نجاحًا لا قياسًا - الأغراض التى من أجلها نفكر».

من الأشياء التى يتفق عليها علماء النفس أن الأشخاص يختلفون فى أحكامهم الإدراكية يقول الدكتور يوسف مراد[٢٢] فى ذلك: «لا شك فى أن لاتجاه التفكير أثرًا كبيرًا فى تكييف شكل المدرك الحسى؛ إذ لا يكون المرء عادة فى حالة استقبال سلبى لما يعرض له من شتى المدركات الحسية، بل تكون استجابته لها متأثرة بمعلوماته السابقة وبما يشغل باله من خواطر وأفكار».

ولهذا فلن يشفع لجيمس قوله: «إن كوننا نحس بنفس الطريقة وكون مشاعرى بالشىء تشبه مشاعركم، فشىء لا يمكننا أبدًا أن نتأكد منه ولكننا نفترضه كأبسط فرض يقابل الحالة.

وفى الواقع من الأمر فإننا لسنا أبدًا متأكدين منه، وكنظرية ففى وسعنا فقط أن نقول إن المشاعر التى لا ينبغى أن يشبه بعضها بعضًا، فإن كلتيهما لا يمكنها أن تعرف نفس الشىء فى نفس الوقت بنفس الطريقة»[٢٣].

إن الذى أنكر علينا وسائلنا المعرفية لا أعرف كيف يحق له أن يستند إلى أمر لا يتأكد منه هو شخصيًا خصوصًا وأننا لسنا بصدد مسألة ثانوية وإنما بصدد نظريته المعرفية التى يقيم عليها فلسفته!!

---

(٢٢) د. يوسف مراد: علم النفس العام «دار المعارف».

(٢٣) البراجماتية.

يقول برتراند رسل فى كتابه «الفلسفة بنظرة علمية»: «لا يجوز لنا بحال من الأحوال أن نفترض أن الإدراك الحسى لشىء ما يتضمن معرفتنا لطبيعة ذلك الشىء والقائلون بأن الإدراك الحسى وحده كافٍ للكشف عن طبيعة الأشياء واهمون وهمًا لا بد من التخلص منه إذا أردنا لفلسفتنا أن تكون شيئًا أكثر من قصة خيالية ممتعة».

وجيمس فى الحقيقة لم تبلغ به الجرأة للقول بأن الإدراك الحسى وحده كافٍ للكشف عن طبيعة الأشياء، ولكنه قال فقط بقلق شديد: «إن الشعور المدرك حسيًا يعرف الحقيقة أو الواقع كلما انتهت فعلا أو كمونًا بمدرك يعمل بمقتضى ذلك الواقع أو يشبهه، أو بطريقة أخرى يرتبط بسياقه ومحتواه»[٢٤].

فجيمس يحاول أن يهرب من النقد باللجوء إلى كلمات مثل: «يعمل بمقتضى - يشبهه، يرتبط بسياقه ومحتواه - لسنا متأكدين ولكننا نفترض كأبسط فرض يواجه الحالة».

فهل تصلح مثل هذه الكلمات والعبارات لإقامة نظرية فى المعرفة يدعيها رجل ضرب بتراث العالم المعرفى عرض الحائط؟!

ويبرز الجدل التمريرى - الذى يقترب من الشعوذة - عند جيمس فى كلامه عن أن كل شعور بمدرك حسى جديد يجد الانسجام والتوافق والتناغم - فى حالة من التعديلات المتبادلة - مع مدركات الخبرة يكون شيئًا حقيقيًا.

إن هذا الكلام يفترض عدة افتراضات لا وجود لها، منها قدرة الإنسان على عزل العوامل الخارجة عنه ليستطيع أن يجعل من هذا التوافق والانسجام حكمًا، ومنها التعامل مع خبرات البشر على أنها معامل تفريخ محكمة القواعد، منضبطة الحرارة، بل ومتشابهة ومنعزلة عن العوامل التى كونتها.

ومنها - أقصد الافتراضات التى لا وجود لها - قدرة الإنسان على أن يجعل من نفسه ميزانًا حساسًا يستطيع أن يحكم به على ما ينسجم أو لا ينسجم، أو على ما يتوافق أو لا يتوافق، ولو حتى كان الانسجام غير تام لما يحدث من تعديلات متبادلة بين مدركات الخبرات والمدرك الجديد، فإن هذه الدرجة من الانسجام والتوافق، أو بقول أدق هذا السلم من الدرجات غير المحددة للانسجام - يحتاج أيضًا إلى ميزان حساس لا نملك وجوده.

---

(٢٤) البراجماتية.

وإذا كانت هذه الفروض غير موجودة بالنسبة للفرد الواحد. فإنها تكون مستحيلة بالنسبة للتجارب الجماعية التى يموه بها ليضفى على مذهبه الفارق فى الفردية طابعًا اجتماعيًا معدومًا.

أما المثل الذى يعطينا إيّاه لمعنى التنافر بين المدرك الجديد ومدركات الخبرة فهو مثل تافه لا قيمة له، يقول جيمس: «إنكم تنصتون إلىّ الآن، فيما أحسب، ولديكم أفكار سابقة معينة عن كفايتى وجدارتى، وهذه الأفكار السابقة تؤثر فى تلقيكم لما أقول ولكن إذا قدر لى مثلا أن أكف عن الكلام فجأة وأرفع عقيرتى بالغناء منشدًا: «لن تذهب إلى البيت حتى الصباح» فى صوت جهير غريد فإن هذه الحقيقة لن تضاف إلى المدخر عندكم من رصيد فحسب، وإنما ستضطركم اضطرارًا إلى تفسيرى تفسيرًا مختلفًا. وقد يفضى ذلك إلى تغير رأيكم فى الفلسفة البراجماتية، وبصفة عامة تحدث إعادة تنظيم لعدد من أفكاركم.

إن عقلكم فى مثل هذه العمليات والسبل، يصيبه العناء والجهد والتوتر، وأحيانًا يعانى آلامًا من جراء ذلك التنافر بين معتقداته القديمة وبين المستحدثات التى تجلبها الخبرة»[٢٥].

فهذا مثل شديد الوضوح عن التنافر الذى يحدث فى الخبرة نتيجة للإدراكات المستحدثة التى تختلف مع معتقدات الخبرة القديمة، ولكن ليس على هذا الوضوح الساذج يكون التنافر بين إدراكات الأفكار المختلفة خصوصًا فى المسائل الفلسفية، مما يجعل ضربه لمثل كهذا أمرًا لا جدوى منه.

والقارئ لوليم جيمس - فى موضوع نظريته للمعرفة بالذات وهى أساس فلسفته كلها - يشعر أنه فى حالة مستمرة من عدم الثقة والدفاع عن النفس، وكأنه يستجديك بأن تجعل كلامه يمر كما يعبر هو عن تدفق الأحاسيس فى الخبرة.

يقول وليم جيمس فى استجداء شديد: «لا بد لكل علم من أن يفترض بعض الفروض وما أصحاب نظريات المعرفة سوى بشر فانين غير معصومين من الزلل.

وعندما يدرسون وظيفة الإدراك، فإنهم يدرسونها بواسطة نفس الوظيفة فى أنفسهم ولعلمنا بأن الينبوع لا يستطيع أن يجرى أعلى من أصله ومبعثه فلزام علينا أن نعترض على الفور بأن نتائجنا فى هذا المجال تتأثر بقابليتنا للخطأ وعرضتنا للزلل.

---

(٢٥) البراجماتية.

إن أقصى ما نستطيع دعواه هو أن ما نقوله عن الإدراك يمكن عده تصحيحًا شأنه فى ذلك شأن ما نقوله عن أى شىء آخر. فإذا وافقنا ساموعونا على ما نتمسك بأنه «حقائق واقعة» فلربما يوافقون أيضًا على حقيقة مذهبنا عن الطريقة التى تعرف بها، وليس فى وسعنا أن نطلب أكثر من ذلك»[٢٦].

إنه يستجدى منا أن نسلم له ببعض الفروض التى لا يثق هو نفسه فى تصحتها وهذه الفروض هى ما تقوم عليه نظريته فى المعرفة، فإذا ما وافقنا نحن على ذلك كان من الممكن فى رأيه - أن نوافق على باقى فلسفته.

فهل يستحق مثل هذا العبث أن نضحى من أجله بكل ما تعارفنا عليه من أفكار؟!

المفهوم البراجماتى للحقيقة:

مما سبق يتضح أن جيمس لا يملك مصدرًا معرفيًا سليمًا يستطيع أن يستمد منه الحقائق وأنه هو نفسه يشك فى كلامه عن المعرفة فى فلسفته.

فماذا إذن يعنى مفهوم الحقيقة عنده؟

إن الخبرة كما أوضحنا لا تصلح كمصدر للحقائق، ولكن جيمس يحاول تمرير فكرته عن الحق فى مقولته عن التحقيق. فإذا كان تحقيق الفرض لا يفضى إلى إحباط أو تناقض فهو إذن فرض تصحيح، والفرض يكون تصحيحًا إذا تار بعد التحقق منه كل شىء على ما يرام.

إننا نستطيع أن نفهم معنى الحقيقة عنده إذا وضعناه فى الإطار الذى وضعه فيه جيمس نفسه.

أولاً: البراجماتية لا تمثل ولا تناصر أى نتائج معينة من طريقتها.

ثانيًا: إن حيازة الحقيقة عندها «أى البراجماتية» بعيدة كل البعد عن أن تكون غاية فى ذاتها فهى لا تزيد عن كونها مجرد وسيلة أو أداة أولية لبلوغ الإشباع والرضا والسرور.

ثالثًا: إن الحق يفضل على الباطل عندما يرتبط كلاهما بالموقف «أى البحث عن أيهما أنفع» أما إذا لم يرتبطا بذلك فإن الحق يتساوى مع الباطل.

رابعًا: إن الفكرة إذا كانت نافعة فإن البراجماتى يوافق على كل ما تقوله أيًا كان موضوعها.

---

(٢٦) البراجماتية.

خامسًا: إن الحقيقة نفسها فى حالة تغير وتبدل وانتقال[٢٧].

إننا مهما حاولنا أن نفكر فلن نصل إلى شىء ما دمنا لا نملك حقًا مبدئيًا نستطيع أن نحتكم إليه فى نتائجنا، لأننا من الممكن أن نتفق على نسبية الحق بيننا باختلاف مذاهبنا ولكن يظل حقًا نطمئن إليه فى إطار كل مذهب على حدة، ولكننا من المستحيل أن نحتكم إلى منفعة أو نتيجة هى فى ذاتها فى احتياج مبدئى إلى حكم أو مقياس لا تملكه، ومن هنا نفهم أنه لا مفر من البحث عن الحق كغاية. فحتى لو كانت المنفعة هدفًا فلن نستطيع بغير الحق أن ندرك ما هى هذه المنفعة ولكن جيمس يقلب الأمور كلها رأسًا على عقب باستهتار ولا مبالاة شديدين، فهو لا يبحث عن الحق كغاية أو كهدف فى ذاته وما دامت الفكرة نافعة فليس مهمًا عنده كونها حقًا أو باطلا بل وليس مهمًا الموضوع الذى تؤدى إليه أيًا كان «لاحظ مدى اللامبالاة فى هذا الكلام - وهو لجيمس - بمصالح الآخرين الذين لا تكون الفكرة نافعة لهم». وما دامت المنافع تتغير وتتبدل بتغير الظروف والأحوال فلا بد أن يلازمها الحق فى تبدلها وتغيرها.

وهكذا نستطيع أن نفهم جيمس جيدًا.

فالفكرة عنده تكون حقًا إذا أدى تحقيقها إلى ما يريد وما دامت فكرة المنفعة العامة لم تكن هدفًا حقيقيًا لجيمس وما دامت هى نفسها من المستحيل الاحتكام إليها كمقياس للحقائق، فإن الذى يترسب لدينا هو الآتى:

* أن الفكرة لدى البراجماتى تكون حقًا إذا كان تحقيقها يؤدى إلى ما يريد كل منا، أيًا هذا الذى يريده، وبلا مبالاة فى النتائج التى قد تصيب الآخرين الذين لا يرون النفع فى تحقيق تلك الفكرة، المهم أن يصير الأمر بالنسبة لأصحابه - بتعبير جيمس نفسه - على ما يرام.

* لقد كان الحق هو الغاية لكل الفكر الإنسانى لكن الرجل جعل الحق هو مجرد وسيلة إلى الفوائد والمنافع، وهو بهذا لا ينفى عن الحق فقط أى معنى مستقل، ولا يبرر فقط أيضًا الحصول على المنافع الشخصية بإضفاء صفة الحق عليها، ولكن الأهم من ذلك كله أنه يخلط بين الحقائق والوسائل بطريقة تؤدى إلى تذويب الحقائق بشكل مطلق ونهائى.

* وفى نهاية فصله عن مفهوم الحقيقة يحاول أن يبرز كل ما سبق بوصفه للحقيقة

---

(٢٧) نصوص متفرقة نقلت بتصرف من كتاب البراجماتية.

بأنها فى حالة تغير وتبدل وانتقال، ونحن حتى لو وافقناه على ذلك، فإنه لم يستطع أن يقدم لنا أى مقياس يعطى لنا - ولو بشكل مؤقت - مفهومًا ما لتلك الحقيقة المتغيرة، وكأنه لم يكن يريد أن يشرح أو يدافع عن مفهوم الحقيقة عنده، بل كأنه يقوم بدور المرشد والموجه والمقنن لما يجب أن تكون عليه رؤية المنتفع للشىء المنتفع به، فبتبدل وتغير منافع كل منا، علينا أن نعتقد أن الحقيقة تتبدل وتتغير كذلك معه ومرتبطة به.

وتكون النتيجة من هذا الكلام هى: «اعتقدوا أن المنافع التى ينتفع بها كل منكم - أيًا كان أمرها - هى الحقيقة».

والرجل يعى جيدًا مدى ضعف نظريته منطقيًا، وأنه لا يقدم أى مفهوم يقينى للحقيقة أو حتى راجح الصحة، وهو حتى لا يطالبنا أن نعتقد بذلك، إنما هو يقول لنا إنه ما دامت كل الوسائل المعرفية التى لديكم ضعيفة، فينبغى لكم أن تأخذوا كلامى ولو على سبيل الظن أو الفرض أو حتى الاحتمال.

فالأنماط المتعددة من التفكير - كما يقول وليم جيمس - «كلها متعارضة وليس فيها واحد على سبيل الحصر يستطيع أن يقيم الحجة على دعوى الصحة المطلقة، أفلا ينبغى أن يثير ذلك احتمالا أو فرضًا أو ظنًا أو حدثًا مناصرًا لوجهة النظر البراجماتية؟.. وما دامت هذه الأنماط المتعددة من التفكير غير صحيحة لكنها خدمت أغراضًا معينة لكم، فلماذا لا يثير ذلك ولو حتى احتمالا مناصرًا لمقولتنا: إن الحقائق ينبغى أن تكون هى الوسائل التى نستطيع بها أن نصل إلى ما نريد»[٢٨].

أى أن الرجل - كما قلت سابقًا - يبدأ بموقف عبثى من الكون وينتهى بنا إلى موقف عبثى أيضًا، ثم يقول لنا: إنه ما دام الأمر كذلك فبدلا من اليأس والمرارة والسأم على كل منا أن ينتفع بما يريح نفسه ويجد فيه اللذة، ولو بشكل مؤقت ومتغير وعليه لكى يستريح تمامًا - كما يظن جيمس - أن يعتقد أن ذلك الذى يفعله هو الحقيقة.

أعتقد أن الصورة قد صارت الآن واضحة إلى حد كبير لنرى ما تنطوى عليه هذه الفلسفة من شرور.

إن كون جيمس يعتبر النافع حقًا حتى ولو كان لحظيًا، بل ولو كان باطلا فإن ذلك يعنى - وكما يظهر فى كلام الرجل نفسه - أنه لا يؤمن بالحق أو الحقيقة أصلا، ولا يبحث عنهما، ولا يهمه فى شىء أن يبحث عنهما، إنما يحاول فقط أن يقدم تبريرًا

---

(٢٨) المرجع السابق.

فلسفيًا لكل من يعمل على ما ينفعه، ولكى يرضينا فقط، ويقوى من عزيمة من يتفق معه فى ذلك، فقد أطلق على هذه التبريرات لفظ الحقائق، أى أن الهدف من وراء هذه الفلسفات هو تبرير المنافع كما يراها أتحابها فقط، ولنسم نحن ذلك ما نشاء من المسميات، أما هو ففى محاولة من النصب الفلسفى - يسمى هذا التبرير الحق أو الحقيقة.

فالرجل لم يبحث إلا عن التبرير فقط؛ لأن المعنى العام الذى تتضمنه فلسفته، أنه لا يؤمن بشىء يسمى حقًا أو حقيقة وبذلك تكون خلاصة المذهب هى «البحث عن تبرير للمنافع كما يراها أتحابها فى عالم يخلو من الحقائق وقد أرهقه البحث عنها».

حسن، إن الرؤية الآن تتضح أمامنا لكى نستطيع أن نرى نظرة العبث الكامنة وراء تلك الفلسفة، وكما قلت سابقًا فإنه ليس كأى عبث، فهو مثلا ليس كالعبث الذى نجده عند البير كامو أو عند تمويل بيكيت أو حتى عند كفكى، ولكنه شىء خطير جدًا، إنه عبث يحاول أن يكون منتفعًا ومستغلا.

وبعد أن أوضحنا المفهوم الانتهازى الذى لا يمكن أن ينتهى إلا إليه المراد بمعنى النفع فى هذه الفلسفة، استطعنا أن ندرك مدى ما ينطوى عليه من شرور يحاول إكسابها ثوبًا فلسفيًا وأخلاقيًا سفسطائى الألوان، مما يجعله أكثر شرًا.

* * *

وبعد أن تقلص أمامنا مفهوم الخبرة كحكم نلتجئ إليه أو كمصدر للمعرفة وظهر لنا مدى ضعفه وتهافته، سنجد أن مفهوم المنفعة لدى وليم جيمس يقف وحيدًا، معزولا، حائرًا بلا نصير.

لأننا إذا تكلمنا عن النتائج العملية النافعة، واتضح لدينا أن الخبرة لا تصلح للحكم على ما هو نافع فلا بد أن نتساءل الآن «النتائج العملية النافعة بالنسبة لمن ؟؟».

لقد طالبنا جيمس بالتخلى عن كل تصرفاتنا المذهبية وأحكامنا المنطقية، وهى المرجع الوحيد الذى يمكن أن نحتكم إليه لتحديد أو إدراك ما هو نافع، كما أنه لم يستطع أن يقدم لنا الحكم أو المرجع الذى نحتكم إليه من عنده.

قد يقول قائل إن وليم جيمس متأثر فى فلسفته برواد فلسفة المنفعة العامة مثل بنتام وجيمس مل وابنه جون ستيوارت مل، وقد أهدى كتابه البراجماتية إلى الأخير كاتبًا فى الإهداء «إلى ذكرى جون ستيوارت مل الذى كان أول من علمنى سعة الأفق

البراجماتية والذى يطيب لخيالى أن يتصوره كقائد لنا لو كان اليوم حيًا».

ومن هذا قد يكون مفهوم المنفعة الذى يقصده وليم جيمس هو مفهوم المنفعة العامة عند هؤلاء الفلاسفة.

والإجابة على هذا الكلام أن جيمس قد يلوح من حين لآخر بالكلام عن إنسانية مذهبه والسعى إلى النفع العام لكل البشر «مثل كلامه عن التجربة الجماعية» وذلك ليكسب مذهبه الطابع الجماعى، وهذا أمر يدعيه الكثير من الفلاسفة الفرديين خصوصًا عندما يقعون تحت ضغط دعاة المذاهب الاشتراكية، ولم يكن غريبًا أن سارتر نفسه قد حاول أن يصبغ مذهبه الوجودى - القائم فى الأتل على الذاتية - نفس الصبغة الجماعية، وكأن هؤلاء الفلاسفة يبحثون عن الشرعية الشكلية بين الاشتراكيين.

ولكن العبارات الصريحة لجيمس تنقض ما قد يلوح به من حين لآخر من إنسانية مذهبه - وهو أمر ينقضه كل مقولات هذه الفلسفة من أول نقطة فيها إلى آخر نقطة - من هذه العبارات كلامه عن اختبار مدى الانتفاع بالدين واختيار أى دين يصلح من الأديان على هذا الأساس، قال جيمس:

«إننا لا ندرى للآن على سبيل الجزم واليقين أى نوع من الدين سيعمل على أحسن نحو فى المدى الطويل. إن المعتقدات المتطرفة المختلفة العديدة للناس، ومغامراتهم العقائدية العديدة هى فى الواقع المطلوب لإقرار البينة، ولعلكم تقومون بمغامراتكم فى هذا الصدد استقلالا كل بمفرده(٢٩)».

أى أنه جعل التجربة الفردية مناط الحكم فى أمر من أهم الأمور الإنسانية - بل أهمها على الإطلاق - فما بالك بالأمور الأقل أهمية من أمر الدين!!

ولكن حتى لو سلمنا جدلا بهذا الفرض «المستحيل»، فإن أى فيلسوف يحاول أن يجد فى المنفعة العامة مقياسًا للحق لهو رجل يثير الرثاء؛ لأنه يلتجئ إلى وهم مستحيل، فإذا كان كل إنسان يسعى وراء منفعته الخاتة «لاحظ أن مفهوم المنفعة المادى الضيق يصير فى الفكر الغربى - والأمريكى بوجه خاص - بديلا لمفهوم السعادة» فقد بات بديهيًا أو بقول أدق ترسخ فى الوعى الإنسانى أن مفهوم السعادة يختلف من إنسان إلى آخر.

ويناقش الفيلسوف الإنجليزى برتراند رسل هذا الموضوع فيقول: «الجزء الأخلاقى

---

(٢٩) المرجع السابق.

من نظرية المنفعة العامة، المستقل منطقيًا عن الجزء السيكولوجي يقول: إن تلك الرغبات والأفعال الحسنة هى التى تعزز فى الواقع السعادة العامة. ولا حاجة فى هذا إلى النية للفعل بل فقط أثره. أثمة حجة نظرية سليمة سواء لتأييد هذه النظرية أو لرفضها؟ لقد وجدنا أنفسنا نواجه سؤالا مماثلا بالنسبة لنيتشه. فأخلاقه تختلف عن أخلاق أتحاب المنفعة العامة، ما دامت تأخذ بأن أقلية فقط من الجنس البشرى لها أهمية أخلاقية فينبغى إغفال سعادة أو شقاء الباقى. ولست أعتقد أنا نفسى «الكلام لرسل» أن هذا الخلاف يمكن تناوله بحجج نظرية كتلك التى يلزم استخدامها فى مسألة علمية. وواضح أن أولئك الذين استبعدوا من أرستقراطية نيتشه سيحتجون وتغدو المسألة على ذلك مسألة سياسية أكثر من كونها مسألة نظرية[٣٠].

ولا يبقى الآن سوى معنى واحد للمنفعة فى المفهوم البراجماتى لها وهو المنفعة الخاصة لكل شخص على حدة، وهو ما يتفق مع عبارات لجيمس مثل: «إن الحقيقى ليس سوى النافع الموافق المطلوب فى سبيل تفكيرنا، تمامًا، كما أن الصواب ليس سوى النافع الموافق المطلوب فى سبيل مسلكنا» فهو لا يريد سوى ما يوافق المطلوب والذى لا يملك أى شىء فى الوجود تحديد ما هو إلا كل منا على حدة.

وسواء قصد جيمس ذلك أو لم يقصد ذلك لا يهمنا كثيرًا، ولكن المهم فى الأمر أن هذا هو المترسب من هذه الفلسفة.

لقد بدأ المحك البراجماتى من موقف عبثى لا يملك القدرة على الإتيان بحقائق بل ومشككًا فى كل الحقائق التى اطمأن إليها الآخرون، بل وينكر كل الوسائل المعرفية التى تعارف عليها البشر، وانتهى إلى موقف عبثى لا يملك القدرة على الإتيان بحقائق، ولكن من خلال إعمال هذا المحك البراجماتى يكون قد ترسب فى وعى القائمين بذلك أنه ما دام لا يستطيع أحد الإتيان بالحقائق المؤكدة فعلى كل منا أن يعتبر ما ينفعه - بحسب اعتقاده هو عن المنفعة - هو الشىء الصحيح أو الحقيقى أو أى اسم آخر يريد أن يسميه المهتمون بذلك كما يشاءون.

يقول الإمام محمد باقر الصدر عن ذلك: «إن إعطاء المعنى العلمى البحت للحقيقة وتجريدها من خاتمة الكشف عما هو موجود وسابق استسلام مطلق للشك الفلسفى.. إن من حقنا التساؤل عن هذه المنفعة العملية التى اعتبرت مقياسًا للحق والباطل فى

---

(٣٠) تاريخ الفلسفة الغربية: القسم الثالث بالفلسفة الحديثة «بتصرف».

«البراجماتيزم» أهى منفعة الفرد الخاص الذى يفكر؟ أو منفعة الجماعة؟ ومن هى هذه الجماعة وما هى حدودها وهل يقصد بها النوع الإنسانى بصورة عامة أم جزء خاص منه؟ وكل من هذه الافتراضات لا تعطى تفسيرًا معقولا لهذا المذهب الجديد.

فالمنفعة الشخصية إذا كانت هى المعيار الصحيح للحقيقة وجب أن تختلف الحقائق باختلاف مصالح الأفراد فتحدث بسبب ذلك فوضى اجتماعية مريعة حين يختار كل فرد حقائقه الخاصة دون أى اعتناء بحقائق الآخرين المنبثقة عن مصالحهم وفى هذه الفوضى ضرر خطير عليهم جميعًا. وأما إذا كانت المنفعة الإنسانية العامة هى المقياس فسوف يبقى هذا المقياس معلقًا فى عدة من البحوث والمجالات لتضارب المصالح البشرية واختلافها فى كثير من الأحايين».

ويقول الدكتور توفيق الطويل:

«ويكفى أن تعتبر البراجماتية الحق أو الخير كالسلعة المطروحة فى الأسواق قيمتها لا تقوم فى ذاتها بل فى الثمن الذى يدفع فيها فعلا فالحق فيما يقول جيمس كورقة نقد تظل صالحة للتعامل حتى يثبت زيفها! ولم يجد أصحاب البراجماتية غضاضة فى النظر إلى الحق أو الخير كما ينظرون إلى السلعة التى تطرح فى الأسواق وهذه هى العقلية الأمريكية فى الفلسفة وفى الأخلاق وفى السياسة وفى كل مجال[٣١].

والعبث فى هذه الفلسفة يكمن وراء نظرتها العامة المتشككة واللامبالية فى كل الوسائل المعرفية، بما فيها نظريتها هى ذاتها فى المعرفة.

ولكن الجديد فى الموضوع أن العبث هنا عبث ذو طبيعة خاصة، عبث بالرغم من إدراكه لذاته أنه عبث إلا أنه يريد أن يستفيد، أن ينتفع فى كل لحظة يشعر فيها أنه سينتفع أيًا كان نوع ذلك الانتفاع فربما يخفف ذلك من وطأة عذاب الشعور بالعبث على النفس، فبدلا من أن يتقدم بها إلى السأم والموت مثل العبثيين بوجه عام والوجوديين العبثيين بوجه خاص - فإنه يريدها «أى يريد البراجماتى من نفسه» أن تعمل عملا دءوبًا على ما يريحها دون أن يهتم بالتفكير فى انعكاس ذلك على شقاء الآخرين، لأن العبث لا يفهم هذه المعانى بل ينكر وجودها أصلا، وكل ما يطلبه منا جيمس هو أن ندع تلك الأفكار البراجماتية التى يكمن وراءها تلك النظرة العبثية إلى الوجود - تمر! فهل من الممكن أن نتركها...؟؟!!!

---

(٣١) نقلا عن الدكتور مصطفى حلمى فى كتابه (الإسلام والمذاهب الفلسفية المعاصرة).

إرادة الاعتقاد:

هنا نجد جيمس يعبر عن أفكاره بوقاحة غير معهودة، فيتكلم تراحة أنه ما دام ليس هناك بداهة عقلية يقينية فلماذا لا نفكر أن اعتقادًا ما، هو الحقيقة، ما دام أن هذا الاعتقاد نافع، بدلا من أن نضيع الوقت فى البحث عما هو حق وما هو باطل؟!

وأنا أقول هذا الكلام لأن المقولات التى يطرحها جيمس فى هذا الموضوع بالذات واضحة البطلان حتى إنها أثارت حفيظة الكثيرين من النقاد الغربيين أنفسهم، وإنك لتتوسم فى كلامه أنه يعى ذلك، بل ويكاد يعترف به دون مبالاة بشىء.

انظر مثلا الأمثلة التى يضربها ليدلل بها على تحة أفكاره:

«إن اعتقادك بأمانة شخص قد يكون هو الكفيل ببث الأمانة فى نفسه، كما أن ثقتك به قد تجعله شخصًا جديرًا بالثقة حقًا».

وأنا لا أعتقد مثلا أنه لم يجل بخاطر جيمس أن ذلك الاعتقاد الأول، كما قد يكون كفيلا ببث الأمانة فى نفس الشخص الواقع عليه فإنه قد يكون كفيلا أيضًا بتشجيعه على الخيانة وجرأته عليها، وكذلك الكلام عن الثقة، فقد تجعل الشخص أكثر اطمئنانًا فى ممارسة الغدر، وأيًا كانت درجة رجاحة أحد الاحتمالين عن الآخر، فإنه ليس من المعقول أبدًا أن تقوم فلسفة ما على «قد يكون».

وكذلك قوله: «أى دليل هناك فى أن الخداع خلال الأمل أسوأ بدرجة كبيرة للغاية من الخداع خلال الخوف».

أيكون مهمًا أن يكون الخداع الأول أسوأ بدرجة كبيرة للغاية أو بدرجة كبيرة فقط أو حتى أقل من الخداع الثانى، إن كلا الخداعين من البشاعة أن نعيش فى أحد منهما. فجيمس لا يهمه إلا أن يقوم بدور الموجه إلى طريقة جديدة فى النفع لينتفع بها المنتفعون الذين قد تفيدهم فى حياتهم ولا يهمه فى شىء تحتها منطقيًا.

أما عن رأى الفيلسوف الإنجليزى جورج إدوارد مور «فإن الأحكام التى أتدرها جيمس عند حديثه عن الصدق، الحق» هى فى نظره أحكام خاطئة واضحة البطلان فحين ذهب الفيلسوف الأمريكى مثلا إلى أن كل المعتقدات الصحيحة نافعة، لم يخطر بباله أنه قد تكون بعض المعتقدات الصحيحة عديمة الفائدة، كأن نقول مثلا ٢+٢=٤ فإن مثل هذه القضية قد لا تنفعنا فى بعض المناسبات.. وأما القول بأن كل المعتقدات النافعة تحيحة فإن هذا ما تنقضه تلك الأكاذيب التى قد تكون نافعة. وأما إذا قيل إن

المنفعة هى الخاتمة الوحيدة التى تشترك فيها جميع المعتقدات الصحيحة كان رد «مور» على هذا القول أنه ليس أدل على تهافت هذه القضية من أننا لو سلمنا بها، لكان علينا أن نقول إنه إذا كان اعتقادنا بوجود أى شىء من الأشياء نافعًا فلا بد من أن يكون هذا الاعتقاد صحيحًا، حتى ولو لم يكن لذلك الشىء أى وجود حقيقى، وأما القول بأنه حين يكون وجود أية عقيدة متوقفًا علينا، فإن صدق تلك العقيدة يكون أيضًا متوقفًا علينا»، فهو فى رأى «مور» قول سخيف يبعث على السخرية لأنه إذا صح أن اعتقادى بقرب انهمار المطر يتوقف على، فإن صحة هذا لا تتوقف على لأننى لست أنا الذى أتسبب فى سقوط المطر».

ويقول الفيلسوف الإنجليزى برتراند رسل: «وأنا أجد فى النظرية تمويات عقلية كبيرة. فهى تفترض أن اعتقادًا صادقًا حين تكون آثاره خيرة. وإذا لزم أن يكون هذا التعريف مفيدًا - وإذا لم يلزم فهو مقضى عليه طبقًا للاختبار البراجماتى - فيجب علينا أن نعرف أولا ما هو الخير، وثانيًا ما هى آثار هذا الاعتقاد أو ذاك. ويجب أن نعرف هذه الأشياء قبل أن يكون فى وسعنا أن نعرف أن أى شىء «صادق» طالما أنه لا يحل لنا أن ندعوه «صادقًا» إلا فى حالة واحدة فقط هى بعد أن نقدر أن آثار اعتقاده خيرة والنتيجة تعقيد لا يصدق[٣٢].

هب أنك تريد أن تعرف ما إذا كان «كولومبوس» عبر الأطلنطى سنة ١٤٩٢، فلا ينبغى لك - مثلما يفعل غيرك من الناس - أن تنقب عن ذلك فى كتاب. يتعين عليك أولا أن تبحث ما هى آثار هذا الاعتقاد. وكيف أنها تختلف عن آثار الاعتقاد فى أنه أبحر سنة ١٤٩١ أو سنة ١٤٩٣. وهذا تعب بما يكفى، ولكن يظل أكثر تموية أن تزن الآثار من وجهة نظر أخلاقية. يمكنك أن تقول إن لسنة ١٤٩٢ أفضل الآثار، ما دامت تعطيك درجات أعلى فى الاختبارات.

بيد أن منافسيك الذين سيتخطونك لو قلت ١٤٩١ أو ١٤٩٣ قد يعتبرون نجاحك بدلا من نجاحهم أمرًا يؤسف له أخلاقيًا. وبصرف النظر عن الامتحانات فلا أستطيع أن أتوقع أية آثار عملية للاعتقاد اللهم إلا فى حالة المؤرخ.

ولكن هذا ليس نهاية التعب فينبغى لك أن تقول بأن تقديرك لنتائج الاعتقاد الأخلاقية والواقعية معًا، تقدير صادق، لأنه لو كان كاذبًا فإن حجتك عن صدق

---

(٣٢) برتراند رسل: تاريخ الفلسفة الغربية بتصرف.

اعتقادك مخطئة، ولكن أن تقول إن اعتقادك من حيث النتائج صادق، هو تبعًا لجيمس بمثابة قولك إن له نتائج خيرة، وإنه بدوره سيكون صادقًا فقط إذا كانت له نتائج خيرة، وهكذا إلى ما لا نهاية. وواضح أن هذا غير مناسب».

إن تلك الانتقادات التى وجهها الفيلسوفان الكبيران دقيقة للغاية، لكننى لا أعتقد أنها تهم جيمس فى شىء، فجيمس لم يبحث عن صواب أو خطأ أو حق أو باطل ولكن جيمس يقول إنه يبحث عمًا هو نافع؛ ولهذا فإن ما يهمنا تجاهه هو انتقاد «رسل» له المتعلق بالتساؤل عن كل ما هو نافع، نافع بالنسبة لمن؟

والإجابة كما جاءت فى المثال الذى ضربه «رسل» أن الاعتقاد فى أن ١٤٩٢ هى السنة التى عبر فيها كولمبس المحيط سيكون صحيحًا ما دام سيعطى من اعتقده درجات أعلى فى الاختبارات وأن الأمر لن يختلف لو كانت السنة ١٤٩١ مثلا ما دامت النتيجة تظل واحدة ولكنه سينجح فى الاختبارات بدلا منهم ولكن لا أجد فى كلام جيمس أى دليل على أنه قد اهتم اهتمامًا جديًا بشىء يسمى وجهة نظر الآخرين الأخلاقية.

فبالرغم من المظهر الأخلاقى الذى تدعيه هذه الفلسفة إلا أن مفهوم المنفعة الذى هو حجر الزاوية فى تلك الفلسفة - يؤول فى النهاية إلى مفهوم شخصى وبذلك نستطيع أن ندرك ما تنطوى عليه هذه الفلسفة من انتهازية لا أخلاقية تعطى التبرير الفلسفى لكل من يسعى إلى عمل ما ينفعه دون الاهتمام بالنظر إلى ما ينفع الآخرين «وهذا فى ذاته يعنى عدم المبالاة بما قد يصيبهم من أضرار»، وشر من ذلك كله أنها تطلق على هذا الموقف الانتهازى الحق والحقيقة.

فإذا جاء جيمس بعد ذلك، وقال إن البراجماتية تسعى لأن تكون فلسفة أخلاقية وساق للتدليل على ذلك الكثير من الكلمات والعبارات ذات الطابع الأخلاقى الاجتماعى لحملنا ذلك على التأكيد على أنه يقوم بدور المرشد والموجه الذى يعلم الناس كيف يبررون أحط شرورهم وهم يعتقدون أنها ما يقتضيه الواقع الموضوعى من أخلاق، وأنها الحق والحقيقة.

الموقف البراجماتى من الدين:

هنا يبلغ الغىُّ البراجماتى مداه ويحصد وليم جيمس الحصاد.

فالدين الذى استشهد من أجله بلايين البشر على مر العصور والذى يعتبر الموقف منه أهم ركيزة فى حياة الإنسان لا ينظر إليه جيمس إلا على أنه محقق لبعض المنافع

وأن قبوله مشروط بتحقق تلك المنافع وليس مهمًا بعد ذلك الإيمان بالدين نفسه ما دام أن الاعتقاد فيه يكفى لتحقيق المطلوب، بل وليس مهمًا الاعتقاد بدين معين فأى دين يحقق النافع المطلوب منه يكون مقبولا وكل فرد يكون حرًا فى القيام بمغامرته - على حد تعبير جيمس - أو تجربته العقائدية التى يختار على أساسها الدين الذى ينفعه، وعلى القدر الذى يكون الدين فيه «أى دين» نافعًا فإنه يكون صحيحًا وبهذه الطريقة فإنه لكل إنسان الحرية فى أن يصنع من الأديان الموجودة «كل على حدة أو منها مجتمعة» الدين الذى يناسبه أى أن الدين الذى استشهد من أجله الملايين وحدد الكيفيات الحياتية والأنماط السلوكية للبشر يصير عند جيمس مجرد مطية للمنافع.

ولكن يا ترى ما هذه المنافع التى يريدها جيمس من الدين؟

إنها الراحة والهدوء والسكينة والطمأنينة والسلام والاغتباط والمشاعر المتدفقة التى تلهب الصدور وتبعث الحركة فى الحياة.

أى أن جيمس يريد من الدين أن يكون مجرد مُسكّن أو مخدر يستطيع الإنسان باعتياده أن يواصل حياته بقوة وحماس أكبر، والراصد للمذهب يستطيع أن يتبين السلوك الذى يمكن أن يكون عليه أتباعه ولهذا لزمت الحاجة إلى الدين كمخدر لسلوكهم النفعى الانتهازى - يساعدهم على مواصلة أفعالهم اللاإنسانية بنشاط أكبر.

وعلى هذا الأساس فإن جيمس لم يهتم كثيرًا بالتفرقة بين الله والمادة أو البحث عن كون الله موجودًا أو غير موجود بل إنه يحدد صفات الإله الذى يقبله ويرفض الصفات التى لا يعتقد هواه بكونها نافعة، أى أنه لا يؤمن بإله خالق بل هو يخلق من عنده إلهًا محدد الصفات يعمل على خدمة وإرضاء من يؤمن به.

إن الإله المطلوب لدى جيمس يجب أن يكون - على حد تعبيره - صديقًا ومعينًا ووفيًا وخادمًا وقد يكون معزيًا قويًا وقد يكون منذرًا معاقبًا تبعًا لحالتنا وحاجتنا وكما أنه هو خادم لنا فهو رفيق كثير المطالب دائب الحاجات لأن ذلك يفرض علينا واجبات جديدة ومهمات كثيرة ويبعث فيما حولنا جوًا من العواطف والمخاطر من شأنه دائمًا أن يشحذ هممنا وأن يوقظ فينا أعلى الإمكانيات، وهو نفسه يستمد من ولائنا وإخلاصنا عظمة وجوده ومقومات بقائه لأنه إله متناه هو نفسه جزء من العالم.

ولأن الله عنده شخصية متناهية فإنه لا يمكن أن يحيط بكل شىء أو أن يعرف كل شىء وليس فى استطاعته أن يضمن لنا خيرية العالم لذلك فهو لا يفرض علينا طريقًا

معينًا نكون ملتزمين أمامه أن نسير فيه، هذا فضلا عن أنه هو نفسه ليس بقادر على كل شيء ولكنه ليس إلا واحدًا من بين معاونين كثيرين في وسط جمهرة من مشكلي أو «مصنعي» مصير هذا الكون الأعظم! ثم يتساءل جيمس إذا كان الله كذلك - وهذا الكلام من وجهة نظر جيمس تعالى الله عن ذلك علوًا كبيرًا - فلماذا نتحدث عنه بصيغة المفرد كأن ليس هناك إلا إله واحد؟ أفلا يمكن أن تكون هناك آلهة متعددة؟ ثم يقول «إن فرض الشرك ليس أقل احتمالا من فرض التوحيد فلماذا لا نقول بوجود قوى متعددة تحكم الكون»[٣٣].

لقد قصدت من سرد كل هذه الصفات التي ذكرها جيمس أن أدلل على مدى جراءة الرجل الشيطانية على كل المقدسات التي تعارف عليها البشر حتى إنه قد بلغ درجة من التطاول والسخرية لم يبلغها الذين أنكروها أنفسهم. فالرجل يقول لفلاسفة عصره في وقاحة منقطعة النظير: إذا كنتم تختلفون حول كون الله موجودًا أو غير موجود فإنني سأخلق لكم بالأوصاف المقبولة لديكم إلهًا أو مجموعة من الآلهة المفيدة تريحكم من كل هذا العبث!!!

لقد اعتقد جيمس أن مذهبه يبيح له كل شيء ما دام يراه مفيدًا حتى خلقه للآلهة ذاتها بالأوصاف التي يهواها وذلك فقط لمحض المنفعة وذلك على أساس قوله: «في مقدورنا أن نتمتع بإلهنا إذا كان لدينا إله».

فهذا الرجل الذي يبدو أمام قومه ومناصريه في مظهر المدافع عن الدين والقيم الأخلاقية يبلغ به هنا العبث مداه حتى إنه - على حد قول أحد نقاد البراجماتية الغربيين: «يجعل من الإيمان بالله مجرد الإشباع لحاجة بشرية فحينما نسائله لماذا يؤمن بوجود الله؟ تجد أنه لا يستطيع أن يعلل ذلك بأدلة عقلية أو ببراهين تجريبية بل كل ما يستطيع أن يقوله في الرد على سؤالنا هو قوله: «إنه لا بد أن يوجد؛ لأنني في حاجة ماسة إليه «وكل العبارات التي يستعملها جيمس في تصوره لله تبدأ بمثل هذه الأقوال»:

أي هو لا بد أن يكون أو لا بد أن يعمل»[٣٤] والذي أعتقده أن جيمس لا يهمه نقد مثل ذلك في شيء لأنه يدري بما يفعل ويقوم بدور الموجه لكل هذه المفاهيم البشعة بحماس غريب. والمسألة عنده لا تستحق عراكًا أو خصامًا أو بالتعبير الدارج «وجع

---

(٣٣) دراسات في الفلسفة المعاصرة.

(٣٤) دراسات في الفلسفة المعاصرة.

دماغ» لأنه لديه الاستعداد التام للتنازل عن تلك الآلهة إذا اقتضى الأمر وكان ذلك مفيدًا كما فعل أمام نقاده وتنازل لهم عن اعتقاده فى المطلق.

إن إنكار جون ديوى للميتافيزيقا ومنها الدين أقل ضررًا كثيرًا من دفاع جيمس النفعى عن الدين ولا عجب إذا كان بابا روما قد أدان الدفاع البراجماتى عن الدين.

لقد استعاض جيمس بالاعتقاد فى إله من خلقه عن الله نفسه واعتقد أن ذلك سيحقق له المنافع التى يبغيها فهل من الممكن أن يتحقق شىء من ذلك؟!

إن هذه المنافع وغيرها لا تتحقق إلا بشرط واحد هو أن يكون الإنسان مقتنعًا بوجود الله فعلا. أما إذا لم يكن مقتنعًا بذلك فإنه من المستحيل أن يجد هذا العون من إله هو الذى خلقه أو حتى اعتقد فى وجوده من أجل هذا العون.

إن ذلك أشبه ما يكون برجل يدرب نفسه على الاعتقاد بأنه غنىّ ثم يحاول أن يستمد من هذا الغنى الوهمى المال الكثير الذى يبتغيه! وواضح مدى ما فى هذا المثال من خبل.

يقول الدكتور يوسف كرم[٣٥]: «إذا كان تحيحًا أن فكرة الله منشطة. فعلى شرط أن يكون الله موجودًا والإيمان به معقولٌ، أما إذا لم يكن شىء من هذه الفكرة وهم خادع وخيبة مرة، والأخذ بها وقوع فى دور لعل كتب المنطق لم تذكر أبدع منه، إذ إنها تريدنا أن نعتقد بالله لأن هذا الاعتقاد مفيد، والفائدة المرجوة منه لا تتحقق إلا بوجود الله».

ويقول الدكتور محمد سعيد رمضان البوطى عن ذلك: «حسبك لكى تعتقد بأمر ما اعتقادًا جازمًا، أن تتجه منك الإرادة إلى ذلك وأن تشعر بمجرد الحاجة إليه فسوف لن تعجز إرادتك أو حاجتك إذ ذاك عن أن تستخرج لك الدليل تلو الآخر على ما تفضل الاعتقاد به.. إنهم يكونون نسيج العقيدة الدينية فى أفكارهم من خيوط المصالح الدنيوية التى ينزعون إليها فى معيشتهم وحياتهم».

ويقول بعض النقاد الغربيين: «إن الله لن يكون شيئًا على الإطلاق إذ لم يكن ذلك المبدأ الأسمى الذى نستند إلى ونعتمد عليه أما إذا تصورنا الله على أنه من خلقنا، فلن تكون له أية أهمية عملية على الإطلاق لأنه عندئذ لن يكون تحيحًا بقدر ما يجىء نافعًا ومفيدًا، فإن الاعتقاد الذى نتخيره بحسب هوانا المطلق وإرادتنا المتعسفة لن يكون من الاعتقاد فى شىء»[٣٦].

---

(٣٥) يوسف كرم: تاريخ الفلسفة الحديثة.

(٣٦) دراسات فى الفلسفة المعاصرة.

ويقول برتراند رسل: «إن جيمس يريد أن يستعيض بالإيمان[٣٧] بالله عن الله ويزعم أن هذا سيجعل كل شىء على ما يرام. ولكن هذا لا يعدو كونه شكلا من أشكال جنون النزعة الذاتية، الذى هو الطابع المميز لمعظم الفلسفة الحديثة».

بواعث وأهداف الفلسفة البراجماتية:

إن هذه الفلسفة لم تلق قبولا يذكر على المستوى الفلسفى بل وكانت هدفًا سهلا لانتقاد النقاد بل إن البراجماتية نفسها من أكثر الكلمات التى تقابل بالامتعاض فى الأوساط الفكرية حتى إن الكثير من الكُتَّاب والمثقفين قد يستخدمونها كبديل أكثر تطورًا من كلمة انتهازية ولكنها بالرغم من ذلك قد لاقت رواجًا كبيرًا فى الممارسات العملية بل وحتى بين الكثيرين ممن يمتعضون منها والخطير فى تلك الفلسفة ليس مدى صحتها أو خطئها فلسفيًا وإنما الخطير حقًا هذا الانتشار السريع لمفاهيمها وأساليبها النفعية والآثار المدمرة التى تنتج عن ذلك. إن مناقشة هذه الآثار وخصوصًا ما فعلته فى مجتمعنا - هى الهدف الأساسى من كتابة هذا الكتاب.

فالفلسفة البراجماتية إفراز طبيعى لمجتمع أمريكى متصارع لا هم له إلا جمع الثروات والأموال والحصول على أكبر قدر من المنافع المادية الأخرى وفى قول دقيق هى فلسفة ما هو قائم بالفعل فى المجتمع الأمريكى.

وكما يقول بعض النقاد الغربيين عن البراجماتية: «فلئن كانت هذه الفلسفة تزعم لنفسها أنها تستند إلى الواقع فإنها فى الحقيقة إنما تخلق لنفسها من الكون صورة مطابقة لحاجاتها وميولها».

وأصدق ما قاله وليم جيمس نفسه عن البراجماتية هو أنها «اسم جديد لبعض طرائق قديمة فى التفكير»، فالموقف العبثى من الوجود والبحث عمًّا هو نافع وعدم الاهتمام إلا بكل ما هو واقع ملموس والحرص والاستغلال والحصول على أكبر قدر من المنافع - ولو كان ذلك على حساب الآخرين - الانتهازية والتبريرية والنفاق والاهتمام بالوسائل دون الغايات والتكهن بالدين للحصول على منافع شخصية كل ذلك مفاهيم قديمة فى فكر البشر ولكن الجديد فى هذه الفلسفة هو جمع هذه المفاهيم والتنسيق بينها فى قواعد وقوانين سهلة التعلم والتطبيق وصبغها بصبغة عقلية بل وتطويرها

---

(٣٧) يقصد رسل بالإيمان هنا: «مجرد الاعتقاد من غير اقتناع».

والدخول بها إلى مجالات جديدة مع التوجيه والإرشاد والدعوة إلى كل ذلك فى حماس شديد وأسلوب أخاذ.

والأهم من ذلك كله هو القيام بالتبرير الفلسفى لكل هذه المفاهيم وإبرازها فى ثوب الحق والأخلاق والدين والفضيلة وهذا أخطر ما فى الموضوع كله.

* وخلاصة التعاليم الحقيقية التى يحاول جيمس أن يوجهنا إليها هى لا جدوى من البحث عن حقيقة الكون لأننا لن نصل إلى أى نتيجة مرضية وليس أمامنا سوى العبث «باطل البطلان الكل باطل: الجملة الأولى من سفر الجامعة فى العهد القديم».

* على كل منا أن يبحث عما ينفعه ويعتقد أن ذلك هو الحق الوحيد فى عالم يخلو من الحقائق.

* ليس مهمًا أن نهتم بما يصيب الآخرين من جراء سلوكنا النفعى بل علينا أن نعتقد أن ما ينفعنا هو ما ينفع الجميع ولهذا فهو الحق الوحيد.

* علينا دائمًا أن نكون فى حركة نشاط دءوب فى عمل ما ينفعنا وما يمتعنا وما يلهينا عن هذا الكون المفزع وعن الموت المترتصد لنا الذى سيأكل الجميع.

* ليس مهمًا الأقوال أو المظاهر بالنسبة لنا ولكن علينا فقط أن نفعل ما يمتعنا وأن نستغل هذه الأقوال والمظاهر فى خداع الآخرين وجعلها الأساس الذى يعاملوننا عليه.

* علينا أن نبحث عن المبررات المنطقية المناسبة لكل فعل نفعله مهما كانت درجة وضوح شره فليس مهمًا أن تكون هذه المبررات قادرة على إقناعنا أو حتى إقناع الآخرين ولكن المهم أن تكون قادرة على تمرير أفعالنا دون معارضة حازمة منهم بتلهيتهم فى مناقشة تلك المبررات دون الوصول إلى حل.

* للدين بريقه العجيب الذى يجبر الجميع على احترامه سواء أكانوا ممن يعتقدون فيه أو ممن ينكرونه ولذلك فإن التكهن به سيجلب لنا أكبر المنافع.

* وعلينا أن نستغل الدين نفسه، فنعتقد فى أى دين له إله بحيث لا يلزماننا بشىء ولكن يعملان على إمدادنا بالراحة والسكينة والسلام الذى تحتاجه النفوس الإجحامية لكى يساعدها ذلك على مواصلة نشاطها باستمرار.

* الابتعاد عن التفكير فى الماضى بتثبيت الأوضاع المكتسبة على ما هى عليه وصرف الأنظار عن الحقوق التى اغتصبت.

* تسطيح كل الأفكار والمفاهيم والمعانى وتجريدها من محتواها حتى لا تجد الأفكار

البراجماتية ما يقاومها من أفكار أخرى.وبعد فماذا من الممكن أن ننتظر من قوم ألحدوا بالله وأرادوا أن يضعوا أنفسهم مكانه؟!

وهل من الممكن لكل ملذات العالم أن تشفى هذا الصدع الذى أحدثه الإلحاد فى النفوس؟!

يقول الإمام ابن القيم[٣٨] رحمه الله:

«فى القلب شعث لا يلمه إلا الإقبال على الله.

وفيه وحشة لا يزيلها إلا الأنس بالله.

وفيه حزن لا يذهبه إلا السرور بمعرفته، وتدق معاملته.

وفيه قلق لا يسكته إلا الاجتماع عليه، والفرار إليه.

وفيه نيران حسرات لا يطفئها إلا الرضى بأمره ونهيه وقضائه، ومعانقة الصبر على ذلك إلى وقت لقائه.

وفيه فاقة لا يسدها إلا محبته والإنابة إليه. ودوام ذكره، وتدق الإخلاص له، ولو أعطى الدنيا وما فيها لم تسد تلك الفاقة أبدًا».

ويقول الشاعر الفيلسوف محمد إقبال:

إذا الإيمان ضاع فلا أمان ... ولا دنيا لمن لم يُحْىِ دينا

ومن رضى الحياة بغير دين ... فقد جعل الفناء لها قرينا

(٣٨) «مدارج السالكين»: نقلا عن د. يوسف القرضاوى فى «الخصائص العامة للإسلام».

الباب الثالث

القيم الإسلامية والقيم البراجماتية

«هذه البشرية تخطئ أشنع الخطأ وتعرّض رصيدها من القيم الإنسانية للضياع، إذا هي جعلت المثل الأمريكية مُثُلها في الشعور والسلوك»

الشهيد سيد قطب

القيم الإسلامية والقيم البراجماتية

هناك سؤال محورى يطرح نفسه دائمًا: ما هو الهدف الذى يسعى وراءه الإنسان؟ هل هو البحث عن الحقيقة؟ أم البحث عن السعادة؟ أم البحث عن اللذة؟

فى الوعى الإسلامى لم يكن هناك أى انفصام بين مفهوم البحث عن الحقيقة ومفهوم البحث عن السعادة، ولكن الغرب بعد أن أفرز أطروحاته الراسخة فى روحه الحضارية حاول أن يفرضها على جميع الشعوب التى وقعت تحت سيطرته ومن هنا انتقل إلينا ذلك الانفصام بين المفهومين وانتقل معه انحسار وضيق فى مفهوم السعادة حتى آل إلى مفهوم اللذة وحتى هذا المفهوم الأخير فقد جردوه من أى معنى آخر غير المعنى المادى وبذلك آل الهدف الذى يسعى إليه الإنسان فى المفهوم الغربى إلى مجرد البحث عن اللذة المادية لا غير.

إن هذه المفاهيم قديمة قدم الحضارة الغربية نفسها ولمَّا جاءت الفلسفة البراجماتية وأدت دورها الخطير فى تطوير وتنسيق وتسويغ هذه المفاهيم القديمة. لقد كان أبيقور يرى «أن غاية الأخلاق هى السعادة الذاتية فليست الفضيلة فضيلة إلا لأنها تجلب لذة، وليست الرذيلة رذيلة إلا لأنها تحدث ألمًا ولا قيمة لأى عمل فى نفسه إلا بنسبته إلى اللذائذ والآلام» وكان يحدد مهمة الأخلاق بتعليم بنى البشر فن الحصول على اللذة واجتناب الألم كل بحسب تحديده لهذه اللذة وهذا الألم وحسب إمكاناته وقدرته فى الحصول على ذلك حيث كان ينصح «أبيقور» بتنظيم الرغبات بحسب القدرات. ثم جاء وليم جيمس فكان أكثر عبثًا ودهاء فدعا مريديه إلى كل ما ينفعهم ويمتعهم دون مبالاة لموقف الآخرين لهذه المنفعة أو المتعة ولكنه عرض هذه المفاهيم فى ثوب أمريكى زاهٍ وأنيق من التبرير والجدل الفلسفى والدعوة إلى الإقبال على الحياة والمستقبل السعيد للإنسان.

بينما نحن المتعطشين إلى الحقيقة لا نهنأ بسعادة مهما توافرت أسبابها المادية قبل أن ندرك الحقيقة التى نسعى إليها فى شوق ولهفة فإذا أدركناها وظفرنا بها كانت هى سعادتنا وراحتنا وأساس وجودنا فى هذا العالم.

إنها الحقيقة التى من أجلها حاور إبراهيم عليه السلام نفسه وقومه والشمس والقمر والكواكب والنجوم ولم يهنأ براحة - بالرغم من توافر المتع حوله - إلا بعد أن هداه الله إليها فكانت راحته وسعادته التى من أجلها غشى النار التى أضرمت له بقلب مطمئن.

ويعتزل رسولنا الكريم ﷺ العالم من حوله ليتعبد فى غار حراء ويتفكر فى ملكوت الله حتى إذا ما أنعم الله عليه برسالة واجه طواغيت الأرض جميعًا وجاهد ثائرًا وصابرًا ثلاثة وعشرين عامًا حتى بلغ رسالة ربه وقدم للناس الحقيقة والسعادة معًا.

وسلمان الفارسى الذى ظل سائحًا فى الأرض يبتغى الحقيقة فلما أدركها ظل عمره يجاهد فى سبيل الله من أجل أن يعم الخير على الدنيا جميعًا.

فلم يحدث أبدًا فى الوعى الإسلامى ذلك الانفصام والتفريق بين الحقيقة والسعادة فالهدف الذى يسعى وراءه الإنسان فى الإسلام هو الحقيقة السعادة أو السعادة الحقيقة.

فنحن نبحث عن السعادة فى سعينا من أجل إدراك الحقيقة التى نعشقها ونقدم أرواحنا فى سبيلها فإذا تمت سعادتنا وأدركنا هذه الحقيقة الحبيبة استطعنا أن نعى ماهية السعادة الحقيقة التى ينبغى للإنسان أن يحياها.

لقد جاء الإسلام ليعلم الإنسان ما هى سعادته فى دنياه وما هى سعادته فى أخراه وما هو الوهم الذى يحياه الناس وهم يعتقدون أنه سعادتهم المنشودة.

إن مفهوم السعادة فى الإسلام يتسع لتلبية الإنسان لحاجته وغرائزه الطبيعية فى غير مبالغة،ولا سرف يؤذيه ويعتدى على سعادة غيره من البشر ويتسع أيضًا لتآلف الإنسان مع الناس والمجتمع وانسجامه مع الكون كله ويبلغ مداه فى تحقيق طاعته وبلوغ رضاه.

وأنَّى للغربى أو البراجماتى الذى لا يفهم السعادة إلا بمعناه النفعى المادى الضيق أنى له أن يفهم هذا الكلام حيث لا يرى «السعادة اللذة» إلا فى قضاء وطره مع امرأة يشتهيها أو ملء جوفه من طعام يحبه أو تحقيق حد أعلى من الأرباح العائدة عليه أو إرضاء رغبة أنانية فى التميز أو التحكم والسيطرة أو غير ذلك من اللذات الأخرى.

لقد جعلت المفاهيم البراجماتية من المنافع والملذات المعايير القيمية للمجتمع التى تقاس عليها باقى القيم الأخرى. أى أن الشىء الذى ينظر إليه بازدراء شديد من وجهة نظر الإسلام صار هو القاعدة الأساسية للقيم ذاتها لدى البراجماتيين ولذلك فإن

المسلم الحقيقى والإنسان البراجماتى يسيران فى خطين متعاكسين تمامًا حيث لا يمكن أن يلتقيا أبدًا.

ومن المنظور البراجماتى يُقدر الإنسان ويشكل قيمته الاجتماعية ثروته وقدراته المادية بل وهيئته ومظهره أيضًا، فالمظاهر المادية صارت أسلوبًا فجًا للكشف والتعبير عن مدى ما يمتلكه الشخص من قدرات وثروة، ولعل هذا ما يفسر ذلك التهافت الغبى وراء المظاهر والشكليات عند الذين يملكون فى مجتمعنا. إنه العصر الذى تتدفق فيه أفخم السيارات العالمية على مجتمع يعانى الغالبية فيه من الجوع والحرمان وتشيد فيه البنايات الشبيهة بالقصور بينما الملايين تكاد تشق الأرض بحثًا عن مأوى إنه العصر الذى يحرص الناس فيه على ارتداء أفخم الثياب ولو على حساب أشد احتياجاتهم ضرورة سعيًا منهم للتظاهر بمظهر الأغنياء أو دفعًا لوصمة فقر قد تتعلق بهم حيث صار عار الفقر أشد من عار العرض كما جاء على لسان أحد أبطال فيلم مصرى فالحقيقة أن الحصول على الأشياء الترفيه لم يعد القصد منه التمتع بها فى الأصل بقدر ما يقصد منه ابتغاء المفاخرة والتعالى على الخلق والتعبير عن مدى ما يمتلك هؤلاء الأشخاص من ثروة، ومن ثم صار تعبيرًا عن مدى ارتفاع قيمتهم الاجتماعية.

إنها مصيبة كبرى أن تكون قيمة الإنسان فيما يملك ثم يؤول هذا الأمر إلى أن تكون قيمته فيما يرتديه أو فيما يبدده من أموال، ولا يستطيع أحد مهما حاول أن ينفى - أو يقلل من - مدى ما أصيب به الشعب المصرى من حمى المظهرية بعد الغزو البراجماتى للمجتمع فى أواسط السبعينيات.

فأين هذه المفاهيم الساذجة المتدنية التى يريدون أن يجعلوا منها الأساس القيمى للإنسان من المفاهيم الإسلامية السامية التى يقيم الإنسان على أساسها.

يقول تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ...﴾.

ويقول الرسول ﷺ: «من لبس ثوب شهرة فى الدنيا ألبسه الله ثوب مذلَّة يوم القيامة».

ويقول الشيخ محمد الغزالى: «والحق أن المفتونين والمفتونات من الرجال والنساء لما قلت حظوظهم من آداب النفس ظنوا المغالاة فى اللباس تستر نقصهم وهيهات».

لقد قرر الإسلام بكل حسم - منذ أربعة عشر قرنًا - أن المعيار الوحيد للتفاضل بين الناس هو التقوى، وما أسمى هذا المعيار بل وما أكثره واقعية.

يقول تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾.

ويقول الرسول ﷺ: «خير الناس أنفعهم للناس» ويقول أيضًا: «إن الله لا ينظر إلى صوركم وإنما ينظر إلى قلوبكم» ويقول: «إن أحسن الناس إسلامًا أحسنهم خلقًا» وللشاعر الفارسى سعدى الشيرازى قصيدة بديعة فى التعبير عن ذلك، تقول القصيدة:

إنما يشرف جسم الإنسان بروح الإنسان

ليس اللباس الجميل هو أمارة الإنسانية

لو أن الإنسان بعينه وفمه وأذنيه وأنفه

فبأي شيء يفترق إذن عن نقش مرسوم علي جدار.

الطعام والنوم والغضب والهوى فتنة وجهل وظلمة.

وليس لدى الحيوان من خبر بعالم الإنسانية.

كن إنسانًا حقيقة، وإلا فأنت ببغاء.

تعيد كلامًا بلسان إنسان.

إن لم تكن إنسانًا فأنت أسير لشيطان.

على حين لا يجد الملك سبيلا إلى الظفر بالمكانة الإنسانية.

لو أن طبيعتك الوحشية فنيت من جبلتك.

لعشت طول عمرك بروح إنسانية.

يصل الإنسان إلى حيث لا يرى سوى الله.

فانظر إلى أى حد تبلغ بك ويكافة الإنسانية.

قد رأيت الطائر يطير سعيدًا.

فتحرر من قيد الهوى حتى ترى كيف تصعد بك الإنسانية.

ولأن القيم الإسلامية هى قيم تحد وصراع مع قيم الشر التى يستند إليها طواغيت العالم فإن التمسك بها يرتكز فى الأساس على مدى قوة الإيمان الراسخة فى نفس المؤمن، فالقوة هى الأساس فى حسم أى صراع بين البشر.

ولكن ما هو مفهوم القوة عند الغرب وعند البراجماتيين على وجه الخصوص؟ وما هو مفهوم القوة الإسلامية؟

لقد كان نيتشه يعبر بحق عن المفهوم الغربى للقوة عندما كان يصرخ بأعلى صوته: «إن الأخلاق ليست إلا اختراع الضعفاء لكى يقيدوا بها سلطان الأقوياء؟ فلنكن حريًا

على الأخلاق.. ولنتخط فى نظرتنا إلى الأشياء، ذلك الخير وذلك الشر.. يجب أن يكون لنا من الجسارة ما نحيا به حياة حرة سافرة وفى وضح النهار. وإذا ما اقتضى ذلك أن نسير فوق طريق من الجماجم فعلينا أن نسحقها بأقدامنا، دون أن يتحرك ضميرنا بملام.

يجب أن تكون لنا «قلوب قاسية» يجب أن نرسل صرخة الحرب دون وجل أو ندم فى وجه مصطلحات العالم، ومصطلحات أخلاق القطيع. يجب أن نرسلها من النشوة بخمرة النصر وحمَّى الكبرياء... وعلى هذه المبادئ لن تكون القوانين الأخلاقية إلا مبتدعات جديرة بالازدراء هى وأصحابها الذين وضعوها.. ولن تكون المعاهدات الدولية أكثر من «قصاصات أوراق» إن الإرادة الوحيدة الصحيحة إنما هى «إرادة القوة» وإن الحق الحقيقى إنما هو الذى يعلو ولا يُعلى عليه. إن القوة هى كل شىء وهى وحدها التى تقرر الحق».

ولكن نيتشه لم يستطع أن يقدم المبررات التى تبيح له حرية السير فوق الجماجم كما كان يريد، وهذا ما برع جيمس فى تقديمه، فحيث إن المنافع والمصالح هى المعيار الوحيد للحقائق، وحيث إنه من المستحيل أن يكون هناك معيار لذلك.. «بحسب ما تقتضيه فلسفته» غير التقدير الذاتى للأشخاص، إذن فقد آل الأمر إلى أن السعى من أجل تحقيق المصالح الشخصية هو الحق الوحيد فى هذا العالم.

ولا يكون بذلك أى معنى للاتهام بأشياء كالأنانية والقسوة لم تستند على أى أسس منطقية تسيغ لها وجودها أو تعرف لها معناها بمعنى آخر لقد صار تحقيق المصالح الأنانية هو الحق المنشود الذى يجب تحقيقه ولا يصبح بذلك أى معنى لأن نتهم أو نصف عملية تحقيق الحق بالأنانية والقسوة.

أى أن جيمس بدهاء شديد قد استطاع أن يقدم المبررات الفلسفية للأنانية والقسوة والسير فوق الجماجم وأن ينكر وجود الأسس الموضوعية التى تقوم عليها قيم الخير فى العالم.

نعم: إنها حقًا الفلسفة التى يمكن أن يقدمها لنا فلاسفة الكاوبوى «رعاة البقر» والتى تتفق فى الأساس مع الواقع الأمريكى الذى انبعثت منه.

وخير وأجدى من الجدل الفلسفى حول صحة ما أقول أن ننظر إلى الواقع العملى لهذه الأفكار وهو ما يعبر عنه البعض بمحاكمة جيمس بالمنطق البراجماتى نفسه.

انظروا إلى الصـراع الذى لا يهـدأ فى المجـتـمع الأمـريكى والذى لا يقـوم إلا على تحقيق المصالح الشخصية بكل أنانية وقسـوة ودون اعتبار لأى أمر آخر. يقـول الشهيد سيد قطب فى إحدى مقالاته التى كتبها عن انطبـاعاته الخاصة عن المجتمع الأمريكى:

«إن الحيوية المادية عند الأمريكى مقدسة، والضعف أيًا كانت أسبابه جريمة.. جريمة لا يغتفرها شىء ولا يستحق عطفًا ولا عونًا.. وحكاية المبادئ والحقوق خرافة فى ضمير الأمـريكى لا يتذوق لها طعمًا. كن قويًا ولك كل شىء. أو كن ضعيفًا فلا يسعفك مبدأ ولا يكون لك مكان فى مجال الحياة الفسيح».

انظروا إلى الحكومة الأمريكية وإلى الطريقة التى تعامل بها شعبها وما تنطوى عليه من غش وخداع وتضليل وقد سبق أن أشـرنا إلى ذلك فيما نقلناه من كتاب هربرت أ. شيلر «المتلاعبون بالعقول».

أما الكيفية التى تعامل بها هذه الحكومة الشعوب الأخرى فلا تحتاج إلى شواهد. بل انظروا إلى مجتمعنا نحن وما حدث فيه من آثار مدمرة بعد غزو القيم الأمريكية لنا.

لقـد ترسخ فى الأذهان أن المنافع والمصـالح المادية هـى الأحـلام والغـايات الوحـيـدة للبشر، ومن ثم معيار القوة قد صار يعنى مدى القدرة على تحقيق هذه المصالح والمنافع ولأن ذلك يرتبط بدوره بمدى قدرة الإنسان على انتهاج الأساليب البراجماتية الانتهازية إذن فقد آل الأمر إلى ارتباط مفهوم القوة بمدى قدرة الشخص على انتهاج الأسـاليب البراجماتية، تلك القدرة التى تقتضى أن يكون الإنسان انانيًا وانتهازيًا وقاسيًا.

وعلى هذا فلم يعد غريبًا أن تصير الأنانية والانتهازية والقسوة صفات ترجى لذاتها ويجتهد الناس فى توطين انفسهم عليها لأن هذه الصفـات صارت من مظاهر المقومات الأساسية للقوة التى ارتبطت بالقدرة على انتهاج الأساليب البراجماتية.

وهـذا المفهوم اللاإنسانى للقوة لا يعنى فقط تسويغ السير على جماجم الضعفاء، لأن الأنانيـة والانتهازية والقسوة لن تجد كسـاء أليق بهـا من العـجـرفة والكبر والتعـالى على الخلق، ولهذا فقـد صارت هذه الصفات أيضًا غايات منشودة من أجل التعبير عن قوة تقوم على معايير قيمية اجتماعية مزيفة أو لاصطناعها وادعائها على الأقل.

ولأن البراجماتى شخصية مرنة وزئبقية فهو على استعداد تام لأن يكون أكثر الناس تواضعًا لو كان فى ذلك تحقيق لمصلحة يرجوها، بل إن المصلحة لو اقتضت عليه أن يحقر من نفسه لفعل ذلك دون أى غضاضة أو حرج.

فى الحقيقة لقد استطاع الشيطان بترويجه للمفاهيم البراجماتية أن يزرع فى قلوب الناس أسوأ شرور العالم وها نحن نحصد الحصاد.

لقد تساقطت مساحات كبيرة من وعى الناس وانصهرت قيم كانت راسخة فى ضمائرهم أو سطحت تمامًا واستطاعت القيم البراجماتية الأمريكية أن تسطو على العقول والقلوب وتسيطر عليها تمامًا.

وإذا كانت القوة فى المفهوم الغربى والبراجماتى على وجه الخصوص ترتبط بمدى القدرة على تحقيق المنافع المادية الزائلة فإن القوة فى الإسلام ترتبط بمدى قدرة الإنسانية على الاستغناء عن كل ما هو زائل وفان من أجل ما هو خالد وباق وكما يقول الشيخ محمد الغزالى فإن «الإنسان الذى يعيش فى الحقيقة لا يتاجر بالأباطيل».

ومن هذا المنطلق فإن المؤمن القوى يستصغر فى قلبه جبابرة الخلق وطواغيت العالم وتتضاءل أمام عينيه كل إغراءات العالم حتى لا تكاد أن تكون شيئًا.

هذه هى القوة التى كان يرهب بها خالد بن الوليد أعداء الإسلام ويزلزل الأرض تحت أقدامهم عندما كان يقول لهم: لقد جئتكم بقوم يحبون الموت كما تحبون أنتم الحياة والخمر.

ولكن ما هى الوسيلة إلى اكتساب هذه القوة؟

يجيب الرسول ﷺ عن ذلك فيقول: «من أحب أن يكون أقوى الناس فليتوكل على الله».

يقول تعالى: ﴿ الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ﴾.

وعندما كان يربى الرسول ﷺ ابن عمه «عبدالله بن عباس» على القوة كان يرسى فى قلبه أوتاد الإيمان التى لا تهتز فيقول له: «يا غلام، إنى أعلمك كلمات: احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك إذا سألت فاسأل الله وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشىء لم ينفعوك إلا بشىء قد كتبه الله لك، وإن اجتمعوا على أن يضروك بشىء لم يضروك إلا بشىء قد كتبه الله عليك، رفعت الأقلام وجفت الصحف».

يقول الشيخ محمد الغزالى: «والحق أن فضيلة القوة ترتكز فى نفس المسلم على عقيدة التوحيد كغيرها من الفضائل التى تجعله يرفض الهوان فى الأرض لأنه رفيع القدر بانتسابه إلى السماء».

انظروا إلى قوة الإمام أبى حنيفة المستمدة من رسوخ الإيمان والتوكل على الله والاستعلاء على إغراءات الدنيا ومباهجها؛ لقد حدث فى عهد الدولة الأموية لما قويت الدعوة العباسية وأحس الأمويون بالخطر على دولتهم حاولوا أن يسندوا الدولة بكبار العلماء ليجعلوا لها سندًا شعبيًا فبعث عامل بنى أمية، ابن هبيرة بأمر الخليفة إلى أئمة فقهاء العراق، ابن أبى ليلى وابن شبرمة وداود بن هند، فولى كل واحد منهم عملا من أعمال الدولة. ثم بعث إلى أبى حنيفة وعرض عليه منصب صاحب الختم، وهو من أعظم مناصب الدولة فلا يتم أمر فى الدولة إلا بإذنه ولا يصرف مال إلا بأمره فرفض أبو حنيفة فحلف ابن هبيرة فأصر أبو حنيفة على الرفض فأقسم ابن هبيرة ليضربنه إن لم يقبل فأصر على موقفه فأخذ الفقهاء يلحون عليه أن يقبل ويقولون له إننا نناشدك الله ألا تملك نفسك إنا إخوانك وكلنا كاره لهذا الأمر ولم يجد بدًا من القبول فقال لهم أبو حنيفة لو أرادنى أن أعد له أبواب المسجد لم أقبل.. فكيف وهو يريد منى أن أكون مسئولا عن سفك دماء الناس وإنفاق أموالهم بالباطل؟! والله لا أدخل فى ذلك أبدًا. وتعرض أبو حنيفة للسجن والتعذيب ولم يقبل أن يلى عملا فى دولة بنى أمية. وهو أيضًا الذى رفض أن يتولى منصب رئيس قضاة الدولة فى عهد الدولة العباسية وعندما لجأ الخليفة المنصور إلى سلاح التهديد قال له الإمام أبو حنيفة: لو هددتنى أن تغرقنى فى الفرات أو إلى الحكم لاخترت أن أغرق.

فأيهما الأقوى هل الحاكم الظالم؟ أم الإمام الذى تهون عليه التضحية بنفسه على أن يشاركه فى ظلمه؟

وأيهما الأعز هل الحاكم الذى يسفك الدماء؟ أم الإمام الذى يسجن ويضرب ويهان لأنه لا يقبل حتى أن يعد له أبواب المسجد؟ لو عرضنا الأمر على أحد البراجماتيين ليحكم فيه لعَدَّ الإمام أبا حنيفة مجرد حالة عقلية مريضة.

فالقوة المنبعثة من الأنانية والتشبث بكل تفاهات الحياة لدى البراجماتيين تقابلها فى الإسلام القوة المنبعثة من الإيثار والقدرة على التضحية بالحياة ذاتها. فى موقعة اليرموك استشهد عكرمة بن أبى جهل وسهيل بن عمرو والحارث بن هشام وجماعة من بنى المغيرة وأتوا بماء وهم صرعى فتدافعوه حتى ماتوا ولم يذوقوه. أتى عكرمة الماء فنظر إلى سهيل بن عمرو ينظر إليه فقال: ابدأ بهذا ونظر سهيل إلى الحارث ينظر إليه قال: ابدأ بهذا وكل منهم يؤثر الآخر على نفسه بالشربة فماتوا كلهم قبل أن يشربوا فمر خالد بن الوليد فقال: بنفسى أنتم!!

وإذا كان من مظاهر القوة البراجماتية القسوة والظلم والكبر والتعالى والتكالب على الماديات، فإن مظاهر القوة فى الإسلام هى التواضع والحلم والعفو واللين والرحمة والعدل والقصد والعفاف والصبر على شدائد الدهر.

يقول رب العزة عن نفسه فى القرآن الكريم: ﴿إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ﴾ ويقول جل وعلا: ﴿وَلا تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولاً﴾ ويقول الرسول ﷺ: «يحشر الجبارون والمتكبرون يوم القيامة فى صورة الذر يطؤهم الناس لهوانهم على الله» وبكل حسم يبلغنا ﷺ أنه «لا يدخل الجنة من كان فى قلبه مثقال ذرة من كبر».

ويعرف الكِبر فيقول: «الكِبر بطر الحق «أى دفعه» وغمط الناس» «أى احتقارهم» ويروى أنس رضي الله عنه: «أن الأمة من أهل المدينة كانت لتأخذ بيد الرسول ﷺ فتنطلق به فى حاجاتها».

ويقول الإمام على رضي الله عنه: «إذا أردت أن تنظر إلى رجل من أهل النار فانظر إلى رجل جالس وحوله قوم قيام».

ويقول الرسول ﷺ: «ليس القوى بالصرعة وإنما القوى هو من يملك نفسه عند الغضب».

ودخل الخليفة عمر بن عبدالعزيز المسجد ليلة فى الظلمة فمر برجل نائم فعثر به فرفع رأسه وقال: أمجنون أنت؟ فقال عمر: لا، فهم به الحرس، فقال عمر: مه، إنما سألنى أمجنون؟ فقلت: لا.

وجاء غلام لأبى ذر وقد كسر رجل شاة له فقال له: من كسر رجل هذه؟ قال: أنا فعلته عمدًا لأغيظك فتضربنى فتأثم. فقال: لأغيظن من حرضك على غيظى. فأعتقه.

يقول تعالى: ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الأُمُورِ﴾.

ويقول الرسول ﷺ: «إن الله رفيق يحب الرفق ويعطى عليه ما لا يعطى على العنف».

وحدث بعد انتهاء معارك الردة وتولية عمر بن الخطاب رضي الله عنه خلافة المسلمين إسلام أبى مريم قاتل زيد بن الخطاب ورآه عمر فى المدينة فقال له: إنى لا أحبك. فقال أبو مريم: أتمنعنى حقًا يا أمير المؤمنين. قال عمر: لا. قال أبو مريم: «لا ضير إنما يأسى على الحب النساء».

وجد على بن أبى طالب درعه عند رجل نصرانى فجاء به إلى شريح القاضى فسأل شريح النصرانى: ما تقول فيما يقول أمير المؤمنين؟

قال النصرانى: ما الدرع إلا درعى، وما أمير المؤمنين عندى بكاذب. فالتفت شريح إلى على يسأله: يا أمير المؤمنين، هل من بينة «شهود»؟ فضحك على وقال: أصاب شريح، ما لى بينة.. فقضى شريح للنصرانى بالدرع فأخذها ومشى، إلا أنه لم يخط خطوات حتى عاد يقول: أما أنا فأشهد أن هذه أحكام أنبياء،... أمير المؤمنين يديننى إلى قاضيه فيقضى عليه.. أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدًا رسول الله والدرع درعك يا أمير المؤمنين، اتبعت الجيش، وأنت منطلق من صفين فخرجتها من بعيرك الأورق.

فقال على أما إذ أسلمت فهى لك.

ويقول الرسول ﷺ عن التكالب على أنعم الدنيا: «إياكم والتنعم فإن عباد الله ليسوا بالمتنعمين».

وتتجلى قوة المسلم الحقيقية أشد التجلى فى الصبر على شدائد الدهر، يقول تعالى على لسان لقمان الحكيم: ﴿ وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴾.

ويسأل الرسول ﷺ أى الناس أشد بلاء؟ فيقول: «الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل، يبتلى الناس على قدر دينهم، فمن ثخن دينه اشتد بلاؤه، ومن ضعف دينه ضعف بلاؤه، وإن الرجل ليصيبه البلاء حتى يمشى على الأرض ما عليه خطيئه».

ولكن هناك نوعًا آخر من القوة قد لا نجد له نظيرًا، إنه القوة على التحكم فى رغبات النفس الشديدة الإلحاح حتى ولو ملك الإنسان القدرة على تلبيتها.

وما أقرأ هذه القصة - والتى لا أكاد أجد لها نظيرًا - إلا وأرتعد، يقول ابن القيم: وهذا عمر بن عبدالعزيز وعشقه مشهور لجارية فاطمة بنت عبدالملك وكانت جارية بارعة الجمال. كان معجبًا بها وكان يطلبها من امرأته ويحرص على أن تهبها له فتأبى، ولم تزل الجارية فى نفس عمر، فلما استخلف أمرت فاطمة بالجارية فأصلحت وكانت مثلا فى حسنها وجمالها. ثم دخلت على عمر وقالت: يا أمير المؤمنين إنك كنت معجبًا بجاريتى فلانة، وسألتها فأبيت عليك والآن فقد طابت نفسى لك بها فلما قالت له ذلك استبان الفرح فى وجهه وقال عجلى علىّ بها، فلما دخلت بها عليه ازداد بها عجبًا وقال لها ألقى ثيابك ففعلت، ثم قال لها على رسلك أخبرينى لمن كنت؟ ومن أين صرت لفاطمة؟ فقالت: أغرم الحجاج عاملا له بالكوفة مالا، وكنت فى رقيق ذلك العامل، فأخذنى وبعث بى إلى عبدالملك فوهبنى لفاطمة، قال: وما فعل ذلك العامل؟ قالت:

هلك، قال وهل ترك ولداً؟ قالت: نعم. قال: فما حالهم؟ قالت: سيئة. فقال ردى عليك ثيابك واذهبى إلى مكانك، ثم كتب إلى عامله بالعراق: أن أبعث إلىّ فلان بن فلان على البريد. فلما قدم قال له: ارفع إلىّ جميع ما أغرمه الحجاج لأبيك. فلم يرفع إليه شيئاً إلا دفعه إليه، ثم أمر بالجارية فدفعت إليه ثم قال له: إياك وإياها، فلعل إياك قد ألم بها. فقال الغلام: هى لك يا أمير المؤمنين قال لا حاجة لى بها، قال: فابتعها منى، قال: لست إذن ممن نهى النفس عن الهوى فلما عزم الفتى على الانصراف بها قالت: أين وجدك بى يا أمير المؤمنين؟ قال على حاله، ولقد زاد».

هذه هى من يحب ويشتد وجده بها تقف أمامه بكل فتنتها الداخلية والخارجية وهى رهن إشارته بعد طول شوق ولهفة، وها هو يعرض عنها ويزهد فيها رفعة بنفسه عن رغائب الدنيا.

فإذا كانت قوة البراجماتى فى تحقيقه أكبر قدر من رغبات النفس مهما كانت تفاهتها، فإن قوة المسلم فى قدرته على التحكم فى رغبات نفسه مهما كان ثقل إلحاحها عليه وقدرته على تلبيتها. فى الحقيقة فإنه إذا كانت قوة البراجماتى فى القدرة على تحقيق المنافع المادية الزائلة فإن قوة المسلم فى قدرته على الاستغناء والترفع عليها.

وإذا كانت قوة البراجماتى فى الأنانية، فإن قوة المسلم فى الإيثار.

وإذا كانت قوة البراجماتى فى القسوة، فإن قوة المسلم فى الرحمة.

وإذا كانت قوة البراجماتى فى الظلم، فإن قوة المسلم فى العدل.

وإذا كانت قوة البراجماتى فى الكبر والتعالى على الخلق، فإن قوة المسلم فى التواضع لهم.

وإذا كانت قوة البراجماتى فى هيئته ومظهره «البريستيج»، فإن قوة المسلم فى عمله ومخبره.

وإذا كانت قوة البراجماتى فى القدرة على مسايرة الأمر الواقع واستغلاله، فإن قوة المسلم فى القدرة على الصبر عليه.

وهكذا يتدرج بنا الكلام إلى مناقشة مشكلة المشاكل وهى مشكلة ما حدث من خلط بين المفاهيم فى فكر الناس. فالأشخاص الذين تتمثل فيهم تلك الصفات الإسلامية التى ذكرناها ينظر إليهم من وجهة نظر البراجماتيين على أنهم بعض المجانين أو فى أحسن الأحوال يعتبرونهم حالات عقلية مريضة أما لو نظرنا إلى الأمر من وجهة نظر

الإسلام فإن هؤلاء البراجماتيين هم الذين سيعتبرون حالات ضالة ومريضة يرجو الإسلام هداها. أى أن المشكلة تكمن فى ذلك الخلط الذى حدث فى المعايير القيمية الاجتماعية التى يتحدد على أساسها ما هو حقيقى أو ما هو زائف؟ وما هو يتسم بالمعقولية وما هو يفقدها؟ وما هو من الممكن أن يعد نجاحًا يوجب التبجيل وما هو من الممكن أن يعد فشلا يوجب التحقير.

وفى سؤال واحد أقول: إلى أى شىء يجب أن نحتكم فى تقييم الأمور؟؟ فى الحقيقة لقد صار حكماء العصر الآن هم الحكماء البراجماتيين النفعيين، إنهم يتمتعون بعدة مصداقيات تكسبهم ثقة الجماهير، إنهم أكثر الناس تطبيقًا لما يقولون. إن أفكارهم أكثر الأفكار قدرة على مسايرة الأمر الواقع إنهم قد حققوا ثروات ضخمة هى بذاتها شهادات كافية للغاية على مصداقية أفكارهم. إن حكمتهم هى أكثر الحكم قدرة على تحقيق المنافع والمصالح المادية.

نعم لقد صارت الحكمة هى حكمة أرب النفوذ والمال.

وبعد أن تضاءلت قيمة العلم بمعناه المتعارف عليه وصار أعجز من أن يعود على صاحبه بنفع يحتسب فقد صار للعلم أيضًا معنى براجماتى وهو القدرة على اكتشاف أكثر الوسائل تحقيقًا للمنافع والمصالح المادية.

أما مفهوم النجاح «وهو مفهوم ذو أثر خطير على الواقع الاجتماعى» فقد صار لا يتعلق إلا بالآثار والنتائج ثم انحصرت هذه الآثار والنتائج فى الآثار والنتائج المادية.. إن لم تكن النقدية» فقط لا غير.

فإذا كان هناك جدال قائم عن مدى نجاح شخص ما فإن أول سؤال سيطرح ماذا صنع أو ماذا حقق من نتائج لكى نصفه بالنجاح؟ وعندما يمضى الحوار لخطوات أكثر فإن السؤال المطروح يكون أكثر صراحة وهو ماذا حقق هذا الشخص من النقود والثروة لكى نصفه بالنجاح؟!!

لقد حصر البراجماتيون الحقائق فى دائرة المنافع والمصالح المادية وتحت ضغط الحاجة والحرمان من جهة وابتعاث الرغبات والإغراء بتحقيقها من جهة أخرى استطاعوا أن يشحذوا طاقات الناس نحو شىء واحد هو محاولة تحقيق هذه المنافع والمصالح بأية طريقة كانت ومن هنا كانت كل هذه المفاهيم.

ولكى نسقط هذه المفاهيم لا بد أن نقرر وبكل حسم أن الإسلام هو حكمنا الوحيد

فى تحديد ماهية المعايير القيمية الاجتماعية فالحقيقى ليس إلا ما يعتبره الإسلام أنه حقيقى والنافع ليس إلا ما يعتبره الإسلام أنه نافع، وبوجه عام فإن الإسلام لا يعطى أية أهمية أو احترام للمصالح والمنافع المادية إلا فى حدود القدر الذى يلبى الحاجات الحقيقية للإنسان، أى ما يسمى فى عرفنا الاجتماعى «بالستر»، ويرى أن ما يزيد عن ذلك من حطام الدنيا فهو أنزل قدرًا من أن يتفانى الناس عليه، أما إذا ضحى الإنسان بالقواعد الشرعية من أجل تحقيق هذه الأشياء فإنه يكون قد سقط بذلك فى مصيدة الشيطان التى قد تؤدى به إلى الكفر لعبادته لهذه الأشياء.

هذه هى حكمة الإسلام التى لا محيد عنها وهذا هو علمه الذى تستمد منه النفوس صلاحها، أما مفهوم النجاح فى الإسلام فإنه لا يتعلق بنتيجة من النتائج وإنما يتعلق بالنية والإرادة والفعل.

فالناجح من وجهة نظر الإسلام هو كل من يحاول طاعة أوامر الله وتحقيق الغايات التى تقتضيها عبوديته سواء استطاع أن يحقق ذلك بسلوكه أو حتى اتجهت إليه إرادته وتدخلت عوامل أخرى لمنعه من ذلك. فالذى يطيع الله فى الأرض ويقيم عبوديته فيها «بالمعنى الواسع للعبودية كما نفهمه» هو الناجح فى المنظور الإسلامى.

هذه هى قيم الإسلام.

وهذه هى صبغته ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً ﴾.

ولكن هناك أسسًا موضوعية للعمل على انتصار هذه القيم الإسلامية على القيم البراجماتية الغازية وأهم هذه الأسس الموضوعية هو توفر الحد الأدنى من الحاجات الضرورية للإنسان فى المفهوم الإسلامى وهذا ما سنتحدث عنه فى الباب القادم إن شاء الله.

القسم الثانى

الغزو البراجماتى

وأثره على مجتمعنا

الباب الأول

الغزو البراجماتى لمجتمعنا

مدخــل

هناك عـدة أسـئلة تطرح نفسـهـا الآن بشكل تلقـائى، منهـا: إذا كـانت الفلسـفـة البراجماتية إفرازًا طبيعيًا أمـريكيًا متصـارعًا لا هم له سوى الحصـول على المال والثروة بأية طريقة فما علاقتنا نحن معشر المسلمين بذلك؟

ثم كيف يحق لى أن أدعى أن هذه الفلسفة قد غـزت المجتمع المصرى مع أن الكثيرين قد لا يكونون قد سمعوا بها قبل ذلك؟

ثم إذا كانت البراجماتية فلسفة بما تعنيه كلمة فلسفة من أسس نظرية معقدة فكيف يحق لى أن أدعى وأؤكد ادعائى - أن الكثيرين من بسطاء الشـعب المصرى - الذى تغلب عليه الأمية - قد صاروا يفكرون بنفس الطريقة التى تهدف إليها هذه الفلسفة.

إن هذه الأسئلة قد تبدو ساذجة بالنسبة لخواص المثقفين عندنا ولكن الغرض المستهدف من هذا الكتاب - بالرغم من الصعوبة التى تقتضيها بعض مواضيعه - ليس مجرد المحاورة العقلية مع خواص المثقـفين، ولكن تظل أمنيـة فى كل سطوره أن تصل القضيـة «الشـديدة الخطورة» المطروحة فيه إلى وعى أكبر قدر يستطيع مخاطبته من القراء.

ولهذا أقـول: إن الغرب يقوم بعملية غزو استهـلاكى لعالمنا الإسـلامى لنهب خيـراته وثرواته أولا وكذلك كعملية ثأرية تشتعل نارها فى قلوب الغربيين تجاه العالم الإسلامى الذى كسر أنف أنانيتهم واستعلائهم لأكثر من ألف سنة. وعملية التبعيـة الاستعمـارية التى ندور فى فلكها كانت بديلا أكثر فـائدة وأقل ضررًا من العمليات الاسـتعمـارية التى أجهضتها ثوراتنا الإسـلامية المتتـابعة. ولقـد كان وعى مـفكرينا كبـيرًا منذ أيام جمـال الدين الأفغانى بقضية التبعية والهيمنة التى يحاول الغرب وعملاؤه فرضها علينا.

لقد نفذ الأفغـانى بعبقريته إلى مكمن هذا الخطـر وكشفه أمـامنا - منذ مـائة سنة. ولكننا لم نقـرأ أو لم نفهم، ثم نفـرح الآن إذ نعيد اكتشـاف نفس الذى قـال بعد أن ذاع وانتشـر ولكن لعلنا نتحـرك هذه المرة فى الاتجـاه الصحيح. منذ حوالى مـائة سنة كتب الأفغانى عن الذين «قلبوا أوضـاع المبانى والمسـاكن وبدلوا هيئات المآكل والملبس والفرش والآنيـة وسـائر المـاعـون. وتنافسـوا فى تطبـيقـهـا على أجـود مـا يكون منهـا فى المـمـالك الأجنبية وعدوها من مفـاخرهم. فنسفـوا بذلك ثروتهم إلى غيـر بلادهم.. وأماتوا أرباب الصنائع من قومهم.. وهذا جدع لأنف الأمـة، يشوه وجهها، ويحط بشـأنها.. لقد علمتنا التجـارب أن المقلدين من كل الأمـة، المنتحلين أطوار غيـرها يكونـون فيـهـا منافذ لتطرق

الأعداء إليها، وطلائع لجيوش الغالبين وأرباب الغارات، يمهدون لهم السبيل، ويفتحون الأبواب ثم يثبتون أقدامهم»[1].

ولهذا كان ذلك الحزم فى تحذير الرسول ﷺ لنا حين قال: «من تشبه بقوم فهو منهم».

لقد تكثف هذا الوعى فى كتابات مفكرينا المسلمين من أقصى شرق عالمنا الإسلامى إلى أقصى غربه خصوصًا فى كتابات شريعتى وعادل حسين ومالك بن نبى، يقول شريعتى[2] عن عملية الغزو الفكرى التى تنتج عن التبعية والانهزامية أمام الغرب: «وكما يقوم المستعمرون بتوحيد المحاصيل فى البلاد المستضعفة بحيث تموت جوعًا إذا لم تبع محصولها للغرب، فمن ناحية «الزراعة المعنوية» أى الثقافة ينبغى أن تمحى كل مزارع العالم الثقافية التى كان فيها عبر عدد من القرون وعبر آلاف السنين مواهب بشرية وتجارب متنوعة وأنتجت فنونًا متنوعة وأذواقًا متنوعة وألوانًا من الجماليات ومعنويات عظيمة وثقافات روحية كلها ينبغى أن تمحى وتأتى «جرارات» الاستعمار الثقافية فتحصد كل حضارات آسيا وأفريقيا وإيران وكل المجتمعات الإسلامية من أجل أن تزرع فيها الثقافة الغربية فحسب. وعلى الأمم مهما كان أصلها وتاريخها وحضارتها أن تكون جميعًا فى صورة أوان خالية متشابهة لا تحتوى على شىء اللهم إلا حلق مفتوح ظامئ وفوهة خالية من أجل أن يوصل فقط بذيل هذه الآلة الغربية التى تنتج الفكر وتنتج الاقتصاد فتمتصها من أجل أن تصير عامل استهلاك لا عامل إنتاج، وما دامت الحضارة تعنى استهلاك منتجات الغرب، فبالتالى من يستهلك منتجات الغرب يكون متحضرًا، ومن أجل أن يصيروا مستهلكين لإنتاج الغرب، على الجميع أن يعتقدوا أن ثقافتهم المحلية وشخصيتهم المحلية غير ذات مفهوم، وأنهم لا يستطيعون بناء حضارة أو صناعة ثقافة وأن عليهم من أجل أن يكونوا متحضرين أن يقبلوا أدوات الغرب وأنماطه وقيمه ومن هنا فإنه لا يوصف إنسان فى مجتمعنا بأنه متحضر إلا إذا كثر استهلاكه، وليس إذا سمت أحاسيسه وعواطفه».

ومن هنا يتيسر دور الأفكار والقيم الغربية الغازية فى التحكم فى العقول وفرض سيطرتها عليها ولأن ثقل القوى الغربية قد انتقل إلى أمريكا فقد اختزلت الأفكار والقيم الغربية وأخذت شكلها المتطور فى المفاهيم البراجماتية الأمريكية.

فالبراجماتية هى النسق الفلسفى للأخلاقيات التنافسية القائمة على خدمة المصالح الاقتصادية الرأسمالية لرجل الأعمال الأمريكى ولهذا فإن السعى لترسيخ

---

(١) الأعمال الكاملة: نقلا عن الأستاذ عادل حسين فى كتابه «الاقتصاد المصرى من الاستقلال إلى التبعية» ومقدمة الفقرة له.

(٢) العودة إلى الذات.

القيم البراجماتية هو سعى لاستطالة اليد الطولى لرجل الأعمال الأمريكى الذى يمتص دماء الشعوب الفقيرة ويحيلها إلى أرقام تراكمية لأرصدته فى البنوك بينما هم لاهون فى مراقبة بسمته الودود.

فالحقيقة أن نزعة الغرب الفردية بقيمها المادية قد تطورت فى أقصى نمو لها فى الأفكار والقيم البراجماتية وفى الاقتصاد الأمريكى الحر الذى يمثل الواقع العملى والتطبيقى لهذه الأفكار والقيم، والنخبة البراجماتية من رجال الأعمال الأمريكيين - الذين ينتمى جزء كبير منهم إلى اليهود - هم الذين يتحكمون فعليًا فى السياسة التى تنتهجها الحكومة الأمريكية وعلى ذلك فإن الاقتصاد الأمريكى والسياسة الأمريكية والمفاهيم البراجماتية ترتبط جميعًا بكينونة واحدة تمثل أقصى نمو مادى للحضارة الغربية وتتعدد مسمياتها فقط من حيث نوع الممارسة التى تؤديها، والنخبة الأمريكية البراجماتية تعمل على فتح المنافذ لغزو الشركات الأمريكية الكبرى لأرضنا وتحول خيراتنا إلى ماكينات الإنتاج الأمريكى التى يكون نصيبنا منها هو بعض السلع الترفية التى يروج لها الإعلام الأمريكى البراجماتى ويؤول أغلبها إلى مترفينا فى النهاية وبعد أن يستهلك بسطاؤنا المخدوعون ما يملكون على التفاهات فلا يكون أمام باقى الشعب المشرد المطحون الممتص الدم المستهلك الكرامة إلا تجرع الغيظ واجترار العذاب.

وعملية الغزو هذه يقوم بها الغرب الأمريكى فى كل بلاد الدنيا ولكنه يمارسها بشكل أكثر نشاطًا وحيوية فى بلادنا الإسلامية حيث ترسخ فى ضميره الحضارى العداء الثأرى لها وكذلك لوعيه الشديد بمدى ما يكمن فى تلك البلاد من القوة الصلبة العنيدة المتمثلة فى الإسلام والتى تستطيع وحدها مواجهة الغزو البراجماتى الأمريكى والأطماع الغربية فى المنطقة.

إن الغرب الأمريكى الذى يملك اليهود سيطرة خاصة على توجيهه يضع شبابنا المسلم الآن بين خيارين إما أن يرتضى بالقيم البراجماتية كدين ومذهب له فينضم بذلك إلى الطبقة الطفيلية الجديدة وإما أن يتآكل غيظًا وهو يرى طموحاته بل وأبسط حقوقه تتحول إلى أرصدة تراكمية للنخبة المحلية والنخبة الأمريكية.

وبالإضافة إلى الانهزامية الحضارية والشعور بالدونية الذى يعانى منه عُبَّاد الغرب وأذنابه عندنا، وبالإضافة إلى ما قام به العلمانيون من عملية تضبيب مستمرة للإسلام فى البلاد فإن هناك محاور ثلاثة غزتنا من خلالها هذه الفلسفة المدمرة وهى التبعية السياسية والتبعية الاقتصادية والتبعية الإعلامية، كما أن هناك عاملا خاصًا يتعلق بأثر الفقر على سرعة انتشار المفاهيم والقيم البراجماتية فى الشعب المصرى وأمثاله من الشعوب الفقيرة وسوف نتعرض لهذه الأمور تباعًا.

الغزو عن طريق التبعية الإعلامية
الإعلام البراجماتى

يقول الدكتور مصطفى المصمودى فى كتابه «النظام الإعلامى الجديد»: «إن الإعلان والمحلات وبرامج التليفزيون تمثل اليوم أدوات للسيطرة الثقافية والتثقيف من الخارج حيث ترسل إلى البلدان النامية رسائل تسىء إلى ثقافتها وتتعارض مع قيمها وتضر بأهدافها وجهودها الإنمائية» وعلى ذلك لنا أن نتساءل: ماذا يفعل الإعلام الأمريكى - الذى تسيطر عليه الأفكار والقيم البراجماتية - فى شعوب العالم وفى شعوب الدول الفقيرة على وجه الخصوص؟؟

يجيب على هذا السؤال عالم الاتصال الأمريكى هربرت. أ. شيلر[٣] فيقول: «يقوم مديرو أجهزة الإعلام فى أمريكا بوضع أسس عملية تداول الصور والمعلومات ويشرفون على معالجتها وتنقيحها وإحكام السيطرة عليها، تلك الصور والمعلومات التى تحدد معتقداتنا ومواقفنا بل وتحدد سلوكنا فى النهاية».

سائسو العقول:

ويشرح شيلر الدور الذى يفعله هؤلاء فيقول: عندما يعمد مديرو أجهزة الإعلام إلى طرح أفكار وتوجيهات لا تتطابق مع حقائق الوجود الاجتماعى، فإنهم يتحولون إلى سائسى عقول. ذلك أن الأفكار التى تنحو عن عمد لاستحداث معنى زائف وإلى إنتاج وعى لا يستطيع أن يستوعب بإرادته الشروط الفعلية للحياة القائمة وأن يرفضها سواء على المستوى الشخصى أو الاجتماعى، ليست فى الواقع سوى أفكار مموهة أو مضللة».

طابع الخصوصية:

ويعكس الإعلام الأمريكى الموجه طابع الخصوصية الذى يقول عنه شيلر: «إن طابع الخصوصية فى كل مجالات الحياة هو الأمر العادى والطبيعى فى أمريكا ويعكس أسلوب الحياة الأمريكية بدءًا من أدق تفاصيلها حتى أعمق معتقداتها وممارستها

(٣) المتلاعبون بالعقول، وكل المنقولات الخاصة بهربرت أ. شيلر هى من نفس المرجع.

الشعورية، ويعكس تحديدًا نظرة إلى العالم مكتفية بذاتها فالحلم الأمريكى يقوم على وسيلة الانتقال الخاص والمنزل المستقل للأسرة والعمل فى مشروع لا يملكه الغير».

التضليل الإعلامى:

وكما يحدث عندنا فى الإعلام الأمريكى المدبلج محليًا فإن «التضليل الإعلامى يقتضى واقعًا زائفًا هو الانكسار المستمر لوجوده أصلا».

«وعلى ذلك فلا بد من أن يؤمن الشعب الذى يجرى تضليله بحياد مؤسساته الاجتماعية والرئيسية. ولا بد من أن يؤمن الشعب بأن الحكومة والإعلام والتعليم والعلم بعيدة جميعًا عن معترك المصالح الاجتماعية المتصارعة وينظر إلى وقائع الفساد والفتن والاحتيال - عند حدوثها من وقت لآخر على أنها نتيجة مترتبة على الضعف الإنسانى. أما المؤسسات نفسها فهى بعيدة تمامًا عن المؤاخذة. ويتم التأكيد على سلامة وصحة النظام فى مجمله من خلال الآليات المصممة جيدًا والتى تشمل الأوضاع فى مجملها...

... إن سيطرة النخبة تقتضى تجاهل أو تحريف الواقع الاجتماعى فالدراسة المخلصة والمناقشة الجادة للصراع الاجتماعى لن تؤدى إلا إلى تعميق وتكثيف مقاومة الظلم الاجتماعى وتصاب المجموعات والشركات ذات النفوذ الاقتصادى القوى بتوتر بالغ وفورى إذا ما تم لفت الأنظار للممارسات الاستغلالية التى يشاركون فيها».

تفتيت النظرة إلى المشاكل:

والتكتيك الإعلامى الذى تستخدمه أمريكا فى نشر المعلومات على نطاق واسع يسميه شيلر بالتجزيئى والمقصود به كما يقول هو «التأكيد على النظرة التى تحصر المشكلات فى بؤر بدلا من رؤيتها بوضعها أبعاد كل واحد». وبذلك «تؤدى اللامبالاة الكاملة التى يتعامل بها الإعلان مع أى حدث سياسى أو اجتماعى (بإصراره على إقحام نفسه عنوة وبغض النظر عن طبيعة الموضوع) إلى اختزال كافة الظواهر الاجتماعية إلى مجرد حوادث غريبة لا معنى لها، وعلى ذلك فإن الإعلان فضلا عن وظائفه المعروفة مسبقًا والمتمثلة فى بيع السلع واستثارة حاجات استهلاكية جديدة وتجميل النظام، يوفر خدمة أخرى لا تقدر بثمن لاقتصاد المؤسسات الضخمة المتعددة الشركات. ذلك أن إقحامه فى كل قنوات الإعلام والأعمال الإبداعية يختزل قابلية الجمهور الواصلة أصلا

إلى حدها الأدنى لاكتساب أى إحساس بالمعنى الكلى للحدث أو القضية أو الموضوع المطروح» أ.هـ.

وفى إطار هذا النظام الإعلامى يتعلم الجمهور كيف تتحول كل المعانى والقيم الإنسانية إلى أرقام نقدية أو منافع شخصية وكيف يكون الاجتراء على الحقائق وارتكاب أسوأ المبتذلات اللاأخلاقية شيئًا طبيعيًا ومألوفًا، فعندما مثلا يتباهى إعلامنا ويفخر وهو يتحدث عن الأشخاص الذين تتمثل فيهم أقصى الحقارات اللاإنسانية والانتهازية والوصولية والنفاق المفضوح كيف أن هؤلاء هم الناجحون دائمًا والغالبون فى النهاية بينما الشرفاء ينكسرون ويلقى بهم على قارعة الطريق.

عمليات الترفيه والتسلية:

كيف ينقل الإعلام الأمريكى الموجه القيم البراجماتية إلى الجمهور فى كل مكان فى العالم عن طريق وسيلة أبعد ما تكون إلى الشك فى وجود أى نوع من العلاقة بينها وبين عملية نقل الأفكار وزرعها هذه الوسيلة هى عملية الترفيه والتسلية التى يقوم بها هذا الإعلام ففى فصل شديد الغرابة بعنوان الترفيه والتسلية يتصدره شيلر بهذه الكلمة لجورج جيبرنر: «إن بنية الثقافة الشعبية التى تربط عناصر الوجود بعضها ببعض وتشكل الوعى العام بما هو كائن، بما هو مهم وما هو حق وما هو مرتبط بأى شىء آخر. هذه البنية أصبحت فى الوقت الحاضر منتجًا يتم تصنيعه». وينقل شيلر فى هذا الفصل رأى مؤرخ التلفاز الأمريكى ريكبارنوا الذى يقول: «إن مفهوم الترفيه فى تصورى هو مفهوم شديد الخطورة. إذ تتمثل الفكرة الأساسية للترفيه فى أنه لا يتصل من بعيد أو قريب بالقضايا الجادة للعالم وإنما هو مجرد شغل أو ملء ساعة من الفراغ. والحقيقة أن هناك أيديولوجية فهذه بالفعل فى كل أنواع القصص الخيالية. فعنصر الخيال يفوق فى الأهمية العنصر الواقعى فى تشكيل آراء الناس» ثم يعلق شيلر على ذلك فيقول: «وبطبيعة الحال فإن هذه الملاحظة لا تقتصر على التلفاز» ثم يضيف: «إن التلفاز التجارى يجرى تنظيمه - وذلك هو التعبير المناسب تمامًا - من أجل تسليم الجمهور الفقير من المشاهدين للمعلنين والبرامج هى المادة التى «تُملأ بها الفراغات» بين الوسائل الإعلانية للممولين».

ويذكر شيلر أنه فى إحدى مجلات التسلية المهمة مثل المجلة الجغرافية المصورة «توصف كمية الصواريخ من طراز بولاريس التى حصل عليها الأسطول الأمريكى ١٩٦٥

والتى بلغ عددها ٦٥٦ صاروخًا بأنها «٦٥٦ حجة مقنعة من أجل السلام».

إنهم يقدمون أكثر الأعمال شرًا على أنها دعوة للخير والسلام.

أما عالم والت ديزنى الذى يصدر لكل أنحاء العالم فقد «حلل أربرد ورفمان وارماند وايتلارت - وهما باحثان شابان كانا يعملان فى شيلى قبل الانقلاب - كتب ديزنى الهزلية وتوصلا لبعض الاكتشافات المثيرة للاهتمام، إذ اكتشفا العنصرية والإمبريالية والجشع والعجرفة متخللة الهزليات «المستقلة عن القيمة» التى يجرى توزيعها على نطاق جماهيرى فى كل انحاء أمريكا اللاتينية. فأكثر من ثلاثة أرباع القصص التى قرءوها تصور رحلة تستهدف البحث عن الذهب. وفى الربع الباقى من تلك القصص تتنافس الشخصيات على المال أو الشهرة».

«ويرى مايتلارت أن الطفيلية الخيالية «التى تخصص فيها ديزنى» إنما تمثل اليوتوبيا السياسية لطبقة ما، ففى كل الهزليات يستخدم ديزنى الحيوانية والصبيانية والبراءة لتغطية النسيج المتشابك من المصالح الذى يؤلف نظامًا محتومًا من المواجهة الاجتماعية والتاريخية متجسدًا فى الواقع الملموس أى إمبريالية أمريكا الشمالية».

كيف تشترك عمليات استطلاع الرأى فى تصنيع الرأى:

وكما جاء فى كتاب شيلر «المتلاعبون بالعقول» فإن عمليات استطلاع الرأى تسعى للدفاع عن أو لتعزيز قيم الوضع الراهن تحت ستار نشر التقارير الموضوعية المخصصة لإعلام الجمهور» وهى عمليات «تحليلية من الوجهة الفرضية» انتهازية من الوجهة التجريبية، وهى مبنية على التوجيه التضليلى على مستوى الإدارة».

ولكن كيف يحدث ذلك؟ يقول شيلر: «تتجلى براعة معدى الاستفتاء فى تضمينه كفرضية معطاة أو مسلم بها ما هو فى محل خلاف» ويعطى مثالا على ذلك استطلاعًا للرأى عبارة عن السؤال الآتى: «من يستطيع التعامل فى صورة أفضل فى رأيك مع الحرب الفيتنامية ريتشارد نيكسون أو هيوبارت همفرى» ثم يعلق على ذلك قائلا «إننا نكون بذلك قد تعرضنا للخديعة ذلك أن الشواهد كانت تؤكد فى مجموعها وعلى نحو موصول «خلال عام ١٩٦٨ وقت إجراء هذا الاستطلاع» أن أى من هذين الرجلين لا يرغب فى التعامل بجدية كاملة مع الحرب الفيتنامية ومعنى طرح هذا السؤال هو خلط الأمور وتحريف الواقع».

انتقال توجيه العقول الأمريكى لما وراء البحار:

وعن سيطرة الإعلام الأمريكى على شعوب العالم يقول شيلر: «إن السيطرة على البشر وعلى المجتمعات تتطلب فى الوقت الحاضر وقبل أى شىء آخر الاستخدام الموجه للكلمات والصور. فما كان جبروت القوة التى يمكن استخدامها ضد شعب ما فإنها لا تفيد على المدى البعيد «والذى يمكن ألا يستمر طويلا» إلا إذا تمكن المجتمع من أن يجعل أهدافه تبدو مقبولة على الأقل إن لم تكن جذابة بالنسبة لهؤلاء الذين يسعى لإخضاعهم.

ومن هنا تمثل مناهج ووسائل «أو توجيهات» الاتصال أهم أدوات أصحاب السلطة والنفوذ المحدثين وأكثرها حيوية. فالحالة الشعورية لسكان بلد ما لها دورها الملموس فى تحديد سلوكهم السياسى. والمعتقدات والآراء قابلة للتأثر إلى حد بعيد بذلك الضرب من التوجيه الجماهيرى المضلل الذى يمارسه النظام الأمريكى للسلطة بمهارة فائقة».

توجيه عقول أم سيطرة سياسية مباشرة؟

يقول شيلر: «وعندما يتحول توجيه العقول إلى السيطرة السياسية المباشرة يكون الشغل الشاغل للإعلان هو إبعاد وتنحية الصراعات، والسيطرة عليها وتوجيه المجتمع نحو تعريفات زائفة تعاد مرارًا وتكرارًا بحيث تبدو كما لو أنها الشرط الوحيد للمعقولية.

أما الممكنات الأخرى فتبدو - ليس ظاهريًا فحسب بل وفعليًا على المدى القصير - غير عملية».

ويلخص عالم الاتصال الأمريكى هربرت. أ. شيلر أفكاره عما يقوم الإعلام الأمريكى من عملية زرع وترسيخ الأفكار والقيم الأمريكية «البراجماتية بالطبع» فى كل مكان فى العالم بقوله:

«إن ما يشاهده الناس وما يقرءونه أو ما يستمعون إليه وما يرتدونه وما يأكلونه والأماكن التى يذهبون إليها وما يتصورون أنهم يفعلونه كل ذلك أصبح وظائف يمارسها جهاز إعلامى يقرر الأذواق والقيم التى تتفق مع معاييره الخاصة التى تفرضها وتعززها مقتضيات السوق».

الصناعة الأمريكية للإعلام المصرى:

وبعملية استقراء واقعية لإعلامنا، سنجد أن الإعلام الأمريكى الأخطبوطى قد سيطر على وسائل إعلامنا المختلفة، وبالذات عن طريق جهاز تليفزيونى يلهث دائمًا وراء البرامج والأفلام والمسلسلات الأمريكية التى لا يكتفى ببثها ليل نهار، ولكن يجعل منها المثل والقدوة والمقياس الذى يحتذى به فى إعداد برامجه وإعلاناته ومسلسلاته وأفلامه حتى اقتحمت المفاهيم والقيم البراجماتية منازلنا وسترنا وعقولنا، وتربعت واستراحت فى ضمائرنا.

إن وجود التليفزيون فى كل بيت وكذلك فى كل «عشرة» بأقصى القرى المصرية بعدًا عن التمدن - ليس فقط ترويجًا سلعيًا للرأسمالية الغربية، ولكن أهم من ذلك بكثير أنه زرع لرأس أفعى من أفاعى الأخطبوط الإعلامى الأمريكى - الذى يكاد يسيطر ببرامجه المتعددة على إعلامنا - يتحكم من خلالها فى توجيه أو بكلمة أدق فى تصنيع عقول أبسط أبناء شعبنا بالطريقة التى يريدها.

ما الذى تفعله المسلسلات الأمريكية؟

فى الحقيقة فإن سيل المسلسلات الأمريكية مثل «دالاس - فلامنجورود - فالكون كريست» التى تستعرض سلوكيات الحياة اليومية للأمريكيين؛ لكفيل بنقل القيم البراجماتية التى تقوم عليها هذه السلوكيات إلى عقلية المتفرج المصرى الذى يعمل إعلامه جاهدًا على إبهاره بكل ما هو أمريكى.

والعجيب فى الأمر أن دولا كبرى كالصين واليابان رفضت عرض مسلسل كدالاس على شاشات تليفزيوناتها، وفى بريطانيا منظمة علمية تحمل اسم مجلس الإرشاد الأسرى أعلنت بعد دراسات عديدة «أن مسلسل دالاس كفيل بإفساد القيم الأسرية والاجتماعية لدى المجتمع البريطانى المحافظ، وأن العائلة التى تحمل اسم دالاس تظهر قيمًا وسلوكيات ضارة، فالأسرة تتعامل مع الزواج وكأنها سيارة مستعملة مشتراة من سوق السيارات القديمة.. فإذا سئم المرء موديلا معينًا سهل عليه التخلص منه لشراء سيارة أخرى مستعملة أيضًا. وخطورة هذا المسلسل تكمن فى أن الناس يتعايشون مع شخصيات المسلسل ويتشربون قيمهم وأحكامهم تجاه المواقف من خلاله وهذا يعرض القيم البريطانية للخطر».

أقرأتم العبارة الأخيرة إنهم أبناء حضارة واحدة ومع ذلك يخشون من هذا المسلسل الذى يعرض القيم البريطانية للخطر، فما بالكم بمجتمعنا نحن؟!!

الإعلان والحلم البراجماتي:

أما نظام الإعلان المصرى الاستفزازى فإنه يمارس عملية برمجة براجماتية كاملة يشكل بها من جديد - وتحت الضغط الشديد - ذهن المجتمع المصرى - فليست المسألة فقط عمل الإعلان الدءوب على اتساع فوهة أوعية المجتمع الاستهلاكية لكل المنتجات مهما كانت تفاهتها، وإنما المشكلة الأكبر هى عملية الإغراء الملح لشراء أشياء ترفيهية يشعر أمامها الغالب الأعم من الشعب المصرى المطحون بمدى تعاسة حياته، ونفاد صبره وعدم قدرته على الاستمرار فى هذه الحياة، أضف إلى ذلك ما يصاحب تلك الإعلانات من خلاعات وإغراءات جنسية، يقوم بها فتيات رائعات الجمال قد نقيم بمهارة تجارية فائقة، وبهذا الحلم البراجماتى الشديد الإغراء الذى يقدمه الإعلان لمجتمعنا البسيط الضعيف التحمل لمثل هذه الإغراءات فالحلم البراجماتى الذى يقدمه الإعلان عبارة عن حياة غارقة فى الترف والمتع والملذات التى لا يكاد يستطيع أن يحيا مثلها إلا الملوك والأمراء وأرباب النفوذ والمال.

ويحمل الإعلان لمجتمعنا مع هذا الحلم التعاليم البراجماتية الشيطانية التى تحفزه وبقوة على تحطيم كل الحواجز التى تعترض طريق الوصول إليه فبعد أن عمل الإعلام البراجماتى على تحقير كل القيم والمبادئ الأصلية لدى المشاهد يدفعه بحماس شديد للوصول لذلك الحلم الصعب الذى يسخر من واقعه المر وبذلك يدفعه دفعًا لممارسة الأساليب النفعية والاستعانة بكل الوسائل البراجماتية ضاربًا عرض الحائط بكل المبادئ والأخلاقيات والتعاليم الدينية لكى يصل لذلك الحلم المنشود.

إن المشاهد ليس عليه فقط أن يحطم حمَّامه القديم - كما يقول أحد الإعلانات لكى يشترى الحمَّام الترفى الجديد، ولكن عليه أن يحطم ذاته القديمة وحضارته وقيمه الدينية أيضًا، والخلاصة عليه أن يحطم كينونته تمامًا لكيلا يكون مفرغًا من الداخل فقط بل لكى يكون محطمًا من الداخل تحطيمًا نهائيًا وفوق هذا الحطام تستطيع القيم البراجماتية الانتهازية أن تستولى على ذاته وتستعبده لكل المشتهيات النفعية التى يغيره بها الإعلام «الإعلانى» كما يريد، وهكذا يدخل فى دائرة الصراع الذى لا يستطيع الفوز فيه إلا أكثر المتصارعين وصولية وانتهازية وحقارة ولا إنسانية، الخلاصة أكثر المتصارعين براجماتية.

والأفلام ايضاً:

أما الأفلام فتكاد أن تكون الأفلام الأمريكية هى المسيطرة على دور العرض العربية بوجه عام، وبالإضافة لتقديمها للنماذج السلوكية الأمريكية وقيمها البراجماتية على أنها النموذج الذى يجب الاقتداء به فإنها من خلال سلسلة الأفلام الجديدة مثال «رامبو وكوماندو» تقدم نموذجًا للرجل الأمريكى «الذى يعمل على خدمة المصالح الأمريكية» على أنه رجل لا يقهر أما باقى الشعوب التى يمارس فيها هذا الرجل عمليات القتل والإفناء فهى شعوب فقيرة إرهابية مجرمة لا تستحق إلا القتل والإحراق والتدمير.

ولقد كانت السينما المصرية منذ أواخر السبعينيات سباقة للغاية وبالمقارنة بالمجالات الثقافية الأخرى - من حيث تعرضها للمفاهيم والقيم البراجماتية التى غزت مجتمعنا واستطاعت أن تعيد تشكيل وتصنيع الكثير جدًا من عقوله، ولكن كيف كان هذا التعرض؟

إن أبرز الأفلام - على قدر علمى - التى تعرضت للفلسفة البراجماتية وتحدث بعضها عنها بصراحة باسم الفلسفة النفعية - ثلاثة أفلام هى «أهل القمة، وانتبهوا أيها السادة، والأفوكاتو» فهل عملت هذه الأفلام على إدانة النماذج البراجماتية التى قدمتها؟

فى الأول كان الصراع بين مجموعة من البراجماتيين حول فتاة وانتهى لصالح أكثر هذه النماذج براجماتية حيث تمكن من الاستيلاء على الفتاة «الطيبة» التى اقتنعت تمامًا بأن هذا النموذج البراجماتى هو الصحيح! أما الأخ المعترض صاحب المبادئ فقد كان جزاؤه سوء المآل.

وفى الثانى كان الحديث عن هذه الفلسفة أكثر وضوحًا وكان الصراع أيضًا حول فتاة بين دكتور فى الفلسفة المثالية «لاحظ أن الفلسفات والأفكار الدينية تسمى عادة بالفلسفات المثالية» ومعلم يتاجر فى «الزبالة» ثرى وصفه هذا الدكتور نفسه بأنه يفكر بطريقة الفلسفة النفعية وحسم الصراع لصالح المعلم البراجماتى حيث نال الفتاة الحاصلة على ماجستير وتسعى للحصول على الدكتوراه فى الفلسفة المثالية أيضًا بعد أن اقتنعت بأن ذلك هو الحل المناسب فى هذا العصر أما دكتور الفلسفة المثالية فقد وقف أمام تلاميذه وهو محطم تمامًا ليعلن أن الحقيقة هى اسم المعلم البراجماتى مشيرًا بذلك إلى سيادة المفاهيم البراجماتية فى النهاية. ونحن لا ننكر مع ذلك أن الفيلمين قد حويا نقدًا قويًا لتلك المفاهيم.

أما الفيلم الثالث «الأفوكاتو» فإنه يقدم المجتمع المصرى كله على أنه مجموعة متصارعة من البراجماتيين، ويصل بطل الفيلم لنتيجة مفادها «أنه لكى يستطيع الإنسان أن يعيش بين هؤلاء النفعيين عليه أن يكون أكثر منهم نفعية» ومن خلال هذا النموذج النفسى المجسم الشديد الوضوح يقدم الفيلم دعوة شديدة الإغراء لتقبل المفاهيم البراجماتية بسهولة شديدة.

وعلى هذا المنوال تمضى الكثير من الأفلام المصرية وعليه أيضًا تمضى الكثير من المواد الإعلامية الأخرى حتى صار الحديث طبيعيًا ومألوفًا عن المنفعة والمصلحة الشخصية وعن كونها المقياس الذى تتحدد على أساسه العلاقات بين البشر حيث هى الهدف الوحيد الذى يجب أن يسعى إليه الجميع أيًا كانت الطرق المؤدية إليه حيث يبدو أن كل من لا يفكر بهذه الطريقة غبى ومتخلف وموهوم ورومانسى وعاطفى يعيش فى الأحلام بعيدًا عن الواقع، أما إن كان متدينًا فهو متطرف حنبلى «نيكدى» معقد لا يفهم الدين لأن الدين يسر لا عسر.

لقد صار الإعلام البراجماتى هو الضوء الذى يخفى الحقائق وكان طبيعيًا أن أبتسم بمرارة بينما كنت أمشى فى أحد الميادين - وأنا أسمع صوت المغنى الشعبى منبعثًا من أحد شرائط الكاسيت وهو يقول: «الدنيا مصالح ومنافع» وقلت لنفسى هكذا سادت المفاهيم البراجماتية بيننا!!

الغزو عن طريق التبعية السياسية والاقتصادية
من تصنيع التبعية إلى الفقر والجوع وغرس القيم البراجماتية

مدخل

بشع، بشع، ما تفعله فينا الرأسمالية الأمريكية التى تقودها القيم البراجماتية، إن كل المبالغات والخيالات الأدبية لتتضاءل أمام هذا الواقع المأساوى الذى يحدث.

ونحن لا نتحدث هنا عن الرأسمالية الاقتصادية وموقف الإسلام منها بوجه عام فهذا حديث قد استهلكه المفكرون الإسلاميون بحثًا، وتقف الكتابات المتميزة للشهيد سيد قطب(٤) والإمام محمد باقر الصدر(٥) كرصيد إسلامى عظيم فى هذا الموضوع، وفى هذه الدراسات يتضح الموقف الإسلامى المتوازن من الملكيات الخاصة والمشروعات الخاصة بوجه عام وهو الموقف الذى لا يستهدف القضاء عليها ولكنه يضعها فى الإطار السليم الذى يحدده التصور الإسلامى لها.

إن كيفية انتقال القيم البراجماتية من النخب الرأسمالية الأمريكية إلى النخب الرأسمالية الانتهازية المحلية ثم انتقالها للقاعدة العريضة من المجتمع موضوع يحتاج إلى قدر كبير من التفصيل سنحاول أن نوجزه فيما يأتى:

أضاليل الرأسمالية العالمية وتصنيع التبعية:

لقد استطاعت الرأسمالية العالمية بقيادة أمريكا والهيئات والمنظمات التابعة لها من السيطرة المباشرة على توجيه النشاط الاقتصادى بالدول المستسلمة لها واستطاعت بذلك استهلاك خيرات تلك الدول والعمل على تخلفها وتجويع شعوبها.

فلقد قدم الغرب الرأسمالى عدة أضاليل نظرية للدول المتخلفة تعمل على زيادة تخلفها وانتهاب ثرواتها بطريقة أسهل وأقل تكلفة - من الاستعمار العسكرى لها فى الوقت الذى تروج فيه النظم الحاكمة لتلك الدول أن انتهاج السياسات الاقتصادية التى

---

(٤) راجع كتابيه: العدالة الاجتماعية فى الإسلام، ومعركة الإسلام مع الرأسمالية.

(٥) راجع كتابه: اقتصادنا.

تفرضها عليها الدول الرأسمالية هو الحل الوحيد للخروج من الأزمات الطاحنة إلى طريق التنمية والرخاء والازدهار.

يقول الأستاذ عادل حسين[٦] عن مبدأ التجارة الحرة «الذى يدرس فى جامعاتنا على أنه من المسلمات»: «على طول التاريخ منذ الثورات والتطورات الرأسمالية فى الغرب لم يكن ينادى بالتبادل الحر إلا الدول التى أثبتت تفوقها وكانت المطالبة بالتبادل الحر تأتى دائمًا من مركز القوة. ولونيل رابينز كان مجرد مسجل لهذه الحقيقة التاريخية حين قال إنه من الصعب العثور على حالة واحدة أوصى فيها أحد الاقتصاديين الكلاسيكيين فى إنجلترا بأنه يجب على بريطانيا أن تضحى بشىء من أجل رخاء بقية العالم فعندما كانوا ينادون مثلا بحرية التجارة كسياسة عامة لم يكن ذلك على أساس أن حرية التجارة شىء لمصلحة العالم وإنما كان ذلك لمصلحة بلدهم فقط».

وعلى هذا المنوال مضى الغرب يروج نظرياته التضليلية عن الاقتصاد مثل مبدأ التوازن الساكن الذى يقوم على خرافة الوفرة والندرة النسبية كما يسميها خبراء «معهد التغذية وسياسة التنمية» الأمريكيون وكذلك الفرض الوهمى الذى تقوم عليه نظرية التجارة الدولية عندهم والذى يعتبر التجارة الدولية عملية اقتصادية بحتة.

أما قاعدة الذهب التى أقنعنا بها الغرب على أنها إحدى المسلمات العلمية «وهكذا تدرس جامعاتنا» فيقول عنها الدكتور رمزى زكى فى كتابه «التاريخ النقدى للتخلف» «دراسة فى أثر نظام النقد الدولى على التكون التاريخى للتخلف بدول العالم الثالث وذلك تحت فصل بعنوان: «دور قاعدة الذهب فى ترسيخ النهب المنظم للمستعمرات: إن ثبات سعر الصرف وقواعد اللعبة التى انطوت عليها قاعدة الذهب، كانت إحدى الآليات المهمة التى اعتمدت عليها البلاد الرأسمالية فى تنظيم إحكام عمليات النهب المنظم لموارد البلاد المتخلفة».

وقد حدد الدكتور رمزى زكى ملامح حصاد هذا النهب فى الآتى:

١ - «نمو التصدير السلعى إلى البلاد المتخلفة والقضاء على الصناعات الوليدة فيها.

٢ - نمو الاستثمارات الأجنبية الخاصة وتشويه الهيكل الاقتصادى فى المستعمرات وأشباه المستعمرات.

٣ - تزايد حركة الاقتراض الدولى للدول المتخلفة والآثار الناجمة عن ذلك.

---

(٦) نحو فكر عربى جديد.

٤ - سلب البلاد المتخلفة حريتها فى تحديد سياستها النقدية والتجارية»[٧].

لقد دلل الغرب على مدى تقدمه الحضارى بعملية تحرير الرقيق التى قام بها فى القرن التاسع عشر بينما يقول المفكر المهتدى رجاء جارودى فى كتابه «حوار الحضارات» إن ذلك الذى فعله الغرب يرجع فى الأساس لأسباب اقتصادية تخدم الرأسمالية العالمية.

الوقوع فى فخ المديونية:

لقد حافظت الدول الرأسمالية على الإبقاء على نظام تقسيم العمل بينها وبين بلادنا الإسلامية الفقيرة أو استثمرت هذه البلدان التى تتخصص فى إنتاج المواد الخام الموجهة للتصدير مقابل استيرادها للسلع الاستهلاكية والمصنعة من الدول الرأسمالية التى عملت باستمرار على نهب موارد تلك البلاد وترسيخ تبعيتها لها، وتحطيم طموحاتها فى التصنيع والتنمية ورفع مستوى المعيشة، وعن طريق فرض علاقات الاستغلال والتبعية، استمر نزف خيرات تلك البلاد إلى الخارج وإضعاف قدراتها على الاعتماد على نفسها فى التمويل بالإضافة إلى تعرضها لسلسلة الأزمات الاقتصادية المتتابعة التى لا يستطيع تحملها اقتصادها الهش وموقعها الضعيف اللامتكافئ فى المنظمات الدولية التى تسيطر عليها الدول الرأسمالية الكبرى كل ذلك أدى إلى التفاقم وعجز موازين المدفوعات ووقوعها فى أسر الديون الخارجية التى تطورت فى شكل مفزع ولعبت الدول الكبرى لعبتها فى إنقاص مدة الاقتراض والتقليل من فترات السماح حتى كان ذلك النمو الهائل فى حجم الديون وتفاقم أعباء خدمتها وكان من أثر ذلك أن ارتفعت مدفوعات الأقساط والفوائد وصارت تلتهم هذه المدفوعات نسبًا مهمة من إجمالى حصيلة صادرات البلاد، وترتب على نمو أعباء الديون بمعدلات أسرع من نمو حجم الديون نفسها، أن تناقص سريعًا الانتقال الصافى للموارد المفترضة بمعنى أن تلك الأعباء أصبحت تلتهم الجزء الأكبر من القروض السنوية الجديدة. وفى بعض البلاد أصبح هذا الانتقال سالبًا أى أن مجموع الفوائد والأقساط المدفوعة أصبح يزيد عما تقترضه هذه البلاد سنويًا وترتب على نمو عبء الدين بأسرع من نمو حصيلة الصادرات، وجود أزمات طاحنة فى النقد الأجنبى فى البلاد المدينة، وتدهور سريع فى أسعار الصرف للعملة المحلية فيها.

---

(٧) د. رمزى زكى: التاريخ النقدى للتخلف.

ومع تعثر الكثير من البلاد الفقيرة فى سداد ديونها الخارجية زاد تشدد الدول الدائنة فى شروط الاقتراض الجديد وزيادة أسعار الفائدة والمطالبة بضمانات متنوعة تؤدى لفرض هيمنة تلك الدول الرأسمالية الكبرى وسيطرتها على نشاطات واقتصاديات الدول الصغرى التى قد أمضت الشوط الطويل فى أسْر التبعية والجلوس عند أقدام الدول الكبرى انتظارًا للفتات المتساقط من موائدها(٨).

مأساة إعادة جدولة الديون:

تتقدم الدولة المدينة بطلب إلى الجهات الدائنة للتفاوض على إعادة الجدولة طبقًا لقواعد «نادى باريس» الذى يقوم بتكوين هيئة استشارية تضم جبهة الدائنين ومراقبين من المنظمات الاقتصادية الدولية، ويتعين على البلد الذى يطلب ذلك أن يقدم تقريرًا مفصلا عن أوضاعه الاقتصادية والمشكلات المختلفة التى يواجهها، وأن يضع كافة المعلومات المتعلقة باقتصاده أمام المجتمعين. وقبل أن يوافق الدائنون على إعادة الجدولة يتعين على البلد المدين أن يذعن لشرطين أساسيين:

الأول: أن يتحمل البلد المدين دفع فوائد التأخير على الأقساط المؤجَّل دفعها وعادة ما يكون سعر فائدة التأخير أكبر من سعر الفائدة الاسمى على القروض المعاد جدولتها.

الثانى: يتعين على البلد المدين أن يتعهد بتنفيذ السياسات والتوجيهات الاقتصادية والاجتماعية وهو تعهد يرد فى خطاب النوايا المتبادل بين البلد المعنى وصندوق النقد الدولى.

ومن أهم مطالب الصندوق التى يتعين على البلد المدين تنفيذها تخفيض القيمة الخارجية للعملة الوطنية وإلغاء القيود المفروضة على الواردات والسماح للقطاع الخاص بالاستيراد وإلغاء الدعم السلعى الموجه للمواد التموينية التى يستهلكها الفقراء ومحدودو الدخل وتخفيض حجم التوظف الحكومى وتجميد الأجور وزيادة الضرائب على السلع والخدمات وتشجيع الاستثمارات الخاصة الأجنبية بوضع ضمانات كافية وامتيازات سخية مثل إعفائها من الضرائب والرسوم الجمركية وحصولها على مواد الطاقة والأراضى والمواد الخام بأسعار رخيصة، والسماح لها بحرية تحويل أرباحها

---

(٨) راجع بتوسع المرجع السابق.

للخارج وتصفية أعمالها فى أى وقت تشاء. أى أن البلاد المدينة التى ترضخ لهذه العملية عليها أن تقبل بالإدارة الخارجية المباشرة لاقتصادياتها، ومما يدعو للدهشة أنه رغم ما فى هذا الاتفاق من إذعان وتدخل فى الشئون الداخلية للبلد المدين إلا أن كثيرًا من المسئولين فى البلد المدين يصرحون عقب التوقيع على خطاب النوايا والتصديق عليه بأن هذا الاتفاق هو دليل على صحة المسار الاقتصادى الذى يسلكه البلد!! بينما الصحيح هو أن ذلك دليل على الرضوخ للتبعية والتدخل فى الشئون الداخلية للبلد. إنها براجماتية اقتصادية تمارسها الرأسمالية العالمية «التى تقودها أمريكا» على الشعوب المتخلفة الفقيرة لانتهاب أشد الاحتياجات ضرورة لهذه الشعوب. ويصف الأستاذ عادل حسين عملية استنزاف الثروات التى يقوم بها الصندوق لصالح الرأسمالية العالمية فيقول: «وكلما وصل العجز والاختناق إلى الحد الذى يهدد قدرة المدين على سداد التزاماته يتدخل الصندوق كيلا تذبح الدجاجة التى تبيض ذهبًا»[٩].

ويقول خبراء معهد الغذاء وسياسات التنمية الأمريكية فى كتابهم «أمريكا وصناعة الجوع»: «عند جمع مدفوعات ديون الدول النامية إلى مقرضيها من الهيئات العامة والخاصة فإن إجمالى عبء خدمة الديون لدول العالم الثالث غير المصدرة للبترول تتساوى تقريبًا مع إجمالى ما تدفعه مساعدات التنمية المقدمة من الدول الصناعية مجتمعة».

أرأيتم إلى أى حد نحن مغفلون!!

المساعدات الأمريكية وصناعة النخب البراجماتية:

إن كل ما سبق ليتضاءل أمام أبشع عملية براجماتية تمارسها علينا أمريكا أو بقول أكثر دقة النخب الأمريكية البراجماتية - إنها لعبة المساعدات الأمريكية تلك اللعبة التى ترتدى ثوب مساعدة الفقراء بينما هى حرب بشعة ضد الفقراء والجياع والمحرومين، ولقد أخرج خبراء معهد الغذاء وسياسة التنمية الأمريكية «فرانسيس مورلابيه وجوزيف كولينز وديفيد كينلى» فى هذا الشأن كتابهم الخطير «أمريكا وصناعة الجوع».

بعد أن شرح مؤلفو الكتاب بالتفصيل البشاعات المفزعة لما يسمى بالمساعدات الأمريكية لخصوا ذلك فى عدة حقائق كالآتى:

---

(٩) نحو فكر عربى جديد.

* معونات الغذاء الأمريكية لا تركز على تلك الدول التى يفتك بها الجوع الأعظم والتى تنخفض فيها إمكانيات الإنتاج المحلى إلى أدنى حد. لكنها تركز على دول مثل بنجلاديش وكوريا الجنوبية وأندونيسيا وباكستان وذلك لأن حكومة الولايات المتحدة تعتبر حكومات هذه الدول حلفاء الاحتكارات الأمريكية.

* الجانب الأكبر من معونات الغذاء الأمريكية يباع للحكومات المتلقية التى تبيع بعد ذلك الطعام لمواطنيها. والأموال التى تتجمع نتيجة بيع المعونة الغذائية تخدم فى دعم الموازنة العامة بما فى ذلك دعم البوليس والحبس والبيروقراطية وهى أدوات ضرورية لنظم الحكم غير الشعبية لضمان بقائها فى السلطة.

* معونات الغذاء يمكن أن تتيح استمرار الحكومات التى تسيطر عليها النخبة فى تجنب التغييرات الهادفة لإعادة توزيع الثروة وهى تغييرات ضرورية لزيادة الإنتاج المحلى من الطعام.

وهكذا نرى شهادة المتخصصين الأمريكيين على ما تقوم به النخب البراجماتية التى تقود الرأسمالية الأمريكية - لعملية تصنيع النخب الرأسمالية المحلية التى تحمل نفس قيمها وبهذه الطريقة تمارس علينا أمريكا براجماتيتها فتنهب مواردنا وتعمل على تجويع شعوبنا فى نفس الوقت الذى تدعى فيه أنها تقوم بدور الفاضل العطوف الذى يحاول إنقاذنا، ويقوم بتصنيع النخب البراجماتية المحلية الخادمة لمصالحها «الانفتاحيين الطفيليين» وتجعل فى ممارستها الاقتصادية البراجماتية القدوة العملية لتلك النخب ثم تصير الممارسات البراجماتية لتلك النخب المحلية هى القدوة والمثل والواقعيين لكل من يريد أن يدخل فى دائرتها.

يقول المؤلفون: «إن الشركات المتعددة الجنسيات المتمركزة بالولايات المتحدة تصدر الآن إلى أقطار العالم الثالث، بما قيمته اثنان وعشرون دولارًا من السلع لقاء كل دولار من دولارات المعونة الثنائية الموجهة إلى العالم الثالث.. الأمر إذن لا يدعو إلى الدهشة إذا علمنا أن الشركات المتعددة الجنسيات تقف فى مقدمة الجهود الضاغطة من أجل تنفيذ برامج المعونة.

فهل من الممكن أن يكون هدف المعونة الأمريكية هو تنشيط اقتصاديات بلادنا؟ ويجيب المؤلفون أنه بينما تنوء اقتصاديات العالم الثالث بأعباء الديون الثقيلة، فإن ما تقترحه المعونات أساسًا إنما هو تنشيط زيادة مبيعات حفنة من الشركات العملاقة فى الدول «المانحة».

وعلى الفقراء أن يسددوا من أشد احتياجاتهم ضرورة هذه القروض التى تسمى معونة وما يترتب عليها من فوائد مضاعفة والواقع أن هذه المعونات تؤدى إلى تفاقم الجوع والقمع من خلال ما تضيفه لقوة مجموعات النخبة المحلية والعالمية التى تغتصب الثروات التى هى حق مشروع للجياع».

وعلينا أن نفهم دائمًا أنه «ليس هناك علاج يمنح من الخارج لهيكل اقتصادى وسياسى تسيطر عليه القلة ويمكنه أن يقدم منفعة حقيقية لأولئك الذين يعيشون فى القاع إن «الغذاء من أجل العمل» مثله مثل «المعونة الغذائية» و«مساعدات التنمية الرسمية» كلها فى الحقيقة تقوى نفس البنية التى تخلق الفقر».

ولكن أليس من الطبيعى جدًا أن تكون المعونات الغذائية الأمريكية ضرورية جدًا فى حالة المجاعات؟ يجيب المؤلفون عن ذلك فيقولون:

«لقد تعلمنا أنه حتى فى أوقات الطوارئ بل خصوصًا فى أوقات الطوارئ - يمكن للمعونة الغذائية أن تحفظ «أمن» الأغنياء والأقوياء من «أذى» الأغلبية الفقيرة».

وفى يوم الحادى والعشرين من شهر المحرم ١٤٠٨هـ أذاعت لندن الخبر التالى نقلا عن جريدة التايمز - أن دول السوق المشتركة قد سبق أن قررت إمداد الأقطار الفقيرة بشحنات من الأغذية، ثم انبثقت لجنة خاصة من هيئة تدقيق الحسابات المتابعة للموضوع، وقد قامت اللجنة بمهمتها، ورفعت تقريرها المفصل، وفيه أن مقادير من الأغذية قد وزعت على الأقطار المنكوبة ولكنها أغذية معطوبة.. وخص التقرير تونس بالذكر إذ يقول إن زيوت الطعام التى تلقتها تونس كانت ممزوجة بمادة مشبوهة مخلوطة مع الغائط..

ثم فى نشرة الساعة السادسة من مساء ذلك اليوم أعيد الخبر نفسه إلا كلمة الغائط فاستبدل بها «الفضلات البشرية» وكأنما قصد بذلك إلى التوكيد على وقوع الجريمة بكل فظاعتها[١٠].

السيطرة الأمريكية والتصنيع الساداتى للنخب الاقتصادية البراجماتية فى مصر:

بداية مما سماه السادات بالانفتاح الاقتصادى ونحن نتقدم خطوة خطوة نحو السيطرة الأمريكية الكاملة على الاقتصاد المصرى حتى كانت ذروة ذلك فى مايو ١٩٧٧ حين اكتسبت المؤسسات الاقتصادية الكبرى ذات التوجه الأمريكى مثل وكالة التنمية

(١٠) التطبيع أو الهيمنة الاقتصادية.

الدولية.. صندوق النقد الدولى، البنك الدولى للإنشاءات والتعمير. الشركات والمصارف الدولية، أقول حين اكتسبت هذه المؤسسات حق الإشراف الشرعى على إدارة الاقتصاد المصرى لقاء تسيد أزمة الديون الحادة فى تلك الفترة وقد تم ذلك فى سرية بالغة وبذلك صارت للولايات المتحدة الهيمنة الكاملة على اقتصادنا ولم يعد هناك سر اقتصادى واحد لا تعلمه والتزمت الحكومة المصرية بتنفيذ البرنامج الذى وضعه صندوق النقد وأن تقبل العقاب الذى يفرضه الصندوق ومعه كل الجهات الدائنة إذا هى خرجت عن جوهر البرنامج يقول الأستاذ عادل حسين[١١] «إن التسليم فى الجبهة الاقتصادية كان فى أيار/مايو ١٩٧٧ وبعد هذا بأشهر قليلة كانت رحلة القدس أى التسليم فى جبهة الصراع السياسى».

لقد تحددت موارد الاقتصاد المصرى فى النفط والقناة والسياحة والعاملين فى الخارج هذه القطاعات خططت الجهات الخارجية الخاضعة لتوجيهات أمريكا لتنميتها واحتفت كل سنة بنتائجها وزعمت فى ضوء هذه النتائج أن الناتج المحلى «والقوى» الإجمالى ينمو بمعدلات لم يسبق لها مثيل وبشرت بأن متاعب مصر ستنتهى سنة ١٩٨٠ «وهى السنة التى «تصادف» أنها سنة قطع «المساعدات» الخليجية. وسماها السادات سنة الرخاء، ويلاحظ طبعًا أن هذه الموارد لا تنتج عن جهد تنموى حقيقى، أى الزيادات الكبيرة فى القيمة المضافة لم تتولد أساسًا من زيادة فى إنتاجية قوة العمل وخصوصًا فى قطاعى الزراعية والصناعة، بل إن العمالة فى قطاعات النفط والقناة والسياحة لا تزيد عن ٣٪ من قوة العمل ونمو قطاع العاملين فى الخارج كان على حساب قدرة الإنتاج المحلى عن النمو كل هذا صحيح لكن أخطر من ذلك أن استمرار هذه الأنشطة أو نموها يعتمد بالدرجة الأولى على قرارات خارجية، وهذا تأكيد لتبعية هيكل الاقتصاد المصرى للخارج وأخطر من ذلك، أيضًا، أن الموارد المتولدة من هذه القطاعات أصبحت تمثل ٤٥٪ من الإنتاج الإجمالى و٥٥٪ من القيمة المضافة و٧٠٪ تقريبًا من جملة الإيرادات الجارية فى ميزان المدفوعات وهذه الموارد ترتبط وجودًا وعدمًا برضاء إسرائيل، أو عدم رضائها «ومن يحالفها» عن سلوكنا «فبمجرد نشوب قتال تتوقف هذه الموارد، كلها أو معظمها ويعنى ذلك أن التكلفة الاقتصادية لقرار مصرى بالحرب «للدفاع» وللهجوم تكاد تكون غير محتملة ولا شك أن هذا يعنى دعمًا

---

(١١) التطبيع أو الهيمنة الاقتصادية.

هائلا للأمن الإسرائيلى ومضافًا إلى المناطق المنزوعة السلاح والقوات الجوية، وهو انتقاص من منعة الأمن القومى المصرى بالقدر نفسه وهو أداة فى يد إسرائيل وأمريكا لابتزاز السياسة المصرية وفرض إرادتهما عليها بصورة مستمرة أضف إلى ذلك الاقتصاد المصرى والقروض الاقتصادية المقدمة التى تمثل أداة للتدخل المباشر فى إدارة الاقتصاد المصرى على المستوى الكلى.. والقطاعى والجزئى وأداة لتحديد اتجاهات التنمية وفق المصطلحات الاستراتيجية الأمريكية والإسرائيلية وعلى حد تعبير الأستاذ عادل حسين[١٢] «فإن المساعدات الأمريكية لمصر هى فى الواقع مساعدات غير مباشرة لإسرائيل».

وهكذا كانت السياسة الاقتصادية المفروضة هى الانفتاح التام على الأسواق الغربية بشروط هذه الأسواق فهذه هى مهمة صندوق النقد الدولى بتعليماته التقليدية تحت اسم «تحرير التجارة» وإطلاق حركة الأسعار المحلية كى يتناظر هيكلها مع الهيكل القائم فى الأسواق الغربية وتقليص سيطرة الدولة على إدارة الاقتصاد مع تحرير هذه الأسعار من سيطرة السلطات المحلية وإخضاعها لهيكل الأسعار المتحيز عندنا والذى تحدده الأسواق الغربية.

لقد أدى قصور الصلاحيات المركزية فى مجال التجارة الخارجية إلى عجز متفاقم ومزمن فى ميزان المدفوعات ونشأ عن ذلك تضاد مستمر فى حجم الدين الخارجى الذى بلغ عشرات المليارات من الدولارات والذى يمثل أداة ضغط رهيبة تساعد الجبهات الدائنة على فرض شروطها السياسية والاقتصادية فى مقابل إعادة جدولة الديون الخانقة ولقد ذكرنا سابقًا كيف توجه هذه الشروط لخدمة الرأسمالية العالمية وعلى رأسها أمريكا والنخب الرأسمالية القوية فى دول العالم الثالث أ. هـ.

إن القطاع العام وصل إلى النهاية بعد مواجهات متصلة مع خيرة قياداته وقد هزمت المقاومة أو كادت تهزم من خلال التطورات السياسية العامة تحت حكم السادات.

ومن خلال التطورات الاقتصادية الإجمالية التى فتحت باب الاستيراد والتهريب «من بورسعيد وغيرها» بلا حساب، وخفضت سعر الصرف مرة تلو مرة، وحلت المؤسسات العامة «أداة التخطيط والتكامل القطاعى». وضربت المقاومة أيضًا بواسطة عمليات التطهير المتابعة لقيادات القطاع العام المتمرسة، وبواسطة التشهير الإعلامى بإنجازاتهم

(١٢) التطبيع أو الهيمنة الاقتصادية.

وكفاءاتهم، ثم بواسطة استنزاف المهارات بمستوياتها المختلفة بالهجرة أو بالعمل فى المشاريع الانفتاحية بأجور أعلى» وكما يقول الأستاذ عادل حسين فلقد تم «دعم دور المجموعة الاستشارية التنظيمية للحكومة عن طريق إنشاء طاقم محترف واستخدامه، فهذا أساس ضرورى لصنع السياسة ولعملية التنفيذ على مستوى ما دون مجلس الوزراء. هذه حاجات ذات أولوية قصوى»، هذه العملية تهدف إلى إحكام السيطرة المستقرة على قلب الجهاز التنفيذى من قبل رجال موثوق بهم[١٣].

فى الحقيقة فلقد خلف السادات البلاد بعده تركة منهوبة ما بين سيطرة اقتصادية أمريكية تخنقها بتلال من الديون الرهيبة وبين مجموعات من الرأسماليين البراجماتيين «الطفيليين فى اللغة الصحفية الدارجة» الذين نموا نموًا سرطانيًا فى عهده، وكما يقول الدكتور رمزى زكى فى كتابه «أزمة مصر الاقتصادية»: «فلقد ثبت أن هذا النمط الانفتاحى كان تربة خصبة لاستشراء الفساد فى المجتمع المصرى فمع النمو السرطانى الذى حدث فى نشاط القطاع الخاص الطفيلى، ومع تزايد نشاط رءوس الأموال الأجنبية الباحثة عن الربح السريع، ومع تراخى سلطة الدولة فى إدارة وتوجيه عجلة النشاط الاقتصادى كان من الطبيعى أن تتزايد الدخول الطفيلية لبعض الفئات الاجتماعية من خلال عمليات السمسرة والمضاربة والتهريب والرشوة، وأن تتراكم الثروات بالملايين لدى أفراد هذه الفئات.

إن الاستثمارات الرأسمالية الانفتاحية - بعد فترات السماح الضرائبى والإعفاء الجمركى ثم عمليات التهريب والغش والرشوة والاستغلال - تظل رهينة لصالح النخبة المحدودة من الرأسماليين البراجماتيين، أضف إلى ذلك ما يقومون به من تحويلات مستمرة لأموالهم إلى البنوك الأجنبية والمشاريع الوهمية التى تتم تحت أعين بعض المسئولين المنحرفين الذين قبضوا عمولاتهم بالطبع وما يكشف عنه المدعى الاشتراكى من عمليات النهب المفجعة لبنوكها تحت اسم تسهيل القروض الاستثمارية حتى ينتهى الأمر - بعد أن يكون قد استفحل وشاعت رائحته الفاسدة - إلى الهروب بكل تلك الأموال وتكون النتيجة أن يزداد عويل الحكومة حدة، أما ذلك الشعب الفريد الذى يراقب فى صمت عملية امتصاص دمائه، فما عليه سوى أن يتجرع فى صمت أيضًا غيظه ومرارته.

---

(١٣) راجع بتوسع المرجع السابق.

إن الحالة التى ترك السادات البلاد عليها لا تجعل الشعب المصرى وحده مستحقًا للرثاء بل إن أى حكومة تحاول أن تعمل على خروج البلاد من هذا المأزق فهى أيضًا جديرة بالرثاء، ويتخلف عن ذلك سؤال مهم وجدير ببحث المحللين وهو ماذا كان من الممكن أن يحققه الرئيس مبارك لو كان مجيئه فى ظروف أفضل من تلك الظروف المؤسفة التى تركه فيها الرئيس السادات؟؟

ولا بد أن نكرر أننا لسنا ضد المشاريع الخاصة أو الملكية الخاصة ولكن فى إطار الشروط والمحددات الإسلامية التى تهدف إلى خدمة المجتمع والتوازن بين مصالح الأفراد والجماعة فيه[١٤]، ولكن كل الذى نقصده بالنقد هنا هو تلك النخب الرأسمالية التى تقودها القيم البراجماتية اللاإنسانية والتى صنعتها الفترة الساداتية الأمريكية.

إن القراصنة البراجماتيين لا يتورعون عن فعل أى بشاعة ما دامت ستؤدى إلى منفعتهم الخاصة، حتى صار من المألوف جدًا أن يقرأ الناس فى الجرائد أخبار شحنات الأغذية الملوثة بالإشعاع التى يستوردها لنا هؤلاء، وأخبار خطف الأطفال وغيرهم لتمزيقهم وتحويلهم إلى مجموعة من الأجهزة العضوية التى يصدرونها إلى السادة الغربيين لتستخدم كقطع غيار لأجهزتهم العضوية التى أتلفتها حضارتهم المادية المدمرة.

ويا للمفارقة البشعة نحن نصدر إليهم أجهزتنا العضوية كقطع غيار لأجسادهم وهم يمنون علينا بمعونات غذائية منتجة من غائط الإنسان الغربى.

وفى النهاية فإن مستهلكى حياة الشعب المصرى من أمثال السادات وعصمت السادات وتوفيق عبدالحى وهدى عبدالمنعم وغيرهم ممن افتضح أمرهم، وأضعافهم ممن لم يفتضح أمرهم قد صاروا قدوة ومثلا أعلى للكثيرين ممن رسخت فيهم القيم البراجماتية الأمريكية والذين لم تعد لهم القابلية فقط على الغش والاختلاس والرشوة والاستغلال والتهريب والإتجار بالعملة والمخدرات بل صاروا يعلنون بكل وقاحة عن استعدادهم للقيام بأى عمل يمكنهم من الحصول السريع على المال حتى ولو كان إدارة شقق الدعارة.

---

(١٤) انظر كتاب: الإسلام دين وحضارة للأستاذ عادل حسين.

أثر الفقر على سرعة انتشار القيم البراجماتية

أثر الفقر على سرعة انتشار القيم البراجماتية:

«كاد الفقر أن يكون كفرًا».

هكذا كان يتحدث الرسول ﷺ عن الفقر حديث الراعى الحنون المشفق على أمته.

ولهذا أرشد الناس إلى النجاة قائلا: «من كان معه فضل ظهر فليعد به على من لا ظهر له ومن كان له فضل زاد فليعد به على من لا زاد له».

يقول أبو سعيد الخدرى راوى الحديث: «فذكر من أصناف المال ما ذكر حتى رأينا أنه لا حق لأحد منا فى فضل».

أما الإمام على فقد كان يصف الفقر قائلا: «الفقر الموت الأكبر.. الفقر يخرس الفَطِن عن حجته، والمقل غريب فى بلدته. الغِنَى فى الغربة وطن، والفقر فى الوطن غربة».

وكانت المسألة عنده تتلخص فى الآتى: «إن الله وضع فى أموال الأغنياء أقوات الفقراء، فما جاع فقير إلا بما متع به غنى والله سائلهم عن ذلك».

هذه كانت نظرة الإسلام للفقر والفقراء، فما هى نظرة الأمريكيين لهما؟

يحاول علماء الاجتماع الأمريكيون وأتباعهم عندنا ترويج فكرة مؤداها أن الفقر حالة عقليةُ، وأن معاناة الناس من الفقر أو البطالة ترجع فى الأساس إلى المواريث الأنثرابولوجية للنسق الاجتماعى الذى يعيش فيه الفقراء.

والمراد بذلك أن الفقر حالة يعود سببها إلى تخلف الوعى الثقافى للفقراء وميلهم الطبيعى إلى الكسل والانحطاط، وعاداتهم المعيشية غير الحضارية بالإضافة إلى سوء تفكيرهم وتدبيرهم واستخدامهم للأموال التى تقع تحت حوزتهم.

وهكذا يتم ترويج نظرية شديدة التضليل تعمل على التدعيم النظرى لما تقوم به النخب الاقتصادية من تكديس ثروات، وكأن حالة الفقر العام التى يعانى منها قسم كبير من البشر لا ترجع فى شىء إلا إلى حالتهم العقلية والأنثرابولوجية وليس إلى الاستغلال البشع الذى تمارسه تلك النخب الاقتصادية عليهم.

وعلى هذا فإن الفقراء مطالبون دائمًا بالعمل على ازدياد وعيهم وثقافتهم ونبذهم

للكسل والإهمال والانحطاط المصاحب لهم، والسعى من أجل زيادة قدرتهم على الإنتاج، وترشيد الإنفاق والادخار.

كيف يحدث ذلك؟ هل من الممكن أن يسأل أحد نفسه هذا السؤال؟ وهل من الممكن أن نتساءل نحن عن تلك الظروف والإمكانات المهيئة لهم لكى يقوموا بما هم مطالبون به؟ ثم لماذا هم وحدهم المطالبون بذلك؟ فى الحقيقة فإن أحدًا لا يهتم بالتفكير فى أسئلة كهذه، لأن المسألة كلها تدليس فى تدليس، فالمقصود فى النهاية هو ترسيخ أسباب وهمية للفقر فى الوعى العام بحيث لا يعود لوم الفقراء إلا على أنفسهم وتأصيل نظرى مزيف للحالة المتردية التى يعيشون فيها على أنها قدر محتوم ولا مفر منه.

وعلى هذا فليس غريبًا أن تكون أمريكا من أكثر الدول اهتمامًا بالأبحاث الاجتماعية والأنثروبولوجية.

والفطر السليمة تدرك أنه من الطبيعى جدًا أن تكون هناك علاقة بين الفقر وبين الشرف والتزام الإنسان بالقيم الدينية فى عالم لا يتورع الناس فيه عن فعل أى شىء فى سبيل الحصول على المال والثروة.

ولكن باحتقار شديد يعتبر البراجماتيون الشرف والأخلاق والقيم الدينية هى ملامح الحالة العقلية المتخلفة التى يربطون بينها وبين الفقر.

فمن نافلة القول لدى البراجماتيين أن طالب الثروة - وهو يرادف عندهم طالب التقدم الحضارى - لا بد له من أن يتخطى هذه المفاهيم المتخلفة الزائفة التى تسمى الشرف والأخلاق والقيم الدينية.

ولكن ما يهم دراستنا هنا هو أن أثر الفقر فى الشعب المصرى يمثل نمطًا خاصًا يكاد يختلف عن أثره فى باقى الشعوب الأخرى.

فالشعب المصرى يتميز بوجه عام - عن باقى الشعوب الأخرى بعدة خصائص وهذه الخصائص - بعد تفاعلها مع عوامل أخرى - قد تكون سببًا فى تقدمه وارتقائه، وقد تكون سببًا فى ارتكانه وخنوعه وخضوعه واستسلامه، وهو ما غَرَّ البعض ممن التبس عليهم الأمر بتوجيه النقد الشديد لهذا الشعب على أنه شعب ضعيف يألف الذل والاستعباد.

أما الحقيقة فإن الشعب المصرى شعب حضارى بشكل عميق وتبدو مظاهر تلك الروح الحضارية فى عشقه الفريد للحياة وحذره من المجازفة والمخاطرة وارتباطه

بالنظام الاجتماعى الذى لا يرضى عنه بديلا وكأن الابتعاد عن هذا النظام هو بالنسبة له بمثابة خروج السمك من الماء.

هذا بالإضافة إلى أن الشعب المصرى شعب عقائدى للدرجة التى لا يستطيع معها دفعه وتحريكه إلا من خلال عقيدته وما تلزمه به من أفعال وأحوال، وذلك لأن العقيدة تمثل للشعب المصرى الحياة الأخرى التى يهون عليه من أجلها فقط أن يضحى بحياته الدنيوية المعشوقة لديه مهما كانت صعوبتها وإذلالها له.

فإذا ما ضعفت العقائد فى نفوس هذا الشعب، كان ذلك الصبر والتحمل والخنوع الناتجة عن عشقه الحضارى للحياة، أما إذا قويت فى نفوسه العقائد وترسخ إيمانه بالحياة الأخرى، توهجت إرادته وعصف كالريح بكل عروش الظلم والاستعلاء والاستعباد.

فهذا هو سر هذا الشعب عندما استطاع أن يقهر كل شعوب أوروبا الصليبية دفاعًا عن دينه وعقيدته، وعندما أنقذ الدنيا من الدمار الذى كانت ستلحقه بها جحافل الجيوش التتارية لنفس السبب أيضًا، وهذا أيضًا ما يفسر قول الرسول ﷺ عن المصريين أنهم «خير أجناد الأرض» وأنهم «فى رباط إلى يوم القيامة».

والذى نريده من الكلام السابق هو التركيز على أن أثر الفقر الطاحن فى الشعب المصرى يختلف اختلافًا كبيرًا عن أثره فى الشعوب الأخرى فهو مثلا لا يؤدى به ضيق المعيشة وافتقاد القوت إلى الهجرة القاطعة والنزوح عن الديار والسياحة فى الأرض كما يحدث بالنسبة للشعوب الأخرى، ولكن الذى يحدث أن الفرد والأسرة التى تتعرض لذلك تنتقل من مكانتها فى النظام الاجتماعى إلى حالة من التشبث بذيل ذلك النظام.

وبدلا من أن يؤدى ازدياد الفقر إلى طرد التجمعات البشرية المطحونة إلى خارج الأماكن الحضرية، يؤدى إلى تكثفها اللاإنسانى فى الأماكن الشديدة الضيق المتمثلة فى الحوارى والأزقة والتى تتكدس فيها الحجرات المتناثرة بغير تنظيم ولا ترتيب.

والجوع فى الشعب المصرى جوع حضرى أى أنه الجوع الذى لا يستطيع تحمله أصحابه المنغمسون فى الخصب المتعودون للأدم والسمن. «فإذا خولف (بأمعائهم) العادة بقلة الأقوات، وفقدان الأدم واستعمال الخشن غير المألوف من الغذاء أسرع إلى المعى (الأمعاء) اليبس والانكماش وهو عضو ضعيف فى الغاية فيسرع إليه المرض»[1].

---

(١) ابن خلدون: المقدمة.

وعلى ذلك فإن الفقر الطاحن لا يؤدى بالشعب المصرى إلى الهجرة أو الموت أو الثورة وإنما يؤدى به إلى مرارة افتقاد متع الحياة وإلى الضعف والخنوع والاستسلام والتدحرج إلى ذيل النظام الاجتماعى.

الخلاصة: إن الأثر الحقيقى للفقر عليه هو انسحاق الكرامة، وافتقاد الهوية، والاستسلام لتيارات الرياح الفكرية المختلفة التى قد تستطيع أن تخرجه من قماقم الفقر والتعاسة التى يعيش فيها.

إن البعض يهون من أثر الفقر على قابلية الشعب للأفكار النفعية المنحرفة وهم فى ذلك فريقان الأول يدعى ادعاء مستفزًا وهو محدودية الطبقة الفقيرة عندنا أما الفريق الثانى فإنه ينفى ذلك مستشهدًا بوجود شرائح متميزة من التيار الإسلامى تنتمى إلى الطبقات الفقيرة.

والفريق الأول يعول فى كلامه على التقسيم الغربى للمجتمعات «طبقة غنية - طبقة متوسطة - طبقة فقيرة» ثم يتحدث عن محدودية هذه الطبقة الأخيرة عندنا، مع أن الحقيقة فيما يسمونه بالطبقة المتوسطة «وهى الطبقة الأكثر عددًا» هى أنها عبارة عن مجموعة من الشرائح الاجتماعية المتدرجة فى سلم كبير بين الغنى والفقر، ولكن أغلب شرائح هذه الطبقة يعيش فى حالة من الفقر المدقع المتستر فى بعض المظاهر الاجتماعية المرتبطة بالطبقة المتوسطة أما الفريق الثانى فإنه يبنى موقفه على الاستثناء وليس القاعدة فلا شك أنه توجد عناصر إسلامية شديدة التدين فى الطبقات الفقيرة بل، وقد يكون أثر الفقر على تدينها طرديًا وليس عكسيًا، ولكننا نتكلم فى موضوعنا هنا عن غالبية من الفقراء العوام المحرومين الجائعين الذين لا يجدون القوت الضرورى أو المأوى الطبيعى، أى الذين لا يجدون الحد الأدنى من الحاجات الضرورية لحفظ الكرامة بوجه عام، هذه الأشياء التى تمنحهم القدرة على التفكير أو الالتزام الدينى، إننى أتحدث عن الملايين من النفوس الضعيفة المختنقة بثوب الإمكانيات المعيشية الشديدة الضيق، والطامحة لكل ما هو نافع مادى فى غيبة من الوعى الدينى والالتزام العقائدى.

إن أفضل من يحدثنا عن العلاقة بين الفقر المدقع وإيمان الإنسان هو رسولنا الرحيم ﷺ الذى كان يقدر الضعف البشرى ويتعامل معه بواقعية ما أحوجنا إليها فى هذا الزمان، يقول الرسول ﷺ: «كاد الفقر أن يكون كفرًا» ويستعيذ بالله من الكفر

والفقر فيسأله رجل: أيعدلان؟ فيجيب: «بلى.. ويقول أيضًا: «خير عون على تقوى الله المال».

أما سلفنا الصالح فكانوا يقولون عن هذه العلاقة الوثيقة بين الفقر والكفر أنه ما ذهب الفقر إلى بلد إلا وقال له الكفر خذنى معك. ويقول الإمام الغزالى[٢] فى هذا الشأن «إن نظام الدين لا يحصل إلا بنظام الدنيا.. ونظام الدين بالمعرفة والعبادة لا يتوصل إليه إلا بصحة البدن وبقاء الحياة وسلامة قدر الحاجات من الكسوة والمسكن والأقوات والأمن من سائر الآفات، ولعمرى من أصبح آمنًا فى سربه معافى فى بدنه وعنده قوت يومه فكأنما حيزت له الدنيا بحذافيرها، وليس يأمن الإنسان على روحه وبدنه وماله ومسكنه وقوته فى جميع الأحوال بل فى بعضها، فلا ينتظم الدين إلا بتحقيق الأمن على هذه المهمات الضرورية وإلا فمن كان جميع أوقاته مستغرقًا حراسة نفسه من سيوف الظلمة وطلب قوته من وجوه الغلبة متى يتفرغ للعلم والعمل وهما وسيلتاه إلى سعادة الآخرة؟ فإذن بان نظام الدنيا أعنى أن مقادير الحاجة شرط لنظام الدين».

فى الحقيقة فإن الذى يحدث فى الواقع يؤكد أنه ليس حلالا للفقراء ما هو حلال للأغنياء ولا حتى فيما هم فيه يفكرون. آه ما أعظم جرم الفقير مهما هفا خطؤه وما أهون خطأ الغنى مهما كان جرمه، الفقير منتهك الحرمة مستخف الشأن، مستصغر القدر هين فى عيون الخلق تتحفز الناس ضده لأتفه الأسباب، لا يشفع له علم أو خلق أو دين، طمُوحه جنون، وتسامحه ضعف، ووده نفاق، وزهده عجز وعلمه تفلسف، وراحته قلق، وقلقه جحيم، وشرفه عجز ومرض، يطمع فيه الأعداء ويهرب منه الصحاب، ويتطاول عليه الحمقى بلا سبب وفى غياب الشرع صار بلا دية وما أهون على الناس من كان بلا دية ولكن من ذا الذى يستطيع أن يدرك أثر الفقر على الفقراء إلا الفقراء؟ ومن ذا الذى يستطيع أن يعبر عن ذلك سواهم؟!

والمصيبة الكبرى أن الفقراء أنفسهم لا يملكون القدرة على التعبير عن أنفسهم، لأن الكتابة فى حد ذاتها - وكذلك القراءة - تمثل نوعًا من الإمكانيات الترفية التى لا يمتلكها الفقراء الذين لا يكادون يفكرون أو بقول أدق لا يكادون يملكون القدرة على أن يفكروا إلا فى كيفية الحصول على أقصى الحاجات المعيشية ضرورة.

---

(٢) الاقتصاد فى الاعتقاد.

وقد يندهش البعض إذا قلت إن أغلب الكُتّاب الذين يدافعون عن الفقراء ينتمون فى الأصل إلى الطبقة الغنية أو إلى الشرائح الاجتماعية المتيسرة من الطبقة المتوسطة ومن النادر جدًا أن يستطيع أحد الفقراء الخروج من دوامات الفقر والحصول على الإمكانيات المادية والعقلية التى يستطيع بها التعبير عما يفعل الفقر فى الفقراء.

إن الجائع لا يستطيع أن يفكر إلا فى أمر واحد هو كيف يأكل؟

إن أبسط حقوق الإنسان أن يكون له مأوى يناسب طبيعته الإنسانية، وهو مطلب بعيد المنال بالنسبة للغالبية العامة من الشعب المصرى، فالكثير من الأحياء الشعبية التى تمثل أقصى تركز سكانى فى مصر تجد أن النمط المعتاد للمعيشة فيها هو أن تعيش كل أسرة فى حجرة واحدة أو حجرتين ويجمع البيت الواحد عددًا كبيرًا من الأسر التى تعيش فى تلك الحجرات التى تتكدس بشكل عشوائى والتى يشترك كل مجموعة منها فى دورة مياه واحدة، ومع الحالات المستمرة لطفح المجارى يكون من الصعوبة بمكان تصور مدى الضنك وسوء المعيشة والاختناق الذى يعيش فيه هؤلاء البشر.

إن الهواء نفسه قد وقع تحت سيطرة واستغلال الرأسماليين المتحكمين فى رقاب العباد، لأنه من غير المناسب أن نسمى ما يستنشقه الفقراء فى الغرف المخنوقة بطفح المجارى هواء، ونقول إنهم يتساوون فى حق استنشاق الهواء مع ساكنى الشقق الفخمة والفيلات والقصور المطلة على النيل.

لقد كنت على صلة بأسرة مكونة من سبعة أشخاص أو أكثر تعيش فى غرفة صغيرة واحدة لها شرفة صغيرة على مسقط للهواء و«منور» صغير وصالة صغيرة ليس لها أى سبيل للتهوية غير أن يظل باب المسكن مفتوحًا دائمًا..

ومع أنه ينتمى إلى هذه الأسرة عدد من الجامعيين إناثًا وذكورًا، فما كان الذى يسيطر علىَّ فى تلك الفترة - التساؤل عن كيفية معيشتهم وكيفية تحصيلهم لدروسهم أو التساؤل عن كيفية معاشرة الزوج لزوجته مع وجود هذا العدد الكبير من الأبناء الفتيان والفتيات فى هذا المكان الضيق؟ إنما السؤال الذى كان يحيرنى دائمًا هو كيف يتنفسون؟!

والكل يعلم أن هذا الاختناق السكانى هو خير بيئة لشتى الانحرافات وأهمها الانحرافات الجنسية على وجه الخصوص.

ومع توقف الامتداد الطبيعى للعمران ومحدودية المساكن الجديدة التى صارت فرص

الحصول عليها بمثابة حلم من الأحلام، ومع الأثر الطبيعى للزمن فى القِدَم والبلى، فقد الكثير من هؤلاء التعساء مساكنهم بسبب هروبهم من المساكن الآيلة للسقوط بل وسقوط الكثيرين منهم قتلى ضحايا تشبثهم اللا اختيارى بتلك المنازل التى انهارت جدرانها عليهم فى النهاية.

والنتيجة أن ملايين من المصريين لا يجدون مأوى لهم سوى الخيام والقبور وأرصفة الشوارع، دع عنك حاجة الشباب الملحة للزواج الذى كاد أن يكون أمرًا مستحيلا، واستذلال الشباب اليومى للبراجماتيين الذين يمتلكون فرص العمل حتى تتآكل الكرامة ويستقر الإحباط فى النفوس، أضف إلى ذلك انحسار فرص العمل فى الخارج فى السنوات الأخيرة.

فى مجتمع مثل هذا المجتمع الذى يحاصر الإنسان فيه الفقر من كل الجهات ويجعله عاجزًا عن الحصول على أقل الإمكانيات التى قد تسمح له بإقامة أى حد أدنى للمعيشة، بينما هو يرى على الجانب الآخر أولئك البراجماتيين الذين جعلوا الربح والاستغلال دينهم ومذهبهم ضاربين عرض الحائط بكل حدود الحلال والحرام يعيشون فى حياة من الترف والبذخ والرفاهية المستفزة تكاد تقترب من حياة الملوك والأمراء أفلا يكون هذا المجتمع - مع العوامل الأخرى التى أشرنا إليها سابقًا - خير بيئة لانتشار المفاهيم البراجماتية النفعية المادية!! والذى لا يجد قوت يومه ولا يجد مأوى له سوى البيوت الآيلة للسقوط أو الغرف الضيقة المخنوقة بطفح المجارى أو الخيام وأرصفة الشوارع والقبور، ولا يجد متنفسًا شرعيًا لحاجاته الجنسية الطبيعية الملحة فى الوقت الذى تتوافر فيه الملذات المحرمة بسهولة ويسر أفلا يكون من السهل عليه أن يتقبل أية مفاهيم نفعية منحرفة ما دامت ستسهل له عملية الحصول على المال بأى طريقة؟

فإذا لم يكن هذا صحيحًا فماذا يعنى إذن قول الرسول ﷺ «كاد الفقر أن يكون كفرًا»؟

الباب الثانى

الآثار المدمرة للأفكار البراجماتية
على المجتمع المصرى

الآثار المدمرة للأفكار البراجماتية على المجتمع المصرى

أولا: الآثار العامة

مدخل :

فى الحقيقة فإننا لا بد أن نعى جيدًا أن الأفكار الفلسفية عند تطبيق الناس العملى لها تختلف إلى حد كبير عن الطرح النظرى لها لأن هذه الأفكار تتفاعل مع المواريث الأنثرابولوجية للمجتمع الذى تطبق فيه وتتكيف معها وينتج عن ذلك نسق جديد من المفاهيم والأفكار تحمل فى طابعها الأساسى نفس القواعد الفلسفية النظرية ولكنها تتميز عنها بسهولة فهمها ويسر تطبيقها العملى، ولقد ذكرنا فيما سبق كيف تحولت الأفكار البراجماتية فى مجتمع مثل المجتمع الأمريكى إلى عدة تعاليم حاولنا أن نحددها فى التعاليم العشرة التى ذكرناها.

ولكن هذه المفاهيم والأفكار والتعاليم بعد غزوها وتفاعلها مع المكونات الأنثرابولوجية الحضارية «أى المكونات الأثنولوجية»[1] للمجتمع المصرى وما يشمله ذلك من مواريث دينية واجتماعية وحضارية وثقافية له، فإنها بدورها سوف تأخذ طابعها المصرى ويتمخض عن ذلك نسق جديد من المفاهيم والأفكار والتعاليم التى تتميز أيضًا بالسهولة وبالبساطة ولكنها تظل حاملة فى عمقها لنفس الأفكار الفلسفية البراجماتية بعد أن يترك الواقع الأنثرابولوجى المصرى بصماته عليها.

إن الكثيرين منا يعلمون جيدًا ما هى المساوئ البشعة للمجتمع الأمريكى ولكن ما فعلته البراجماتية فى مجتمع كالمجتمع المصرى الغالبية الساحقة فيه من الفقراء

---

(١) الأنثرابولوجية الحضارية أو الأثنولوجية: علم الإنسان الحضارى وهى تدرس الحضارة الإنسانية بأوسع معانى مصطلح الحضارة المادية والاجتماعية والروحية والمعنوية: د. محمد رياض «الإنسان»: دراسة فى النوع والحضارة «دار الإنسان».

وراجع أيضًا «قصة الأنثرابولوجية» للدكتور حسين فهيم من سلسلة عالم المعرفة الكويت».

المستضعفين المقهورين لأبشع آلاف المرات مما يحدث من مساوئ فى مجتمع مثل المجتمع الأمريكى.

لقد تسربت الأفكار والمفاهيم الأمريكية البراجماتية من خلال طرق الغزو الفكرى الذى سبق أن تحدثنا عنا إلى الجماهير من أبناء الشعب المصرى وإن كانت النخب الانتهازية لم تتردد طويلا فى اتخاذ هذه الأفكار والتعاليم فلسفة ومنهاجًا وأسلوب حياة لها، فإن القوى الاستعمارية المستفيدة لم تترك للقطاع العريض من أبناء هذا المجتمع الخيار من أجل قبول هذه المفاهيم والأفكار أو رفضها، ولكنها استطاعت فى سنوات محدودة للغاية - أن تضع جماهير هذا الشعب المحرومة المحدودة الثقافة بين وتدى الرحى، بين طحن الفقر والجوع والبطالة وانعدام المأوى والتشرد من ناحية وبين استثارة ابتعاث رغبات وطموحات هى غاية فى الترف والخيال حيث لا يمكن تحقيقها بأى وسيلة من الوسائل المشروعة، وبوقوع الناس تحت هذه الضغوط الطاحنة ضاق نطاق الاختيار الذى أتيح لهم فانزلقت أقدامهم إلى هوة انتهاج الأساليب البراجماتية على أساس أنها أكثر الأساليب ملاءمة وواقعية للظروف المحيطة بهم.

إن إلقاء الضوء المستمر من النخب الحاكمة على القيم البراجماتية وما تمارسه من ضغوط من أجل ترسيخها فى وجدان هذا الشعب المسكين قد عمل عمله:

حيث تم أولا تسطيح المفاهيم والقيم المتوارثة ذات الأصول الإسلامية حيث آلت - بعمليات التأويل المستمر وكذلك بالاعتذار عنها بادعاء عدم ملاءمتها لضغوط الواقع إلى مجرد هلاميات عاجزة ليس لها حول ولا قوة، فى نفس الوقت الذى تمكنت فيه القيم والمفاهيم البراجماتية من السيطرة على دوافع السلوك عند هذا الشعب إن لم يكن قد تم لها بعد الحصول على شرعيتها. ولكن تحت الإلحاح والضغط المستمر تم تنحية المفاهيم والقيم الأصيلة وترسخت المفاهيم والقيم البراجماتية حيث استطاعت الحصول على شرعيتها كنتيجة طبيعية أدى إليها تحول السلوكيات المنعكسة عنها من مجرد تصرفات شاذة تدفع إليها الضرورة إلى تصرفات ضرورية ينتهجها الجميع ولا يقبل الواقع سواها، ثم أتت مرحلة أخيرة استقرت هذه المفاهيم والقيم فى النفوس بعد تدافع الناس على انتهاج التصرفات والسلوكيات التى تقتضيها، فصارت بذلك الأساس القيمى الذى يحكم من خلالها مدى شرعية أو صحة المفاهيم والتصرفات. أى أنه قد حدث انقلاب كامل فى بنية الوازع القيمى والدينى داخل نفوس الناس.

ولو استعرنا مصطلحات الأنثرابولوجيين للتعبير عن ذلك نقول: إن الانعكاسات التطبيقية للمفاهيم والقيم البراجماتية على سلوك وتصرفات المصريين كانت فى أول الأمر مجرد أشكال سلوكية مثيرة للاستياء ثم ثارت تحت الضغوط الشديدة عبارة عن قوالب سلوكية تأخذ وجودها بجوار الأنماط السلوكية الحضرية المستمدة فى الأساس من القواعد الأخلاقية الإسلامية الأصيلة ومن خلال عملية الصراع القيمى والسلوكى المستمر وتدافع الناس تحت الضغط والإغراء نحو التطبيق العملى للسلوكيات البراجماتية صارت السلوكيات الأخيرة هى النمط الحضارى للناس الذى انتزع الشرعية من السلوكيات الإسلامية التى صارت بدورها قوالب سلوكية مستهجنة وغير مرغوب فيها حيث صارت السلوكيات البراجماتية باعتياد الناس المستمر عليها وألفتهم لها هى القاعدة الأساس لأنماط السلوك، وصارت السلوكيات الأخرى هى المطالبة بالحصول على شرعيتها.

وأهم مثل تطبيقى يمكن اتخاذه للتعبير عن ذلك هى قاعدة القبول فى الزواج عند المصريين فمما لا شك فيه أن أخلاق الشخص وعمله ونسبه وشهادته «بالنسبة للمتعلمين» قد كانت هى القواعد التى يتحدد على أساسها قبول شخص ما أو رفضه وكانت تمثل بذلك نمطًا حضاريًا أصيلا عندهم، وما حدث فى أواسط السبعينيات من رواج لمفهوم تحديد مدى قبول الشخص للزواج على مدى امتلاكه للأموال أو استعداده لدفعها قد كان مجرد شكل من أشكال السلوك التى تقابل بالاستياء الشديد وتحت ضغط الحاجة والإغراء والإلحاح صار قالبًا سلوكيًا يتخذه البعض ولكن بالتكرار الشديد لهذا السلوك فقد صار نمطًا حضاريًا لا يثير استياء أحد. «وسوف نشرح هذا الموضوع بشىء من التفصيل فى فصل آخر».

إننا لا بد أن نعترف بالحقيقة وإذا أردنا أن نصلح من ذات بين هذا المجتمع فلا بد أن نرى حقيقته التى سوف نتعامل معها كما هى وبكل واقعية فهذا هو الوعى الإسلامى السليم أو هذه هى مثاليتنا الواقعية حيث نريد أن نبدأ من الواقع كما هو لنرتفع به إلى ما نطمح إليه من مثاليتنا.

وفى الصفحات القادمة سنتعرض لأهم التغيرات التى حدثت فى البنية الفكرية والأخلاقية والقيمية والدينية للمجتمع المصرى.

التعاليم البراجماتية النفعية فى المجتمع المصرى

لقد صار البحث عن المال هو الحقيقة التى تحدد على أساسها باقى الحقائق وفقدت القيم والمبادئ والأخلاق والتعاليم الدينية آثارها العملية على النفوس.

واستفحل الشعور بالفردية والانغلاق داخل الذات النفعية وعدم المبالاة بالآخرين.

وساد المفهوم الذى يزعم أن كل البشر أشرار ولهذا فلا يحق لأحد أن يلومنا على ما نفعل، وأنه يجب استهلاك الوقت فى الأعمال التافهة ذات الأرباح الخيالية أو فى الملذات أو فى التسلية واللهو المحررة فى القيود دون راحة أو فسحة للتفكير والتأمل.

وسطحت كل الأفكار وضربت كل القيم والمفاهيم التى كانت تحكم مجتمعنا عرض الحائط واعتبر كل ذلك مجرد «صداع ووجع دماغ».

والشاطر والحكيم والذكى هو الذى يستطيع الحصول على مصلحته بأية وسيلة والذى يستطيع أن «يخلص نفسه» من كل العوائق الشرعية وغير الشرعية التى قد تعترض سبيله.

وصارت التعاليم الدينية تؤول وتكيف على حسب مصلحة الشخص ومنفعته أما الدين الحقيقى الذى يحكم سلوك الناس فهو منفعتهم وأما ربهم المعبود فهو المال.

وكل ما مضى من الحقوق الضائعة فقد انتهى وماتت و«الشاطر» هو الذى يستطيع تحقيق مكاسبه فى اللحظة الراهنة.

والخلاصة من كل ذلك: لقد ساد المفهوم الذى يزعم أن الدنيا هى المال وكل ما هو غير ذلك كلام فارغ.

اختزال المفاهيم :

لم تعد المفاهيم التى يعقلها الناس عن الأشياء كما كانت من قبل فقد أغارت البراجماتية على كل شىء وأعطته مفهومه النفعى الجديد واختزل الكمبيوتر البراجماتى القيم الأصيلة المستمدة من ديننا الحنيف إلى قيم جديدة تتوافق مع العبث البراجماتى وانتهازيته.

فالواقعية صارت تعنى الاستسلام للأمر الواقع.

والحق والصدق صارا يعنيان التبرير والتمرير.

والإخلاص صار يعنى قصد العبودية للمال لا غير.

أما الكرم فهو قرض مؤقت مشروط بالسداد بأعلى الأرباح.

والتضحية صارت تعنى البذل من أجل تحقيق أقصى المنافع.

أما الحب فهو جنس ولذة.

والصداقة شركة نفعية قابلة للتغيير والتبديل.

والأمان هو النوم على سرير من المال والثروة.

والعلم صار يعنى فن الحصول على المال بأية طريقة.

والحكمة هى القدرة على تكديس الثروات واستغلالها.

والنجاح هو تحقيق أكبر رصيد متراكم من الأموال، والشجاعة تهور، والثقافة جنون لا معنى له.

والإسلام هو كل ما لا يتعارض مع المصالح والمنافع.

إن لم يكن هو كل ما يساعد على تحقيقها.

والحياة كلها هى مجموعة من الرغبات المادية المفرغة من العواطف والشعور والأحاسيس الإنسانية.

أما الكذب فهو فن لا يتمتع به إلا الأذكياء.

والخيانة واقعية، والنفاق لباقة.

والنصب والسرقة والرشوة والاختلاس والاستغلال شطارة ومهارة يستلزمها العصر والجبن حلم، واحتقار الفقراء عصرية، واستغلال أزمة المتأزمين ضرورة.

وهكذا اختزلت باقى القيم والمفاهيم.

كيف صار المال بين الناس إلهًا

يعتقد أغلب الناس أن الشرك بالله هو عبارة عن السجود لأصنام من الحجارة أو الاعتقاد بوجود آلهة أخرى تشترك مع الله فى الخلق والقدرة أو الاعتقاد بأن الله له نسبٌ كابن أو زوجة، تعالى الله عن ذلك علوًا كبيرًا.

بل وحتى ما يفهمه الناس عن الأصنام نفسها والتى كان يعبدها مشركو العرب أنها كانت عبارة عن تماثيل من الحجارة أو الخشب، وهذا انتقاص كبير للحقيقة.

يقول ابن كثير فى تفسير قوله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ (١٩) وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَىٰ﴾ «كانت اللات صخرة بيضاء منقوش عليها ببيت بالطائف، له أستار وسدنة، يفتخرون بها على من عداهم من أحياء العرب بعد قريش.

وكان اللات «أى الأصل الذى سميت به الصخرة» رجلا يلت السويق سويق الحجيج. قال ابن جرير: وكذا العزى من العزيز وكانت شجرة عليها بناء وأستار بخلة وهى بين مكة والطائف» وفى مختصر الطبرى: «مناة» بيت لبنى كعب كانوا يعبدونه. وهذه هى أهم أصنامهم، والآلهة المزعومة التى يشرك بها الضالون لا تقتصر على الأصنام أو اعتقاد القربى النسبية من الله فقد تكون ملوكًا أو حكامًا أو أبطالا تاريخيين أو أحبارًا أو رهبانًا أو أولياء صالحين أو جنًا أو شياطين أو قبورًا أو مقامات وأضرحة أو إحدى آيات الله مثل الشمس والقمر والنجوم أو حتى دابة تسعى فى الأرض أو نساء استعبدن عشاقهن أو أشياء معنوية مثل الجاه والسلطان أو المال أو الهوى وحب الذات فكل هذه الأشياء وغيرها قد يجعل البعض منها آلهة تعبد من دون الله.

ولكن بتتابع عهود الظلم والاستبداد على امتداد التاريخ روج الحكام المستبدون المفاهيم الدينية التى لا تتعارض معهم - أو هكذا صوروها للناس - بل وزيفوا الكثير من المفاهيم الدينية الأخرى لكى يتوطد لهم ملكهم دون ثورات أو قلاقل يكون السبب فيها دائمًا تعاليم الإسلام ولهذا ساد ذلك المفهوم الساذج عن الشرك عند الناس.

فما هى إذن حقيقة العبادة:

يقول فخر الدين الرازى: العبادة عبارة عن الفعل الذى يؤتى به لغرض تعظيم الغير.

ويقول علاء الدين البغدادى: العبادة أقصى غاية الخضوع والتذلل.

وكذلك قول القاضى البيضاوى وأبى السعود.

أما شيخ الإسلام ابن تيمية فيقول: إن العبادة تتضمن معنى الذل ومعنى الحب[٢].

ولقد روى الإمام أحمد أن النبى ﷺ تلا قول الله تعالى: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ﴾ على عدى بن حاتم الطائى - فقال يا رسول الله: لسنا نعبدهم قال: أليس يحلون لكم ما حرم الله فتحلونه ويحرمون من أحل الله فتحرمونه؟ قال: بلى قال النبى ﷺ: فتلك عبادتهم.

والمقصود من هذا الحديث عند علماء المسلمين هو أنهم كانوا يطيعونهم فى ذلك عن

(٢) وحيد الدين خان: حكمة الدين.

حب واقتناع لأنه كما يقول ابن تيمية[٣]: «من خضع لإنسان مع بغضه له لا يكون عابدًا له ولو أحب شيئًا ولم يخضع له لم يكن عابدًا له». فالإنسان قد يخضع لحاكم أو لعبد أو لسيد فى أمور كثيرة ولكنه قد يكون كارهًا لهذا الخضوع الذى تضطره الظروف إليه دون أن يقترن ذلك بالشرك بالله.

أما إذا كان محبًا لذلك الخضوع فإن الأمر يرتقى إلى العبادة والشرك ولذلك فقد يحب الإنسان امرأة أو ولدًا أو جاهًا أو مالا دون أن يقترن ذلك بالذل والخضوع أما إذا اقترن بهما فإن هذا الحب يتحول إلى عبودية وإشراك بالله. والمعول عليه فى هذا الحب وهذا الخضوع لكى يكون الجمع بينهما عبودية وشركًا بالله أن يكونا متعارضين مع الحب والخضوع لله لأن العبودية لله تقتضى الحب والخضوع لأوامره أو لمن أمرنا بطاعتهم وحبهم والخضوع لهم مثل الرسل أو أولى الأمر القائمين على أوامره، يقول الله تعالى: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ﴾ ويقول أيضًا مخاطبًا رسولنا محمدًا ﷺ: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ ويقول أيضًا جل شأنه: ﴿قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ﴾.

وكما يقول الرسول ﷺ: «ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان: من كان الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، ومن كان يحب المرء لا يحبه إلا لله، ومن كان يكره أن يرجع فى الكفر كما يكره أن يلقى فى النار» رواه الشيخان، ويقول أيضًا: «أوثق عرى الإيمان الحب فى الله والكره فى الله».

يقول ابن تيمية: «وكل من علق قلبه بالمخلوقين أن ينصروه ويرزقوه أو يهدوه خضع قلبه لهم وصار فيه من العبودية لهم بقدر ذلك وإن كان فى الظاهر أميرًا لهم ومديرًا لهم متصرفًا بهم فالعاقل ينظر إلى الحقائق لا إلى الظواهر، ويضرب مثلا لذلك فيقول: «طالب الرياسة والعلو فى الأرض قلبه رقيق لمن يعينه عليها ولو كان فى الظاهر مقدمهم والمطاع فيهم. فهو فى الحقيقة يرجوهم ويخافهم فيبذل لهم الأموال والولايات ويعفو عنهم ليطيعوه ويعينوه، فهو فى الظاهر رئيس مطاع وفى الحقيقة عبد مطيع لهم».

---

(٣) الإمام ابن تيمية: العبودية.

ثم يضيف قائلا: «وهكذا أيضًا طالب المال فإن ذلك يستعبده ويسترقه». وبغزو الأفكار البراجماتية لنا وتفاعلها مع الظروف الاجتماعية للشعب المصرى وبعد ممارسات البراجماتيين التى استغلت تلك الظروف وأظهرت مدى نفوذ عامل المال وقوته فقد صار المال بذلك إلهًا لدى الكثيرين يقدمون له كل فروض الطاعة والولاء والذى أقصده هنا ليس مجرد ما يقع فيه البعض من حب المال أو الطمع فيه وإنما الذى أقصده ذلك الحب الكامل والولاء التام للمال اللذين تمكنا من قلب الكثيرين حتى بلغ الأمر بهم حد الاقتناع بأن المال حقًا إله قادر بيده زمام الأمور وأُشرِبُوا فى قلوبهم حب هذا الإله المزعوم أكثر من أبنائهم وأنفسهم وصاروا يحطمون كل الحواجز الشرعية التى تعترض طريقهم من أجل الحصول على المال والثروة واعتنقوا ما يمليه هذا الإله الجديد القديم من مفاهيم وأطاعوا ما يصدره من أحكام مهما كان تناقض تلك المفاهيم والأحكام مع مفاهيم الدين وأحكام الشريعة.

بل وصار الكثيرون يرددون دون أدنى حرج: «نحن نعبد المال، المال دينى وملتى»، وسادت مفاهيم مثل «أبى وأبوك القرش» و«قيمتك فى جيبك» و«معك قرش تساوى قرش».

ولك أن تتصور ما الذى يمكن أن يحدث عندما يصير المال ترمومترًا تقاس به القيمة الاجتماعية للإنسانية، لقد قال الله تعالى فى قرآنه الكريم: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ لكن الواقع الذى حدث أن كلمات مثل التقوى والدين والعلم والأخلاق والحلال والحرام والصواب والخطأ صارت عند هؤلاء كلمات بلهاء أكل عليها الزمان وشرب وصارت الحكمة الوحيدة فى هذا العصر هى حكمة أرباب النهب الرأسمالى البراجماتى فهم الذين فهموا سر الدنيا وحكمتها والدليل على ذلك تلك الأموال المكدسة التى استطاعوا بعلمهم وحكمتهم الظفر بها من الدنيا، وعلى قدر ما يملك المرء من المال على قدر ما يملك من الحكمة - هكذا صارت الأمور - أما الآخرون الذين لا يملكون فهم لم يتعلموا من الدنيا شيئًا، بل يعيشون فى خرافات وأوهام تسمى الدين والمبادئ والأخلاق. وصار من النادر جدًا أن يفكر أحد أو يتساءل عند تعرضه لأمر من الأمور هل هذا حلال أم حرام؟ وإنما كل ما يفكر فيه هل هو ممكن أم غير ممكن؟

تدمير المجتمع:

إنه مهما يكن من شىء فإننا نوقن أنه سيظل الخير فى هذه الأمة إلى يوم القيامة لكننا لا بد أن نعى جيدًا أنه فى ظل المتغيرات الشيطانية الوافدة علينا فإن الأخيار

المعتصمين بدينهم فى هذا العصر هم أقرب الناس إلى حديث الرسول ﷺ «سيأتى زمان على أمتى القابض فيه على دينه كالقابض على جمرة من النار».

ولعل حكام المسلمين يدركون جيداً أن لهؤلاء الناس الفضل - بعد الله فى كل ما يعود على البلاد من عمل وإنتاج، ولكننا لا نتكلم عن هؤلاء الناس.

إننا نتكلم عن القاعدة العريضة من الناس الذين يشكلون المجتمع وكيف تسببت الأفكار البراجماتية الغرزية فى تشويه قيمهم وأخلاقهم.

وماذا يهدف الغربيون غير التدمير الأخلاقى لهذا المجتمع لاستهلاك ثرواته على الدوام.

وما الذى يمكن أن يعنيه فى قليل أو كثير تدمير هذا المجتمع بالنسبة للبراجماتيين عندنا حيث يؤول هذا الدمار إلى أرقام تراكمية لأرصدتهم فى البنوك وإلى القدرة الكبيرة على استهلاك المزيد من المتع التى تستهلك ثوانيها أعماراً كاملة من حياة البشر.

ما الذى يمكن أن يعنيه ذلك لهؤلاء البراجماتيين الذين يخطون فوق دموع الناس ويغتسلون بدمائهم.

إن كل شئ لديهم مباح، لا قيمة لا حقيقة لا صواب لا هدف إلا ما ينفعهم أو يعود عليهم بالفائدة، كل شئ لديهم مباح من نهب ثرواتنا، إلى إحراق دمائنا غيظاً فى مصر وكافة البلاد الإسلامية الفقيرة، إلى التلذذ بامتصاصها فى بطء فى أواسط أفريقيا.

كل شئ لديهم مباح وليتجرع الشباب المسلم على امتداد العالم الإسلامى نيران الغيظ، أو ليسقط الضعفاء منهم فى هاوية الإحباط والكآبة وهم يرون أبسط أحلامهم بل وأبسط حقوقهم تتحول إلى مستهلكات ترفية يتمتع بها المستغلون البراجماتيون الانتهازيون.

كل شئ لديهم مباح ما دامت الأسواق الأمريكية دائرة على ما يرام، وما دامت أموالنا وخيراتنا تتدفق إلى جيوب وأرصدة رجال الأعمال الأمريكيين فى شكل أرقام تراكمية، ولتظهر الدراسات والنظريات والدعايات والتعويمات والمهدئات والمنومات التى تكيف هذه العمليات البشعة التكييف الوجيه، ولتعطها التبرير الفلسفى المناسب، وليصعد براجماتيونا المنابر ليعلمونا ما هو الإسلام الحقيقى الطيب النبيل الذى يجعلنا نسمح بإعطاء خدنا الأيسر إذا ضربنا الغرب على خدنا الأيمن والذى يجعلنا نسمح

بتقديم نسائنا بأنفسنا إلى فراش السيد الغربى الأمريكى أو من يمثله من البراجماتيين المحليين إذا اقتضى الأمر ذلك.

ولنسم نحن كل هذا الذى يحدث ما نشاء من أسماء، أما هم فيسمونه حقائق براجماتية.

لقد صار الفساد ينتشر كالطاعون بين الأجهزة الحكومية وغير الحكومية وصار من المألوف جدًا قراءة ما تنشره الجرائد عن انحرافات كبار المسئولين كوكلاء الوزارات ورؤساء البنوك - وتعاونهم مع الرأسماليين البراجماتيين وما يقتضيه ذلك من استغلال نفوذ ورشوة ومحسوبية واختلاس.

إن كل الأشياء تحولت إلى سلع وبذلك اختزلت كل الرغبات البشرية إلى أرقام نقدية.

ولا يهم فى سبيل الحصول على هذه الأرقام أى شىء، بل إن حياة البشر نفسها لم تعد لها قيمة عند تجار الموت من البراجماتيين الذين يستوردون لهم الأغذية الفاسدة التى فقدت صلاحيتها للاستهلاك الآدمى والأغذية الملوثة بالإشعاع الذرى القاتل.

حتى العلاقات الأسرية فقدت دفئها وترابطها وصارت أشبه ما تكون بشركات تجارية مؤقتة.

ولم يعد يهدف أحد من التعليم سمو أخلاق أو تهذيب نفوس أو ازدياد علم فالقائمون على التدريس لا يهتمون إلا بتحقيق الأرباح الهامشية الضخمة التى يتضاءل أمامها مرتبهم العاجز البسيط، أما الطلاب أنفسهم فقد انحسر اهتمامهم فى الحصول على المؤهل فى النهاية.

وسطحت كل المفاهيم الإنسانية حتى بات الكلام فى غير المصالح المادية هو مجرد تفاهة.

حتى الأدب فقد صار غريبًا متغربًا منسلخًا عن واقعنا وحضارتنا لا يعبر إلا عن الغربة والعبث وفقدان الهوية التى يشعر بها المنتسبون إليه ومحكومًا بالشللية والمصالح المتبادلة بينهم.

وفقد العمل أى قيمة ذاتية بل وصار العمل الدءوب دليلا على مدى غباء وجهل وتخلف القائمين به.

لقد نشأ بيننا جيل من البراجماتيين صمم عقله بواسطة كمبيوتر غربى «أمريكى

الصنع» مبرمج بقيم براجماتية تعمل على تحقير كل ما يمت بصلة لأخلاقنا الأصيلة المستمدة من ديننا الحنيف، وإضفاء القداسة على كل ما هو نفعى أنانى انتهازى حقير.

وبذلك يصير عسيرًا علينا أن ندعو هذا الجيل الجديد إلى العمل والعطاء وبذل الجهد من أجل التنمية والتحضر الحضارى ما دامت هذه الأفكار والظروف موجودة، لأنه ليس من المناسب أن ندعو الشباب إلى الإخلاص والعمل والإنتاج وقد أسقطت القيم البراجماتية كل هذه المفاهيم.

بل وصورت كل من يتمسك بها بأنه غبى أحمق سيظل يعيش عمره فى العذاب والفقر.

وبذلك نسقط فى هوة التخلف الحضارى وبدلا من أن نتقدم إلى الأمام نجرى بخطوات سريعة إلى الوراء، ولن يكون هناك حل للخروج من هذا المأزق إلا بالانفصال عن عجلة القيادة الغربية والاستقلال السياسى والاقتصادى والثقافى من تبعية الغرب والعودة إلى قيمنا الأصيلة فى ظل العدالة الاجتماعية المستمدة من الإسلام.

ونحن نسوق هذه الحادثة للدلالة عما حدث فى المجتمع المصرى من انهيار فى

إنها حادثة بشعة بكل معانى البشاعة التى تعبر عن انهيار مجتمع فقد كل مقوماته الدينية والإنسانية واستبدال السعى الدءوب وراء المنافع والملذات والتصعيد الشهوانى والانغلاق حول النفس السلبية واللامبالاة بالآخرين بتلك المقومات، تقول صاحبة هذه الحادثة: «كنت ذاهبة لإحضار ولدىَّ من الحضانة وأردت أن أركب إحدى العربات «ميكروباس» وقبل أن أركب السيارة لاحظت أن شابين يسيران ورائى ويماكسانى وفوجئت بهما يركبان السيارة وبعد أن سارت خطوات قاما بعمل تمثيلية غريبة فقالا للركاب إننى هارية من زوجى وإنهما أقاربى وطلبا منى النزول معهما؟ صرحت قائلة إننى لا أعرفهما لكن الركاب نظروا إلىّ بلا مبالاة وقالوا لى: انزلى معهما. وعندما توقفت السيارة ظللت أجرى كالمجنونة والشابان خلفى.

هل كان الشارع خاليًا؟ أبدًا كان مليئًا بالناس جريت على رجل كان يمشى فى الشارع لأستنجد به: لكنه قال لى اجرى بسرعة واهربى منهم.

ألم يتدخل لمنعهما أحد؟ أبدًا جريت على صالون حلاقة وهما يجريان خلفى. قال لى زوجتى بالشقة فوق اطلعى لها طلعت بسرعة نظرت من النافذة فوجدت أن الشابين

أصبحا أربعة وقفوا أمام باب المنزل يصرخون ويهددون الحلاق بالمطاوى، فخاف وطلب منى أن أغادر المنزل. لم يكن أمامى حيلة. نزلت أجرى فى الشارع. فأحاطوا بى وأمسكونى من يدى وشعرى.

والناس؟ الناس فى الشارع كانوا كثير لكن كانوا يتفرجوا ومافيش حد اتدخل. كنت زى المجنونة مذهولة من المنظر ومش مصدقة.. أخذونى على حقل قلقاس قريب فقعدت أبكى قلت لهم إننى متزوجة وعند أطفال وزمان أطفالى خرجوا من الحضانة للشارع.. هددونى وضربونى بمطواة فى يدى وقالوا لى اسمعى الكلام أحسن. قلت لهم لو عايزين فلوس أجيب لكم قالوا لى لو عايزة فلوس نعطيك.

إلى متى ظللت فى الحقل؟

لغاية أذان المغرب وكنت ببكى وبدعى ربنا ينقذنى من الوحوش دول. لكن لم يرحمونى واعتدوا علىّ وأثناء ذلك أصبت بأزمة الربو.. فوقفوا يتفرجوا علىّ حتى انتهت الأزمة. وبعد كده استمروا فى الاعتداء. هكذا انتهت القصة كما ذكرتها صفحة الحوادث فى جريدة الأخبار «بتاريخ ١٩٨٧/٨/٢٧» لكنها لم تنته فى الواقع على الإطلاق.

تدمير الإنسان

لقد حطم البراجماتيون كل أحلام الشباب وكل آمالهم بل وأبسط حقوقهم الشرعية، وأحالوها إلى صراخ داخلى يظل يستنزف إرادة الإنسان وكبرياءه حتى يسلبه صموده ليقف فى النهاية يراقبهم فى استسلام كامل بلا حياة بينما هم يستهلكون حياة البشر أمثاله ويصير أقصى أمل له هو أن يقبلوه كمجرد أداة بسيطة يضعونها حيث يشاءون، قد تكون هذه الأداة هى مجرد وقود لتشغيل ماكينات مصانعهم التى تنتج التفاهات، أو قد تكون مجرد حلقة صغيرة فى سلسلة أنشطتهم غير الشرعية التى تمتص دماء الملايين أمثاله أو قد تكون مجرد حافز منشط على الاستمتاع والتسلية.

إن الأمر يبدأ برغبة مشروعة جدًا فيحدث الصدام فيحدث العجز فيحدث الإحباط فتحدث الكآبة فيحدث الركود المدمر لنفسية الشاب وبنيته الداخلية.

وكيف يكون موقف الإنسان عندما يرى أن كل هذه الأوضاع برغم بشاعتها هى التى تسود وأن كل النوايا النبيلة لا تكاد تصنع شيئًا؟ وكيف لا يقف الضعفاء موقف العجز

والاستسلام وهم يرون المبادئ والمثل والقيم العليا تهرس تحت عجلات البراجماتيين المادية التى تهزأ بالشرف والعقيدة، ويرون النافع المتمثل فى المال والثروة هو السيد القادر المطاع الذى له الرهبة والصولة والجاه والسلطان، وله احترام الناس وتوقيرهم وله تقديرهم وانبهارهم، بل وتقديسهم، وله الحكمة القادرة على تنفيذ ما تقول على النقيض من ذلك بينما يرون الشرفاء يتآكلون تحت وطأة الفقر والقهر وانفضاض الناس من حولهم، وكيف لا يقف الضعفاء موقف العجز وهم الذين لم يتحصنوا فى يوم من الأيام بالعقيدة الراسخة والدين المتين والرؤية الإسلامية القوية لحقائق الوجود، والاستعلاء على الماديات التافهة الفانية، والشوق والحنين إلى الخلود، كيف لا يقف الضعفاء موقف العجز وقد غُيِّب دينهم على امتداد التاريخ ولم يبق منه إلا هامش سطحى مزيف لا يستطيع الصمود أمام قوى المفاهيم البراجماتية الزاحفة المنتصرة، وكيف لا يقف الضعفاء موقف العجز وهم الذين كانوا ضحايا مطامع البراجماتيين الاستهلاكية البشعة للبشر وعجزت كل المقولات المثالية غير الواقعية عن استنقاذهم من بين براثن هؤلاء البراجماتيين.

إنك حتى لو حاولت أن تثبت لهؤلاء صحة مفاهيم أخرى تختلف عن المفاهيم البراجماتية فلا بد أن تثبت لهم قدرة هذه المفاهيم على قهر المفاهيم البراجماتية عمليًا وأن تثبت لهم جدواها المادية بالمقارنة بجدوى المفاهيم البراجماتية المادية أى إذا أردت أن تدعو هؤلاء إلى مفاهيم صحيحة، فلا بد أن تثبت لهم أن هذه المفاهيم نافعة بالمفهوم المادى للمنفعة، أى أن هؤلاء الضعفاء العاجزين هم أنفسهم قد تشكلت عقولهم بطريقة براجماتية وترسخت فى نفوسهم نفس المفاهيم النفعية المنسلخة عن كل المبادئ والقيم الإنسانية.

لقد أدت البراجماتية إلى انسلاب الإنسان من كينونته الإنسانية وتفريغه من الحس والشعور والعواطف وكل ما يتعلق بكيانه كإنسان ويميزه عن الحيوان أو الجماد، ثم تحوله إلى مجرد ترس جامد الشعور فى ميكنة الحياة العصرية التى صممها البراجماتيون.

أدت البراجماتية إلى انسحاق الضعيف وانعدامه وتحوله إلى اللاشىء أو إلى مجرد إضافة تافهة إلى رصيد البراجماتيين من الثروة والملذات.

أدت البراجماتية إلى أن يتقيأ الإنسان إنسانيته ليملأها باللهاث وراء رغبات ملحة

على الدوام تلبى تلبية ناقصة باستمرار وعمل البراجماتيون على أن يضعوا الإنسان بين خيارين إما اختيار طريقهم والاستسلام لإرادتهم وإما هرسه وسحقه ثم استخدامه كوقود لمحركات ماكينة حياتهم البراجماتية.

والنتيجة أن كل الأشياء تقع الآن، حتى الإنسان فإن أجزاءه تتساقط جزءًا جزءًا والجزء الباقى يتجمد، يفرغ من المشاعر والأحاسيس، يفرغ من كينونته كإنسان، ويصير خامة صالحة للغاية للصب فى القوالب الجاهزة التى يصممها البراجماتيون كآليات صغيرة فى ماكينة الحياة البراجماتية.

إن الإنسان البراجماتى: إنسان يفقد الحقيقة، إنسان يفقد الهدف، إنسان يفقد الحلم، يفقد الأمل، إنسان يفقد الرضى، إنسان يفقد الطمأنينة، إنسان يفقد الصفو والطهارة والنقاء، إنسان يفقد الظمأ إلى الخلود، إنسان يفقد ذلك التواصل الروحى بينه وبين الذات الإلهية العليا، إنسان يفقد الحب، إنسان يفقد الإنسان.

رفع الالتباس عن بعض المسائل الدقيقة

الانحراف البراجماتى والانحراف التقليدى:

من الطبيعى أن يطرح سؤال عن الفرق بين الانحراف اللاإسلامى بوجه عام والانحراف البراجماتى بوجه خاص.

فالبعض قد يخيل إليه أننا سوف نقوم بسرد مختلف الانحرافات التقليدية مطلقين عليها مصطلحات كالمفاهيم والقيم والأساليب والانحرافات البراجماتية.

ولكى نوضح المسألة للقارئ لا بد من ذكر الفارق الدقيق الذى يميز الانحراف البراجماتى عن مختلف الانحرافات التقليدية بوجه عام.

ولهذا نقول إن الانحراف فى المفهوم الإسلامى يعنى مخالفة أحد التعاليم الإسلامية المستمدة من كتاب الله وسنة رسوله، والمنحرف التقليدى يدرك أنه عندما يقوم بمخالفة أحد هذه التعاليم فإنه يرتكب ذنبًا يحاسب عليه يوم القيامة.

أى أن الكذاب يدرك أنه يكذب، والسارق يدرك أنه يسرق، والظالم يدرك أنه يظلم.. وهكذا..

وحتى لو كان المنحرف لا ينتمى إلى الإسلام أصلا فإنه عندما ينظر إلى أفكاره وأفعاله بالمنظور الإسلامى فإنه يفهم أن هذه الأفكار والأفعال تعد انحرافات من وجهة نظر ذلك المنظور على الأقل.

أما البراجماتى فإنه مهما ارتكب من انحرافات وجرائم فإنه لا يعتقد قط أن ما يفعله ليس انحرافًا أو إثمًا وإنما يعتقد أيضًا أن ما يفعله هو الحقيقة تمامًا ما دام سوف يؤدى إلى نفعه، وهو الصواب الوحيد فى عالم يسيطر فيه العبث على كل شىء من وجهة نظره.

والبراجماتى ليس له عقيدة أو منهج يحكمه سوى مصلحته، فالشيوعى مثلا يعى ما فى أفعاله من انحرافات عن المنهج الشيوعى الذى يتبعه، ولكن عندما يكون منهج البراجماتى هو مصلحته أو منفعته، فإن الانحراف ذاته يصير شيئًا لا معنى له.

وعلى هذا فالكذاب البراجماتى لا يعتبر نفسه كاذبًا وإنما هو يمارس حقيقة عملية

لا بد منها وكذلك السارق أو الظالم أو حتى الخائن منتهك أعراض أقرب الناس إليه دون أن يجد فى نفسه أى شعور بالإثم أو الذنب.

هذا بالنسبة للبراجماتى الذى حسم قضية الدين وأخذ منها موقف الرفض.

أما البراجماتى الدينى أى الذى يتعامل مع الدين بمنظور نفعى لا يكاد يختلف فى شىء عن سابقه من حيث عدم الشعور بالإثم أو الذنب بالنسبة لأى انحراف يفعله، ولكن كل ما فى الأمر أنه يطوع الدين ذاته ويكيفه بحيث لا يتعارض أبدًا مع أى سلوك يتخذه، فهو يحاول استخدام الدين لخدمة أغراضه ومصالحه، ويجد دائمًا التبرير المناسب لما لا يستطيع إنكاره من ذنوب، وحتى إذا بلغت هذه الذنوب حد البشاعة فإنه يعتقد أن توبة «بمفهومه هو للتوبة» أو حجة إلى بيت الله الحرام سوف تغفر له ما ارتكبه من آثام بل وقد تعود عليه بفائض من الحسنات.

هل المال هو المنفعة الوحيدة للبراجماتيين:

بالرغم من أننا نركز فى هذا الكتاب على أن الحصول على المال بأية طريقة قد صار الهدف النهائى الذى تتحدد على أساسه المنفعة الحقيقية للبراجماتيين، إلا أن ذلك لا يعنى أنه الهدف الوحيد أو المنفعة الوحيدة لديهم، والذين يعرفون المجتمع الأمريكى يدركون أن الكثيرين منهم يجدون منفعتهم وسعادتهم فى أشياء شديدة الغرابة.

ولكن كل ما فى الأمر أن الظروف التى يقع تحت وطأتها المجتمع المصرى - والتى قد أشرنا إليها مسبقًا - قد جعلت من المال أكثر الأشياء نفعًا وجدوى بالنسبة للبراجماتيين ومع ذلك فقد يكون النفع البراجماتى فى أشياء أخرى كالجنس أو الزعامة أو الشهرة أو إرضاء شهوة الهدم داخل أحد الأشخاص.. أو غير ذلك من رغبات النفس وشهواتها وأنّى لنا أن ندرك ما هى كل الأشياء التى قد يجد فيها البراجماتيون منفعتهم؟

هل الإسلام ضد المنفعة؟

قد يصرخ فينا معترض فيقول: ما كل هذا الضجيج المفتعل حول المنفعة؟ أليس من الطبيعى جدًا أن يحرص كل إنسان على ما ينفعه ويسعى إليه ويدفع عن نفسه كل ما يضره؟ وأليس الإسلام ذاته يحرضنا على أن يحرص كل منا على نفع نفسه؟ ومن الذى قال إن الإسلام ضد المنفعة؟

إن الرد على كل هذه التساؤلات يتركز فى أمر واحد هو: نعم إن الإسلام يوجهنا إلى نفع أنفسنا ولكن بأى مفهوم للمنفعة؟ إنها المنفعة التى يحددها لنا الإسلام، فالنافع هو ما يحدده الإسلام أنه نافع. وليس ما يحدده أى تصور أو مذهب آخر.

فالشىء النافع للإنسان فى الإسلام يكون محددًا بانطلاقه من التصور الإسلامى للوجود ومن الشرائع والقواعد التى وضعها الإسلام لاستخلاف الإنسان لله فى الأرض وإعلاء عبوديته فيها والتى تعمل على تنظيم المنافع والمصالح بين البشر.

وبهذا فليست المنفعة فى الإسلام يترك تحديدها لمذهب أو هيئة أو سلطة أو لرأى أى شخص من الأشخاص مهما كانت درجته من العلم أو الفكر، كما أنه لا يترك تحديدها لكل إنسان على حدة كما يتهيأ لهواه فيترك الحبل على غاربه للصراعات والانتهازيات.

فالحق فى الإسلام هو الذى يحدد المنفعة والسعى إلى الحق هو غاية النفع ذاته الذى تتحدد على أساسه باقى المنافع.

وأظن أن هذا كافٍ جدًا لبيان موقف الإسلام المناقض لمفهوم المنفعة البراجماتى الذى جعل الحقائق مجرد وسائل تبريرية للوصول إلى المنافع الأنانية للبشر.

الالتجاء إلى الإسلام كحل حضارى:

هنا تبرز قضية فى منتهى الخطورة وهى قضية تتشابك فيها الكثير من المفاهيم وتختلط فيها الكثير من الأمور ونقصد بهذا الكلام قضية النظر إلى الإسلام كحل حضارى وقبل أن نناقش هذا الموضوع نحب أن ننبه إلي أن الأمر هنا يختلف عن اتخاذ الإسلام كوسيلة انتهازية لتحقيق بعض المنافع الشخصية بينما الذى نقصده يتعلق فى الغالب ببعض المفكرين الذين رأوا فى الإسلام حلا حضاريًا للمشاكل المعاصرة.

ولكى نحدد موقفنا من ذلك لا بد أن نقرر أن العقيدة الإسلامية هى منطلقنا الوحيد الذى تتحدد على أساسه كافة مواقفنا الأخرى.

وعلى هذا فإن التعامل مع الإسلام كدين سماوى حضارى هو موقف ينطلق من العقيدة الإسلامية ذاتها والتى تقتضى إلقاء المسئولية على الإنسان فى عمران الأرض وخلافة الله فيها.

أما الذين ينظرون إلى الإسلام كتراث حضارى ناجح يستطيع أن يحل كافة المشاكل المعاصرة فإن عليهم أن يتقدموا خطوات أخرى إلى الإسلام لكى يدخلوا روضته من باب العقيدة.

أما الذين ينظرون إلى الإسلام كأداة يمكن استخدامها لحل بعض المشاكل المعاصرة فإن عليهم أن تتسع نظرتهم إلى الإسلام أكثر من ذلك لينظروا إليه نظرة شمولية محايدة مستوعبة للأمور، كما أن عليهم أن يكونوا أكثر جدية فى بحثهم عن الحقيقة فى هذا العالم فإذا فعلوا ذلك فسوف تطمئن أنفسهم للإسلام كاملا ويسلمون له تسليمًا بإذن الله.

ثانيًا : الأثر الخاص
احذروا الإسلام البراجماتى

هذا الفصل - بحسب اعتقادى - هو أخطر ما فى هذا الكتاب، والقضية الأولى فيه، ولهذا أرجو من القارئ أن يسترجع ما ذكرناه عن موقف البراجماتية من الدين، حتى يتيسر لنا الدخول فى موضوع الإسلام البراجماتى.

وبإيجاز شديد أقول أن البراجماتية لا تعترض على الدين مبدئيًا بل إن وليم جيمس يجد فى الدين قدرًا كبيرًا من الفوائد والمنافع وعلى هذا فإن موقفه من الدين قد حدده بالقدر الذى يستمد منه هذه الفوائد والمنافع فهو لا يقف منه موقف المقتنع المؤمن المستسلم المطيع، وإنما هو يقف منه موقف المنتفع الذى يرفض أن يملى عليه الدين أية شروط أو قيود أو أوامر أو التزامات، فهو يكيف الدين بالطريقة التى تجعله يشعر بالراحة والسكينة، والطمأنينة والأمان والرضى عن النفس، وفى الحقيقة فإن هذه الأشياء نفسها من المستحيل أن تتوفر أيضًا إذا لم يسبقها إيمان واقتناع، ولكن على طريقة جيمس فى كل أفكاره البراجماتية فإنه لا يريد منها سوى المخدر المؤقت الذى يستطيع الإنسان معه مواصلة حياته ونشاطه البراجماتى، كما أن جيمس لا يفضل دينًا معينًا على باقى الأديان يمكن أن يتفق مع الأفكار البراجماتية، وإنما هو يوجه دعوته للجميع لكى يجرب كل منهم الدين الذى يناسبه، ويجد فيه بغيته من المنافع البراجماتية.

وكما قلنا سابقًا فإنه ليس مهمًا عند جيمس كون الله موجودًا أم غير موجود، فهذه قضية لا يجب التفكير فيها من الأصل عنده - لعدم جدواها وفائدتها ولكن المهم «أن نتمتع بإلهنا إذا كان لدينا إله» وعلى هذا فإن جيمس يحدد بنفسه الإله الذى يريده وينفعه، فهو قوى وخدوم ومستجيب ومطيع ومعين وعطوف، وفى نفس الوقت فإنه لا يلزم المعتقد فيه بأى التزامات أو أوامر أو طاعات. أى أن وليم جيمس يخلق إلهًا من عنده ليستفيد منه لا أكثر ولا أقل.

وعلى ذلك أيضًا فليس بالضرورة عنده أن يكون الله واحدًا، فلم لا يكون اثنين أو

ثلاثة أو أكثر المهم أن يتعاونوا جميعًا على القيام بالمهمة المنوطة بهم والتى يحددها جيمس بخدمة الإنسان ومنفعته، وكما قلنا فإنه لا يقيم كل ذلك على منطق أو اقتناع أو إيمان وإنما يقيم كل ذلك على حب الاعتقاد، فهو يقول لك: اعتقد فى أى شىء ما دام أن هذا الاعتقاد يفيدك. وليس مهمّا بعد ذلك أن يكون الاعتقاد صحيحًا أم غير صحيح، المهم أنه مفيد.

وقد بينا من قبل كيف أن هذا الكلام هو مجرد نوع من الدجل والشعوذة والضحك على الذقون.

ولكى نبين للناس نموذج البراجماتية الدينية والمسيحية الذى قدمته هذه الفلسفة فسوف نضرب لهم مثلا بشخص قد اشتهر جدّا فى هذه الفترة، ألا وهو القس الأمريكى جون سيوغارت الذى شاهده الكثيرون على شاشات أجهزة الفيديو وهو يناظر الداعية الإسلامى الدكتور أحمد ديدات فهذا القس الشديد الأناقة البارع فى التمثيل والتأثير يمثل نموذجًا واضحًا للمسيحى البراجماتى، فبالرغم من أن موضوع المناظرة هو الحوار العقلى حول كون الكتاب المقدس لدى المسيحيين هو كلمة الله - وهو ما ركز أحمد ديدات على نقده بشدة وقدم عددًا كبيرًا من البراهين والدلائل العقلية التى تؤيد وجهة نظره تلك - فإن القس المذكور لم يناقش شيئًا من ذلك البتة، وإنما أخذ يؤثر على مشاعر الناس بسرده القصص والحكايات بأسلوب تمثيلى بارع وأنيق مثله، وبنى كل كلامه على أن الاعتقاد المسبق هو الذى سيأتى من ورائه النفع والخلاص، دون أن يكون لذلك أدنى علاقة بالقناعات العقلية والمنطقية بل ومهما تناقض مع العقل والمنطق، كما أنه يمكن ملاحظة فصله لعملية الاعتقاد القلبى عن سلوك الإنسان وأفعاله بحيث إنه جعل خلاص الإنسان فى هذا الاعتقاد مهما تدنست أفعاله فى الإجرام والرذيلة هذا بالإضافة إلى ما يدر عليه موقفه هذا من ملايين الدولارات نتيجة ذلك الأسلوب التأثيرى الأخاذ الذى يكتب به كتبه ولم تمض الأيام كثيرًا على هذه المناظرات حتى قام أحد القسيسين الذين فضحهم سيوغارت سابقًا بترقبه وفضحه، فلقد نشرت مجلة الجرائد العالمية - وهذا ما نشرته المختار الإسلامى - أن سيوغارت كان على علاقة بعدد من المومسات وقد التقطت له صور وهو يدخل ويخرج بعض فنادق نيوأورليانز وقد دفع أموالا للمومسات للقيام بأعمال داعرة لإشباع رغبة نشأ عليها ولم يستطع التخلص منها رغم وضعه الدينى وتقدم سنه، سيوغارت الذى يبلغ من

العمر ٥٢ سنة ووصلت شهرته إلى ١٤٢ قطرًا واستطاع أن يحصل على أكثر من ١٤٠ مليون دولار سنويًا ويعتبر من أكثر المنصرين نفوذًا فى العالم. وفى النهاية التجأ إلى إسرائيل لينشئ فيها كنيسة تتفق مع ميوله.

فإذا كانت القضية هكذا فلماذا لا يكون سيوغارت قسًا مسيحيًا؟ وهكذا يريد البراجماتيون الأمريكيون أن تكون المسيحية، بل وكذلك يريدون أن يكون الإسلام.

لقد سجل لنا الشهيد سيد قطب عرضًا قيمًا للغاية للمسيحية البراجماتية فى أمريكا وإن كان لم يسمها بهذا الاسم وسيكون من المناسب جدًا لموضوعنا أن نجعل هذا العرض مدخلا له، يقول الشهيد فى المقالة الثانية من سلسلة مقالاته «أمريكا التى رأيت»[1]: «ليس أكثر من الأمريكيين تشييدًا للكنائس حتى لقد أحصيت فى بلدة واحدة لا يزيد سكانها عن عشرة آلاف أكثر من عشرين كنيسة» وليس أكثر منهم ذهابًا للكنائس فى ليالى الأحد وأيامه، وفى الأعياد العامة وأعياد القديسين المحليين وهم أكثر من «أولياء» عوام المسلمين.

ويعد ذلك كله ليس هناك من هو أبعد من الأمريكى عن الشعور بروحية الدين واحترامه وقداسته وليس أبعد من الدين عن تفكير الأمريكى وشعوره وسلوكه.

كنائس للهو والتسلية:

وإذا كانت الكنيسة مكانًا للعبادة فى العالم المسيحى كله فإنها فى أمريكا لكل شىء إلا العبادة! وإنه ليصعب عليك أن تفرق بينها وبين أى مكان آخر معد للهو والتسلية أو ما يسمونه بلغتهم الـ «Fun» ومعظم قصادها إنما يعدونها تقليدًا اجتماعيًا ضروريًا ومكانًا للقاء والأنس ولتمضية وقت طيب وليس هذا شعور الجمهور وحده، ولكنه كذلك شعور سدنة الكنيسة ورعاتها!!

أندية الكنائس ودعايتها:

ولمعظم الكنائس أندية كل منها يتألف من الجنسين ويجتهد راعى كل كنيسة أن يلتحق بالكنيسة أكبر عدد ممكن وبخاصة أن هناك تنافسًا كبيرًا بين الكنائس المختلفة المذاهب ولهذا تتسابق جميعًا فى الإعلام عن نفسها بالنشرات المكتوبة وبالأنوار الملونة على الأبواب والجدران للفت الأنظار، وبتقديم البرامج اللذيذة المشوقة لجلب الجماهير

---

(١) سيد قطب: «أمريكا من الداخل».

بنفس الطريقة التى تتبعها المتاجر ودور العرض والتمثيل، وليس هناك من بأس فى استخدام أجمل فتيات المدينة وأرشقهن وأبرعهن فى الغناء والرقص والترويح.

برنامج حفلة كنسية:

وهذه مثلا محتويات إعلان عن حفلة كنيسة، كانت ملصقة فى قاعة اجتماعات الطلبة فى إحدى الكليات «يوم الأحد أول أكتوبر» فى الساعة السادسة مساء - عشاء خفيف ألعاب سحرية. ألغاز. مسابقات. تسلية.

وليس فى هذا أية غرابة لأن راعى الكنيسة لا يحس أن عمله يختلف فى شىء عن عمل مدير المسرح، أو مدير المتجر. النجاح أولا وقبل كل شىء. والوسيلة ليست بالمهمة - وهذا النجاح يعود عليه بنتائجه الطيبة - المال والجاه. فكلما كثر عدد الملتحقين بكنيسته عظم دخله وزاد كذلك احترامه ونفوذه فى بلده، لأن الأمريكى بطبيعته يؤخذ بالفخامة فى الحجم أو العدد وهى مقياسه الأول فى الشعور والتقدير.

ليلة حمراء كنسية:

كنت ليلة فى إحدى الكنائس ببلدة جريلى بولاية كولورادوا - فقد كنت عضوًا فى ناديها كما كنت عضوًا فى عدة نواد كنسية فى كل جهة عشت فيها، إذ كانت هذه ناحية مهمة من نواحى المجتمع، تستحق الدراسة عن كثب ومن الداخل - وبعد أن انتهت الخدمة الدينية فى الكنيسة، واشترك فى التراتيل فتية وفتيات من الأعضاء، وأدى الآخرون الصلاة، ودلفنا من باب جانبى إلى ساحة الرقص الملاصقة لقاعة الصلاة - حيث يصل بينهما الباب - وصعد «الأب» إلى مكتبه وأخذ كل فتى بيد فتاة، وبينهم وبينهن أولئك الذين واللواتى كانوا يقومون بالتراتيل ويقمن.

وكانت ساحة الرقص مضاءة بالأنوار الحمراء والصفراء والزرقاء وبقليل من المصابيح البيض.. وكان الرقص على أنغام «الجراموفون» وسالت الساحة بالأقدام والسيقان الفاتنة والتفت الأذرع بالخصور، والتقت الشفاه والصدور.. وكان الجو كله غرامًا حينما هبط «الأب» من مكتبه وألقى نظرة فاحصة على المكان ومن فى المكان، وشجع الجالسين والجالسات ممن لم يشتركوا فى الحلبة على أن ينهضوا فيشاركوا، وكأنما لاحظ أن المصابيح البيض تفسد ذلك الجو «الرومانتيكى» الحالم فراح فى رشاقة الأمريكانى وخفته يطفئها واحدًا واحدًا، وهو يتحاشى أن يعطل حركة الرقص،

أو يصدم زوجًا من الراقصين فى الساحة، وبدا المكان بالفعل أكثر «رومانتيكية» وغرامًا.. ثم تقدم إلى «الجراموفون» ليختار أغنية تناسب ذلك الجو، وتشجع القاعدين والقاعدات على المشاركة فيه.

واختار.. اختار أغنية أمريكية مشهورة اسمها:

«ولكنها يا صغيرتى باردة فى الخارج» وهى تتضمن حوارًا بين فتى وفتاة عائدين من سهرتهما وقد احتجزها الفتى فى داره وهى تدعوه أن يطلق سراحها، لتعود إلى دارها فقد أمسى الوقت، وأمها تنتظر.. وكلما تذرعت إليه بحجة أجابها بتلك اللازمة، ولكنها يا صغيرتى باردة فى الخارج..

وانتظر الأب حتى رأى خطوات بنيه على موسيقى تلك الأغنية المثيرة وبدا راضيًا مغتبطًا، وغادر ساحة الرقص إلى داره، تاركًا لهم ولهن إتمام هذه السهرة اللذيذة البريئة.

القساوسة وصائدات الرجال:

وأب آخر يتحدث إلى صاحب لى عراقى، وقد توثقت بينى وبينه عرى الصداقة فيسأله عن «مارى» زميلته فى الجامعة «لم لا تحضر الآن إلى الكنيسة؟»، ويبدى أنه لا يعنيه أن تغيب الفتيات جميعًا وتحضر «مارى» وحين يسأله الشاب عن هذه اللهفة يجيب: «إنها جذابة، وإن معظم الشبان إنما يحضرون وراءها».

ويحدثنى شاب من شياطين الشباب العرب الذين يدرسون فى أمريكا، وكنا نطلق عليه اسم «أبو العتاهية» ولا أدرى إن كان ذلك يغضب الشاعر القديم أو يرضيه - فيقول لى عن فتاته - ولكل فتى فتاة فى أمريكا - إنها كانت تنتزع نفسها من بين أحضانه أحيانًا لأنها ذاهبة للترتيل فى الكنيسة، وكانت إذا تأخرت لم تنج من إشارات «الأب» وتلميحاته إلى جريرة «أبو العتاهية» فى تأخيرها عن حضور الصلاة، هذا إذا حضرت وحدها من دونه، فأما إذا استطاعت أن تجره وراءها فلا لوم عليها ولا تثريب.

الغاية عندهم تبرر الوسيلة:

ويقول لك هؤلاء الآباء: إننا لا نستطيع أن نجتذب هذا الشاب إلا بهذه الوسائل!

ولكن أحدًا منهم لا يسأل نفسه: وما قيمة اجتذابهم إلى الكنيسة، وهم يخوضون إليها مثل هذا الطريق، ويقضون ساعاتهم فيه؟ هل الذهاب إلى الكنيسة هدف فى ذاته

أم آثاره التهذيبية فى الشعور والسلوك من وجهة نظر «الآباء» التى أوضحتها فيما سلف فمجرد الذهاب هو الهدف وهو وضع لمن يعيش فى أمريكا مفهوم.

ولكنى أعود إلى مصر، فأجد من يتحدث أو يكتب عن الكنيسة فى أمريكا - وهو لم ير أمريكا لحظة - وعن دورها فى الإصلاح الاجتماعى، ونشاطها فى تطهير القلب وتهذيب الروح..

ولله فى خلقه شئون!!

الإسلام البراجماتى

إن هذه البراجماتية الدينية بعد غزوها لنا لم تنتقل إلينا كما هى وإنما تفاعلت مع واقعنا وميراثنا الدينى وكونت بذلك صيغة جديدة ملائمة للواقع الجديد وباستقراء الواقع الدينى عندنا نجد جهلا شديدًا بالإسلام وانتشار مفاهيم مزيفة عنه لا تمت له بصلة وانتشار الجماعات الصوفية والوجدانية فى كل مكان وميلا كبيرًا عند عوام الناس إلى الجبرية، ورياء سياسيًا دينيًا انتقل إلينا عبر الأجيال، ورعبًا مستقرًا فى نفوس الناس من الممارسة السياسية الدينية نتيجة لتتابع النظم الحاكمة المستبدة علينا، هذا بالإضافة للفقر الشديد الذى يعانى منه الأغلبية فى كل مكان والذى ألحّ دائمًا على أن وجود هذا العامل قد ساعد كثيرًا فى سرعة انتشار المفاهيم البراجماتية عندنا.

وبهذه الخلفية السابقة نستطيع أن نتحدث عن الإسلام البراجماتى أو النفعى فالإسلام البراجماتى يعنى بإيجاز شديد: التعامل بالمنظور النفعى مع الإسلام أى استغلال الإسلام للمنفعة «كما يراها البراجماتيون» دون التقيد بإطاراته أو شروطه أو تعاليمه. هذا بالإضافة إلى التوفيق أو بقول أدق التلفيق المستمر بين مفاهيم البراجماتية الدينية التى تتعامل مع الدين بوجه عام على أنه مخدر ذو مفعول متجدد دائمًا وعلى أنه إحدى الوسائل الاحتيالية لاكتساب المظهرية الاجتماعية وبين بعض المظاهر والشكليات الإسلامية التى يمكن استغلالها لصالح تلك المفاهيم، ومع أن استغلال الدين بشكل نفعى أمر قديم قدم الزمن إلا أنه منذ أواسط السبعينيات ومع سقوط بلد إسلامى كمصر فى أسر الهيمنة الأمريكية لمجتمعنا فقد أدى ذلك إلى وجود البيئة البراجماتية المناسبة التى عملت على ترويج نمط التعامل مع الدين بشكل نفعى وإيجاد المبررات الفلسفية لتسويغ ذلك النمط وإضفاء الشرعية عليه.

كما أن هذه المفاهيم الجديدة أدت إلى تطوير الأساليب التقليدية لاستغلال الدين للمصالح الشخصية وكذلك استحداث أساليب أخرى جديدة على تلك الأساليب القديمة ففى مجتمع تكون السيادة فيه للقيم النفعية بوجه عام يكون من الطبيعى جدًا أن يسود فيه نمط التعامل النفعى مع الدين بوجه خاص.

ونحن نسمى هذا الإسلام البراجماتى دينًا جديدًا لأنه من المعلوم لنا بالضرورة أن

الإسلام دين لا يقبل التجزئة أو التوفيق مع أى ملة أو عقيدة أو مذهب آخر فإذا حدث شيء من ذلك فقد ذلك الناتج الجديد صلته بالإسلام تمامًا وعُدَّ بذلك دينًا جديدًا.

ولكن المنتمين للأسلام البراجماتى لا يمثلون نموذجًا واحدًا وإنما عدة نماذج نستطيع أن نستخلص منها النماذج الآتية:

النموذج الأول:

ينتمى إلى هذا النموذج المثقفون المسلمون الذين استهلكتهم الأفكار الأوربية المضطربة فتاهوا فى متاهاتها حتى وصلت بهم - كما وصلت بأهلها - إلى مرحلة العبث، ولكن هؤلاء لم يستطيعوا تحمل العبث الوجودى الذى يتقدم بهم نحو العدم فاختاروا طريقة العبث البراجماتى الذى يستطيع أن يواصل بهم حياتهم بالتخدير النفعى الانتهازى المتواصل.

وهؤلاء التجئوا إلى الإسلام بهذا الموقف التفعى التخديرى فهم يمارسون الشعائر الإسلامية أو يحاولون ممارستها ويتظاهرون كذلك بالمظاهر الإسلامية المختلفة ويتوسمون بالدفاع عن الإسلام، وهم يكتسبون من ذلك الشرعية لوجودهم وانخراطهم بين المسلمين دون أن يتعرضوا للاتهام بالكفر أو الإلحاد وما يستتبع ذلك من ردود فعل عنيفة ومقلقة من المسلمين المتحمسين بل ويكتسبون من ذلك أيضًا إضفاء الاحترام والتبجيل الذى يعامل به المتدينون خصوصًا من عوام المسلمين.

وهم يقومون باستمرار بتكييف المفاهيم الإسلامية بحيث تتوافق دائمًا مع أفكارهم النفعية فيكون الإسلام رأسماليًا إذا كانت مصلحتهم فى الرأسمالية ويكون الإسلام اشتراكيًا إذا كانت مصلحتهم فى الاشتراكية ويكون مع تحرر المرأة واختلاطها بالرجال إذا أرادوا الإباحية ويكون مع سجنها واستعباد الرجل لها إذا كان منهم المصاب بالنرجسية والتحكم والسيطرة ويكون - أقصد دائمًا الإسلام كما يكيفيه البراجماتى - ضد مجانية التعليم إذا كان من الأغنياء والعكس بالعكس وهكذا.

فهو يستطيع دائمًا أن يجد التبريرات المختلفة التى يحاول بها إثبات اتفاق الإسلام مع وجهة النظر التى تنفعه وتخدمه.

وأهم من ذلك كله عملية الخداع المتواصل النفسى بقيامه بشعائر إسلامية لم يأخذ منها ومن عقيدتها الموقف الحاسم من الاقتناع ومن الإيمان وبالرغم من ذلك فهو يحاول أن يستمد منها نوعًا من الراحة والسكينة والطمأنينة التى تمكنه من مواصلة

حياته وتخفيف حدة قلقه ولو على سبيل التخدير اللحظى المستمر وتميز العين الحاذقة السلوكيات النفعية الانتهازية لذلك النموذج بمجهود كبير. أما الأشخاص العاديون فمن الصعب أن يستطيعوا أخذ المآخذ على مثل هؤلاء الأشخاص الذين يتمسكون دائمًا بالمسوح الإسلامية ويملكون قدرة فائقة على تبرير أحط أعمالهم مهما كانت بشاعتها.

والبراجماتى بالرغم من ذلك لا يتقيد بأى قيد إسلامى من الممكن أن يتعارض مع مصلحته ومنفعته الشخصية على الإطلاق وهو على استعداد دائمًا أن يضرب عرض الحائط بكل القيم الإسلامية التى تتعارض مع انتهازيته وحقارته وشروره، ولا يفوت فرصة يجد فيها لذته ومتعته دون أن يستغلها بلا تردد مهما كان انحطاطها بل ومهما كانت بشاعة سلوكه.

فهو براجماتى كامل من حيث المحتوى ولكنه يحاول دائمًا أن يغلف نفسه بغلاف إسلامى.

النموذج الثانى:

أغلب المنتمين إلى ذلك النموذج من الطبقات الرأسمالية المستغلة، والطبقات الطفيلية الجديدة، وموقفهم هذا لا يقوم على اختيار أو موقف فكرى محدد وإنما يقوم على الانتهازية المادية عندهم. فهؤلاء القوم قد اختزلوا حياتهم إلى تحقيق أكبر قدر من المال والثروة والتمتع بالملذات التى يوفرها ويكيفون دنياهم بالطريقة التى تساعدهم على النجاح فى تحقيق ذلك.

وهم يستخدمون الإسلام استخدامًا نفعيًا خبيثًا، فيتعلقون بكل المظاهر الإسلامية التى تكسبهم الوجاهة والاحترام، وتضفى الشرعية على أعمالهم الإجرامية المنحرفة وتقيم حاجزًا بينهم وبين المستغلين الذين يمتصون دماءهم، وهم على استعداد كبير لبذل الأموال الضخمة التى يقتضيها ذلك لأنهم يفهمون جيدًا أن هذه الأموال ستحقق لهم قدرًا من النفع سيدر عليهم أضعاف أضعاف ما يبذلونه من مال، ولهذا فهم يبنون المساجد الضخمة الأنيقة أو يقومون بتجديد المساجد ذات الوضع المميز من حيث كثافة المصلين فيها واهتمام الناس بها - وجعلها آية فى الفخامة والروعة.

وكذلك فهم يقومون ببذل أموالهم على الفقراء والمشاريع الخيرية جهارًا عيانًا بحيث يصل الأمر إلى أكبر عدد من الناس ويكون حديثًا للرائح والغادى عن بر وتقوى من يقوم بذلك وبالرغم من أن علانية هذه الأمور لها عائدها المادى الكبير، إلا أن ذلك ليس

النفع الوحيد الذى يهدف إليه هؤلاء من بذل أموالهم، لأن الجهات التى تبذل إليها هذه الأموال غالبًا ما تكون مرتبطة بتأدية الكثير من الخدمات لهؤلاء البراجماتيين.

ويقوم الكثير من هؤلاء بممارسة الكثير من الشعائر والأعمال التعبدية وأهم ما يواظبون عليه من هذه العبادات الحج والعمرة، فقد يواظب هؤلاء على الحج سنويًا والعمرة شهريًا، فالحج والعمرة - بالإضافة إلى ما فيهما من مظهرية دينية يبتغونها فإنهما يتميزان بالنسبة لهم بما يتيسر معهما من التمكن من ممارسة الكثير من النشاطات المريبة مستغلين فى ذلك حصانتهم أو علاقتهم المشبوهة ببعض المسئولين المنحرفين، هذا فضلا عن تميزها بتلك المراسم الاحتفالية التى يحتشد فيها الناس من أجل التوديع أو التهنئة على الزيارة المباركة والعودة بالسلامة، يقول ابن عباس ﵁: فى آخر الزمان يكثر الحجاج بلا سبب.. يهوى لهم السفر.. ويبسط لهم فى الرزق ويرجعون مجرمين مسلوبين.. يهوى بأحدهم بعيره بين القفار «الصحارى» والرمال.. وجاره مأسور إلى جنبه فلا يواسيه.. ولا يتفقده..».

وهؤلاء القوم يجدون المبررات الكافية لكل أعمالهم مهما كان الحد الذى بلغته من عدم الشرعية. وهم غالبًا مفتو أنفسهم، وبعضهم يحفظ الكثير من آيات القرآن التى يضع لها التأويل المناسب الذى يسعفه ويساعده على تبرير أعماله أمام نفسه أو أمام الناس، فالحشيش مثلا ليس حرامًا لعدم ذكره فى القرآن والله يقول: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ﴾ وكذلك الموقف من تهريب الذهب، أما التزامهم بمداهنة كل الحكومات فيستدلون عليه بقوله تعالى: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ﴾، أما استغلالهم للناس واستكبارهم عليهم فالدليل عليه قوله تعالى: ﴿وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ﴾ دون أن يكملوا الآية الكريمة.

وظلمهم للناس ضرورة وقدر من الله ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ أما الأعمال غير المشروعة التى لا يستطيعون استحلالها لمخالفتها الظاهرة للإسلام كالسرقة والزنى فإنهم يسولون لأنفسهم ارتكابها على أساس أن الله غفور رحيم وأن تأدية عدد من الركعات أو على الأكثر زيارة لبيت الله الحرام ستطمس هذه الذنوب وتغفرها، فالشعائر عندهم معين دائم للراحة والطمأنينة - غير الواقعيين فى الحقيقة - والثقة بالنفس وتقويتها على مواصلة أعمالهم ورذائلهم المنحطة المدنسة.

فإذا تعلق الأمر بتقديم تضحية من التضحيات أو بذل جهد أو مال دون أن يأتى من

وراء ذلك طائل أحجموا عن بذل أى شىء مبررين ذلك بأن ما يراد منهم فيه الضرر لهم والإسلام لا يرضى بالضرر، بل إن الضرر فى الإسلام حرام.

وهكذا فالإسلام بالنسبة لهم مكسب مستمر ومعين لا ينضب يستمدون منه القدرة على مواصلة كل أعمالهم وأفعالهم البراجماتية فى هدوء وسلام وبلا أقل قلق، وكلما مضى الزمن بهم وازدادت أموالهم وخبرتهم وحكمتهم البراجماتية المزعومة ازدادت قدراتهم الكبيرة على تأويل وتكييف نصوص الإسلام على المنحى الذى يريدون.

النموذج الثالث:

وهو نموذج الكثير من السياسيين وبعض الأحزاب السياسية وأغلب هؤلاء قوم من العلمانيين لا يؤمنون بالإسلام على الإطلاق عن موقف ودراسة ويعتبرونه مناط التخلف والركود الذى نعانى منه هذا بالإضافة إلى ما يعانيه الكثيرون منهم من عقد الكبت التى تعرضوا لها فى طفولتهم وتصوروا أن السبب فيها يرجع إلى الإسلام ولهذا فإن الكثيرين منهم يحملون كراهية شديدة وتعصبًا خاصًا ضد الإسلام على أساس أنه الحاجز الوحيد الذى يواجه إباحتهم التى يريدون أن يمارسوها بحرية فى المجتمع.

ولكن بالرغم من كل ما سبق فهؤلاء يدركون مدى ما تحمله شعوبنا من حب فطرى للإسلام ولكل رموزه ولكل الذين يدخلون فى إطاره ولهذا فإنهم يستغلون الحديث عن الإسلام بشكل براجماتى سياسى كأحد أشكال الرياء السياسى المعاصر ويضعون بعض الشعارات الإسلامية ذات المدلول الخاص فى برامجهم السياسية كالحرص على تطبيق الشريعة الإسلامية، ويحرصون على لصق مصطلح المفكرين الإسلاميين بأنفسهم أو ببعض منهم، كما تحمل دعاياتهم الانتخابية الكثير من الآيات والأحاديث ويجدون هذه المناسبة فرصة لإعطاء هذه الآيات والأحاديث المدلول الذى يوافق أغراضهم، فهم يقدمون دائمًا أفكارهم المغرضة الخاصة على أنها اجتهادات فى الإسلام بحجة أن الاجتهاد فى الإسلام ليس قاصرًا على أحد مهما كانت مكانته أو عمله - أن يحجر على فكر مسلم أو يشكك فى عقيدته.

النموذج الرابع:

وهو نموذج بعض الناس العاديين الذين يحددون مدى قبولهم للالتزام الدينى بمدى المنفعة الناتجة عنه بل ويحددون الالتزام نفسه بمدى ما ينتج عنه من منفعة أو ضرر.

فالتدين مقبول عندهم على أنه نوع من الوجاهة الاجتماعية والتخدير النفسى والتبرير النفعى لبعض الانحرافات، أما إذا أدى اتباع الدين إلى فرض أنماط سلوكية مثل التضحية والتواضع والإخلاص والتعالى على الماديات والشكليات التافهة فحين ذلك سيقابل بالرفض.

وهذا النموذج ينتشر بين النساء بوجه خاص ويمكن ضرب المثل له بموقف هؤلاء من الحجاب فبعض النساء يقبلن على ارتداء الحجاب على أنه نوع من الوجاهة الاجتماعية بل إن البعض منهن قد يتسترن فيه من شبهة الانحراف التى قد تعلق بهن، والحجاب عند هؤلاء غاية فى الروعة والأناقة ومصمم على أحدث الموديلات المبتكرة لبيوت الأزياء وكثيرًا ما يضيف إليهن جمالا وفتنة دون أن يعكس ذلك الحجاب على سلوكهن أى نوع من الالتزام.

أما إذا كان الحجاب بشروطه الطبيعية محترمًا وفضفاضًا ومحتشمًا وملزمًا لهن بالفضيلة والوقار فإنه يصير تخلفًا ورجعية وتعصبًا ما أنزل به الله من سلطان، فما بالك لو أدى إلى تقليل جمال إحداهن فلسوف تطلق اللعنات عليه وعلى كل من يدعو إليه.

وكذلك مقياس التدين عند الآخرين فلو التزم أحد الأشخاص وساعدته الظروف على النجاح فى حياته والتقدم فى أعماله أشاد هؤلاء بجدوى التزامه وصحة تدينه وأطلقوا قصائد الثناء والمديح على الالتزام وفوائده وجماله، أما إذا التزم أحد الأشخاص وتعرض لبعض الظروف والابتلاءات التى يختبره الله بها فإنه يكون محل احتقارهم ودليلا على فساد تدينه، بل ودليلا على أن أفضل الأمور الوسط بالمعنى المشاع اجتماعيًا عن هذا الوسط والمراد به اتخاذ الطريقة الماشية العادية اللامبالية بغير الماديات كوسط آمن بين التدين والانحراف أما إذا شاء القدر بأحد الأشخاص أن يؤدى به تدينه إلى السجن والاعتقال لكان ذلك حجة كبرى لهؤلاء على أن خير طريق يتخذه الإنسان فى الحياة هو أن يأكل ويشرب وينام ويمارس حياته فى أمن وسلام وعليه أن يتشبث بذلك ولا ينصرف عنه إلى أبد الآبدين. والصلاة شىء عظيم تضفى الكثير من الوجاهة على المصلين وكذلك الحج والعمرة اللذان يكسبان المؤدى لهما لقب الحاج لكن هل ينعكس شىء من هذا على سلوكهم الاجتماعى ومعاملتهم مع الآخرين؟ اللهم لا. فالعلاقات الاجتماعية يمكن تبرير أحط وأحقر المواقف فيها بالكذب والادعاء

الزور وإلقاء التهم على الآخرين جزافًا ومن أين يستطيع أحد الوصول إلى الحقيقة فى تلك المواقف فى واقع فقد الحَكَم أو القاضى العادل، فهؤلاء الأشخاص لا يجدون فى أنفسهم أى شعور بالذنب مهما كان ظلمهم للآخرين فالتبرير والتأويل موجودان باستمرار، وعلى فرض كونهم قد وقعوا فى بعض الأخطاء أمام أنفسهم وهى بالكاد لا تتجاوز أخطاء فى تقديرهم - فبركعتين إضافيتين على ما اعتادوه من صلوات أو على الأكثر بزيارة إلى بيت الله الحرام فإن الله سوف يغفر لهم ذنوبهم بل وقد يعودون بفائض من الحسنات، هكذا يعتقدون!!

وعندما يكون الظلم والقدر والخيانة والدسيسة والكذب والنفاق ورمى الناس بالباطل والإفساد فى الأرض أعمالا يمكن غفرانها بزيارة إلى بيت الله الحرام يبدل فيها القليل من المال وعندما يكون كل ذلك واقعًا موجودًا لا يثير استياء أحد فإننا نستطيع أن ندرك عند ذاك مدى ما يحدث من بشاعة.

النموذج الخامس:

يقول الدكتور يوسف القرضاوى فى كتابه «أين الخلل؟»:

«أول ما يشكو منه ذوو البصائر داخل الحركة الإسلامية بمعناها الواسع أن النقد الذاتى فيها ضعيف إن لم يكن غائبًا فى بعض الأحيان.

والنقد الذاتى بتعبيرنا الإسلامى هو محاسبة النفس وهو شأن «النفس اللوامة» التى نوه بها القرآن. وجاء فى الحديث: «الكيس من دان نفسه» أى حاسبها وقال عمر: حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا وزنوا أعمالكم قبل أن توزن عليكم. وقال بعض السلف: المؤمن أشد حسابًا لنفسه من سلطان غاشم ومن شريك شحيح.

وكما أن على الفرد أن يحاسب نفسه على تفريطه فى جنب الله أو تقصيره فى حقوق الناس محاولا أن يجعل يومه خيرًا من أمسه وغده خيرًا من يومه فإن على الجماعة أن تحاسب نفسها كذلك.

وفى كتاب «الآفات العشرين» ضمن سلسلة نحو جيل مسلم» يكتب المركز الإسلامى للدراسات والبحوث تحت بند آفة شهوة الزعامة: «قال تعالى عن طالوت: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ واضح من هذه الآية الكريمة أن القيادة والزعامة اصطفاء واختيار من الله، وهى نعمة

يسبغها الله على بعض جنوده العاملين المجاهدين لإعلاء كلمة الحق. ولكن الله ابتلى أمتنا فى الوقت الحاضر ببعض نفر لا يتورعون عن فرض ذواتهم على الناس عامة وعلى العاملين فى الحقل الإسلامى خاصة.. تنفر منهم النفوس وتقشعر لمرآهم الأبدان، ولم يجن المسلمون من وراء تصرفاتهم إلا المزيد من الفواجع والكوارث التى تصيب المسلمين دائمًا بالإحباط، وقد ذكر الإمام ابن تيمية نفرًا من الناس لم يجدوا مجالا لإظهار أنفسهم وفرض ذواتهم، والتكبر والاستعلاء على الناس فى مجالات الحياة المختلفة فيأتون إلى الإسلام ويلبسون ثياب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر لا من أجل الله وإنما من أجل حاجة فى نفوسهم».

ومن زمن بعيد وعلماء الإسلام يحذرون المسلمين وربما الملتزمين منهم على وجه الخصوص من الانزلاق إلى شرك عشق الزعامة والاعتزاز بكثرة العبادة والترفع على الناس بالطاعة، فهذه أمراض تصيب قلوب الناس منذ القدم وقد عمل علماء الإسلام منذ زمن قديم على علاجها والتخلص منها وصنفوا فى ذلك الكثير من المصنفات.

ولكن يبدو أن البيئة البراجماتية التى نعيش فيها منذ أواسط السبعينيات قد عملت على استفحاش هذه الأمراض فى القلوب بدرجة خطيرة، والسمة العامة لهذه الأمراض هى الحرص على الالتزام بإسلام من نوع خاص، إسلام بلا مشاكل بلا مسئوليات سياسية أو اجتماعية، إسلام بلا التزامات واجبة وبلا معايشة فعلية أو مشاركة حقيقية لمشاكل الناس وأزماتهم وكروبهم، إسلام أبعد ما يكون عن التضحيات الحقيقية الواجبة شرعًا.

وصورة ذلك تقديم أقل القليل من العمل الإسلامى الفعلى «عادة» مع استهداف الكثير من المصالح الشخصية الضخمة كحق شرعى وجزاء وجوبى على ذلك التقديم والأمر يزداد سواء إذا تعلق ذلك العمل بمشقة كبيرة.

وأخطر هذه الأمراض مرضان هما: الترفع على الناس بالطاعة وحب الرياسة ويبدو أن الأمر قد اختلط عند هؤلاء بين ما هو يقدم فى سبيل الله ما هو يقدم فى سبيل الكهانة والرياسة والشيطان.

وفى زحمة من اختلاط الدعوات إلى الإسلام بالادعاءات صار هؤلاء ينظرون إلى أى فعل يفعلونه على أنه جوهر الإسلام الصحيح وينظرون إلى المختلفين معهم على أنهم واقعون فى أسر الزيغ والضلال سالكين فى سبيل ذلك شتى المسالك من تأويل وتبرير وتلبيس على أنفسهم وعلى الناس.

يقول الإمام ابن قدامة المقدسى: «روى عن النبى ﷺ أنه قال: «إن أخوف ما أخاف على أمتى الرياء والشهوة الخفية» وهذه الشهوة الخفية يعجز عن الوقوف على غوائلها كبار العلماء فضلا عن عامة العباد وإنما يبتلى بها العلماء والعباد المشمرون عن ساق الجد لسلوك سبيل الآخرة، فإنهم لما قهروا أنفسهم وفطموها عن الشهوات وحملوها بالقسر على أسباب العبادات لم تطمع فى المعاصى الظاهرة الواقعة على الجوارح فاستراحت إلى التظاهر بالعلم والعمل ووجدت مخلصًا من شدة المجاهدة فى لذة القبول عند الخلق ونظرهم إليها بعين الوقار والتعظيم فأصابت النفس فى ذلك لذة عظيمة فاحتقرت فيها المعاصى، فأحدهم يظن أنه مخلص لله عز وجل وقد اثبت فى ديوان المنافقين».

ويقول الإمام الغزالى عند حديثه عن أصناف المغرورين: «وفرقة أخرى أحكموا العلم والعمل الظاهر وتركوا المعاصى الظاهرة وغفلوا عن قلوبهم فلم يمحوا منها الصفات المذمومة عند الله والكبر والرياء والحسد وطلب الرياسة والعلا وإرادة الثناء على الأقران والشركاء وطلب الشهرة فى البلاد والعباد..

وفرقة أخرى علموا هذه الأخلاق وعلموا أنها مذمومة من وجهة الشرع إلا أنهم لعجبهم بأنفسهم يظنون أنهم منفكون عنها وأنهم أرفع عند الله من أن يبتليهم بذلك وإنما يبتلى به العوام دون من بلغ مبلغهم فى العلم فأما هم فإنهم أعظم عند الله من أن يبتليهم بذلك. فظهرت عليهم مخايل الكبر والرياسة وطلبوا العلو والشرف»[٢] أ. هـ.
ويقول عن بعض العلماء الذين ابتلاهم الله بهذه الأمراض: «وربما يدخل أحدهم على السلطان ويتردد إليه ويثنى عليه فإذا سُئل عن ذلك قال إنما غرضى أن أنفع المسلمين وأن أرفع عنهم الضرر وهو مغرور ولو كان غرضه ذلك لفرح به إذا جرى على يد غيره ولو رأى ما هو مثله عند السلطان يشفع فى أحد يغضب، وربما أخذ من أموالهم فإن خطر بباله أنه حرام قال له الشيطان هذا مال لا مالكَ له وهى لمصالح المسلمين وأنت إمام المسلمين وعالمهم وبك قوام الدين. وهل يكون إمامًا إلا من أعرض عن الدنيا كالأنبياء والصحابة؟

ومنهم فرقة أهملوا الفرائض واشتغلوا بالنوافل وربما تعمقوا حتى خرجوا إلى السرف والعدوان كالذى تغلب عليه الوسوسة فى الوضوء فيبالغ فيه ولا يرضى بالماء

---

(٢) الإمام الغزالى: أصناف المغرورين: مكتبة القرآن.

المحكوم بطهارته فى فتوى الشرع ويقدر الاحتمالات البعيدة قريبة من النجاسة وإذا آل الأمر إلى أكل الحلال قدر الاحتمالات القريبة بعيدة وربما أكل الحرام المحض.

ولو انقلب بهذا الاحتياط من الماء إلى الطعام لكان أولى وتشبه بسيرة الصحابة رضى الله عنهم.. إذ توضأ عمر رَضِيَ الله عَنْه بماء فى جرة نصرانية مع ظهور احتمال النجاسة وكان مع هذا يدع أبوابًا من الحلال خوفًا من الوقوع فى الحرام...

وفرقة أخرى أخذت فى طريق الخشية والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر طريق من ينكر على الناس ويأمرهم بالخير ونسى نفسه وإذا أمرهم بالخير «عنف» وطلب الرياسة والعزة.. وإذا باشر منكرًا أنكر عليه غضب وقال: أنا المحتسب «أى الآمر بالمعروف والناهى عن المنكر» فكيف تنكر على.. وقد تجمع الناس فى مجلسه أو مسجده.. ومن تأخر عنه أغلظ عليه القول. وإنما غرضه الرياء والسمعة وحب الرئاسة.. وعلامة ذلك أنه لو قام بالمسجد غيره تجرأ عليه. بل منهم من يؤذن ويظن أنه يؤذن لله تعالى.. ولو جاء غيره وأذن فى وقت غيبته قامت عليه القيامة وقال: لم أُخذ حقى وزوحِمت؟، ومنهم من يتقيد أمام مسجد ويظن أنه على خير وإنما غرضه أن يقال: إنه إمام المسجد، وعلامته: أنه لو قدم غيره وإن كان أورع منه وأعلم ثقل عليه ذلك...

وفرقة أخرى زهدت فى المال وقنعت من الطعام واللباس بالدون ومن السكن بالمساجد وظنت أنها أدركت رتبة الزهاد وهم مع ذلك راغبون فى الرياسة والجاه، والزهادة إنما تحصل بأحد أشياء: إما بالتعلم أو بالوعظ أو بمجرد الزهد فلقد تركوا أهون الأمرين وباءوا بأعظم المهلكات، فإن الجاه أعظم من المال ولو أخذ المال وترك الجاه كان إلى السلامة أقرب وهؤلاء مغرورون بظنهم أنهم من الزهاد فى الدنيا ولم يفهموا كيف مُكر بهم، وربما تقدم الأغنياء على الفقراء.

... ومنهم من يعجب بعلمه، ومنهم من يؤثر الخلوة وهو عن شروطها خال منهم ويُعطى المال فلا يأخذه خيفة أن يقال بطل زهده وهو راغب فى الدنيا، خائف من ذم الناس ومنهم من شدد على نفسه فى أعمال الجوارح.. حتى يصلى فى اليوم مثلا ألف ركعة ويختم القرآن وهو فى جميع ذلك لا يخطر له مراعاة القلب وتفقده وتطهيره من الرياء والكبر والعجب وسائر المهلكات.. وربما يظن أن العبادة الظاهرة ترجح بها كفة الحسنات، وهيهات فذرة من ذى تقوى، وخلق واحد من خلق الأكياس أفضل من أمثال

الجبال عملا بالجوارح.. ثم قد يغتر بقول من يقول له إنك من أوتاد الأرض وأولياء الله وأحبائه.. فيفرح لذلك ويظهر له تزكية نفسه ولو شتم يومًا واحدًا ثلاث مرات أو مرتين لكفر وجاهد من فعل ذلك وربما قال لمن سبه: لا يغفر الله لك أبدًا. وترك الترتيب بين الخيرات من جملة الغرور..» أ هـ.

ولكن كهنة هذا العصر يعتقدون أن صلواتهم وتهجداتهم واعتكافهم فى المساجد هى أمور موجبة لتوقير الناس لهم وتبجيلهم والإكبار لهم والالتفاف حولهم والخجل أمامهم والتوسع لهم فى المجالس والوقوف فى خشوع بين أيديهم والتماس الهدى والبركات منهم، فإذا صاروا بين الناس وجدت الكبر يملأ نفوسهم والترفع يسم وجوههم، فلا يختلطون بعوام الناس ولا يكادون يبدءون بالسلام على أتباعهم ومريديهم.

فالعالم من هؤلاء لا يكاد يطيق مراجعة أحد من الناس له، والعابد منهم ينحى وجهه عن الناس وكأنه مستقذر لهم.

وقد يعتقد البعض من هؤلاء أن الإسلام مجرد موجدات قلبية ثم إذا به يحاكم الناس على أساس هذه الموجدات وبافتراض مسبق بفضله عليهم لأنه أكثرهم انفعالا وجهدًا ووجدًا دينيًا، وهو يحب دائمًا أن يلتف الناس حوله ويسألوه الدعاء ويلتمسوا منه أن يطرد الشياطين من نفوسهم فإذا لم يعامله أحد الأشخاص بتلك الحظوة والخصوصية التى يطلبها عند الناس عامله بجفاء وحدة وأنزل عليه وابل غضبه وضخم عند الناس فى زلاته وحقر فى حسناته، فإذا شق عليه أن يجد ما يأخذه عليه من المآخذ جعل حجته قلبه المخلص الذى يعلم عنه الناس الإخلاص والتقوى والإيمان والورع والصلاح زاعمًا أن هذا القلب قد أفتاه بمدى ضلال ذلك الشخص والتباس الشياطين به.

قلت لأحد الأشخاص مرة: لقد نسب إلى زمرتكم من الأفعال المنافية للأخلاق الإسلامية كذا وكذا. وإن الوقائع التى تثبت ذلك هى كذا وكذا، فقال لى فى سخرية مترفعة: لقد كنا فى هذه الفترة التى تتحدث عنها فى حالة عالية جدًا من الالتزام والإخلاص والتقوى ولهذا فلقد ضحكنا كثيرًا من هذه التهم، ففغرت فمى عجبًا من تلك الإجابة على التهم اللاأخلاقية الموجهة إليهم ثم قلت له فى استنكار وحدة: وما الذى أدراكم بأنكم كنتم فى حالة عالية جدًا من الإخلاص والتقوى؟!!

ومن هؤلاء من يحرص دائمًا على ترديد الكثير من الأذكار والأوراد والأدعية ورفع

صوته بها سواء اتفق ذلك مع مناسبة أم فى غير مناسبة وكذلك الالتزام ببعض الملابس والهيئات المرتبطة بالتدين فى أذهان الناس والتواجد فى التجمعات التى تقتضيها المناسبات الدينية الخاصة ويعتبرون أن ذلك كفيل بإعفائهم من أية التزامات أو فروض دينية أخرى بل وإن ذلك يؤهلهم تأهيلا كاملا لجنى ثمرات ذلك الوضع الدينى المتميز عند الناس.

وهناك فريق آخر من محبى الزعامة والرياسة نستطيع أن نصفهم بأصحاب الأيدى الناعمة عاشقى قطف الثمار الناضجة التى لم يبذلوا فى زرعها أو إنضاجها جهدًا يذكر، فهؤلاء هم الذين يحرصون على إلصاق أنفسهم بالحركة الإسلامية على أنهم بعض أقطابها أو علاماتها المميزة مع أنهم لا يكادون يطيقون مخالطة الناس والتبسط معهم بل مشاركتهم مشاكلهم وكروبهم وتحمل أذاهم، وهم فى معزل تام عما يقتضيه طريق الدعوة الإسلامية من المشاكل السياسية أو الاجتماعية أو الفكرية وأى قلق بسيط قد يعترى الحركة الإسلامية هو بمثابة رعب كبير لهؤلاء ومع ذلك فإن الكبر يبلغ بهم إلى حد أنهم يتواضعون للناس بإشعارهم أنهم لإخلاصهم الشديد لدينهم يهبطون من عليائهم ويتواضعون لهم، هذا هو تواضعهم فما بالك بكبرهم.

وهناك فريق آخر من الناس - وهم قلة نادرة جدًا على كل حال - يحرص على الزعامة والرياسة حتى ولو أدى به الأمر إلى تقديم الكثير من التضحيات والتعرض لما لا يطاق من المخاطر والمشاق.

وبالرغم من أن هذه الأمراض أمراض قديمة ولكن يبدو أن البيئة البراجماتية التى تتفاعل معها يوميًا قد ساعدت على استفحال وانتشار مثل هذه الأمراض، فهؤلاء لا يكادون يشكون لحظة فى أن ما يفعلونه هو صميم ما يدعو إليه الإسلام من البر والتقوى والصلاح والجهاد، وعلى هذا فإن ذلك السعى إلى هذه الأغراض النفعية ينطوى على درجة خطيرة جدًا من الشرك الخفى الذى حذرنا منه الرسول ﷺ فى قوله: «إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر، قالوا: يا رسول الله وما الشرك الأصغر؟ قال: «الرياء».

أما المسلمون المخلصون حقيقة فيقول عنهم الرسول ﷺ: «إن الله يحب الأبرار الأتقياء الأخفياء الذين إذا غابوا لم يفتقدوا وإن حضروا لم يعرفوا».

ويقول الشيخ حافظ بن أحمد حكمى[٣]: والفرق بين الرياء الذى هو النفاق الأكبر وبين الرياء الذى سماه النبى ﷺ شركًا أصغر خفيًا هو حديث الأعمال بالنيات وهو ما رواه عن عمر رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه». فالنية هى الفرق فى العمل فى تعيينه وفيما يراد به وقد أطلقت النية فى القرآن بلفظ الابتغاء وبلفظ الإرادة فإن كان الباعث على العمل هو إرادة الله والدار الآخرة وسلم من الرياء فى فعله وكان موافقًا للشرع فذلك العمل الصالح المقبول وإن كان الباعث على العمل هو إرادة غير الله عز وجل فذلك هو النفاق الأكبر، سواء فى ذلك من يريد به جاهًا ورئاسة وطلب دنيا أو من يريد حقن دمه وعصمة ماله أو غير ذلك، فهذان ضدان ينافى أحدهما الآخر لا محالة. قال الله عز وجل: ﴿وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا﴾ وقال تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلاهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ۝١٨ وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا﴾.

ولعل أخطر هذه الأمور وأكثرها التباسًا على الإطلاق هو ربط تصور الإسلام أو العمل فى حقل الدعوة الإسلامية بحدود المصالح الخاصة للبعض، وأفضل مثل يضرب على ذلك هو الموقف من الحكام والذى يجعله البعض يتراوح من أقصى الشدة إلى أقصى اللين بحسب المصلحة الناتجة عن اتخاذ أى من المَنْحَيَيْن طريقة وأسلوبًا فى ادعاء العمل الإسلامى.

وعلى نحو أقل من ذلك ربط تصور الإسلام أو العمل الإسلام بحدود ما لا يكلف من مشاق أو حرج وخير الأمثلة التى تضرب على ذلك اعتزال الناس والاعتكاف على تحصيل العلم أو العبادة بحجة فساد الناس وكثرة الفتن.

---

(٣) معارج القبول.

القسم الثالث

الأسس الموضوعية لانتصار القيم الإسلامية على القيم البراجماتية

الأسس الموضوعية
لانتصار القيم الإسلامية على القيم البراجماتية

مما لا شك فيه أن على الداعية أن يقوم بواجبه فى الدعوة إلى الله دون أن يعلق ذلك على تحقيق النتائج.

ولكن العمل فى مجال الدعوة الإسلامية كما أنه يحتاج إلى الإخلاص وبذل الجهد فإنه يحتاج أيضًا إلى وعى كبير بالظروف والحقائق الموضوعية التى تشكل الواقع الذى يريد أن يمارس فيه نشاطه كداعية، فالداعية المسلم - الذى يفترض فيه أن يكون كيسًا فطنًا - يعى جيدًا أن الأخذ بالأسباب جزء لا يتجزأ من حقيقة التوكل على الله.

ومع العلم بكون هداية البشر أمر بيد الله وحده فإن ذلك لا يدعونا إلى التغافل عن الأسس الموضوعية التى تقوم عليها الدعوة والظروف الواقعية التى يجب أن تُهيأ لها.

وفى الحقيقة فإن ذلك الذى نقوله لا يخرج عن نطاق ما تدعو إليه الآية الكريمة: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ...﴾ ولا عن حقيقة ما يعنيه قول أمير المؤمنين عثمان بن عفان: «إن الله ليزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن» فهذه هى سنن الله فى الأرض التى يجب ألا نحيد عنها.

ولكن البعض ما زال يتصور أن الدعوة إلى الله لا تتطلب - لكى تمضى هادئة فى خط مستقيم - سوى توافر الجهد والإخلاص المطلوبين لها دون إدراك لحقيقة القوى المضادة التى تواجهها والتى تعمل على إعاقتها عن التقدم، مع أن الواقع الموضوعى يقتضى علينا أن نبذل أقصى جهدنا فى إزالة المعوقات التى تواجه الدعوة، ذلك الجهد الذى قد يكون أكثر مشقة على النفس وأكبر درجة عند الله من الجهد المبذول فى الدعوة نفسها.

إن الجهاد ضد التبعية والاستبداد والقهر والفقر والجوع والجهل والتخلف والأفكار الإلحادية الغازية هو الركن الأكبر صعوبة فى دعوتنا إلى الله؛ لأنه إذا كانت «رهبانية الإسلام الجهاد» فإن «أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر» إن هذا السلطان الجائر لا يعنى فقط مجرد حاكم ظالم ولكنه يعنى كل قوة مستبدة طاغوتية تفرض على

الناس ما تريد أو تعمل على إعاقة سير الدعوة إلى الله سواء تمثلت هذه القوة فى حاكم ظالم. أم سيطرة استعمارية طاغوتية عالمية، أو هيمنة اقتصادية مذلة، أو تقاليد جاهلية بالية تعين الظالمين على ظلمهم والمستكبرين على استكبارهم، أو فقر مدقع يذهل الناس عن دينهم وآخرتهم أو مذاهب وفلسفات هدامة تزيف الحقائق وتدمر القيم.

إن هذا الوعى السليم عن الجهاد هو ما عبر عنه صحابة الرسول ﷺ فى قولهم: «الله ابتعثنا لنخرج من نشاء من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده ومن ضيق الدنيا إلى سعتها وجور الأديان إلى عدل الإسلام»، هكذا كانت إجابة ربعى بن عامر وحذيفة بن محصن والمغيرة بن شعبة على سؤال رستم قائد الفرس: «ما الذى جاء بكم إلى هنا»؟

لقد تعلق اهتمام الناس بما قالوه عن إخراج الناس من عبادة العباد إلى عبادة الله، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام ولكن قليل من أثار انتباهه قولهم «ومن ضيق الدنيا إلى سعتها» إن هذه الأهداف الثلاثة التى ذكرها الصحابة تمضى فى تواز موضوعى لتحدد أهم معالم الدعوة إلى الله وعلى ذلك يكون ضيق الدنيا على الناس لا يمثل فقط أحد العوائق الواقعية التى تواجه الدعوة إلى الإسلام والتمسك بتعاليمه وقيمه بل يكون إخراج الناس من هذا الضيق أحد منطلقات هذه الدعوة ذاتها، وفى الحقيقة فإن هذه الأهداف الثلاثة لا تعدو أن تكون مجرد مظاهر لحقيقة روح واحدة تهيمن على هذا الدين، والتى نعنى بها حقيقة العبودية لله، لأن العبودية الحقيقية لله هى الخروج بالناس من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده ومن ضيق الدنيا إلى سعتها ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام.

لقد كان رسول الله ﷺ وصحابته يمثلون الوعى الحقيقى بمدى واقعية هذا الدين ورحمته بالناس ولكن مشكلتنا الكبرى أننا تخلفنا تخلفًا مريرًا عن كل ما هو حقيقى فى هذا الدين ولم تعد هناك مهمة للكثيرين منا سوى التلويح ببعض الأحكام الظاهرية له دون مراعاة لما يتعلق بهذه الأحكام من أحكام أخرى ترتبط بها ارتباطًا عضويًا وتشكل معها رباطًا لا ينفك وكلا لا يتجزأ.

وعندما تكون أبسط أنواع الأطعمة التى يمكنها سداد الجوع وأحقر مأوى يمكن الالتجاء إليه وأقل حد أدنى من الشعور بالأمان والكرامة كل ذلك مفقودًا أو بيد الآخرين فهل سيكون من اليسير على الدعاة أن يدعوا أناسًا يعانون من وضع كهذا إلى

التمسك بالقيم الإسلامية فى مواجهة القيم البراجماتية التى تبيح لهم كل شىء فى سبيل الحصول على المال، وكيف لا يكون تجاهل هذه الأوضاع تهاونًا منا فى مسئوليتنا كدعاة، وإذا كانت هذه العوامل لها تعنى شيئًا بالنسبة للدعوة «كما يفكر البعض» فماذا يعنى إذن قول رسول الله ﷺ: «كاد الفقر أن يكون كفرًا؟ ماذا يعنى إذن كل ما قاله الإمام على وغيره من الأئمة والعلماء عن الفقر وأثره على الناس ودينهم؟!

إن الجوع والفقر وفقدان الأمان والقهر والاستعباد المفروض من الآخرين كل هذه الأشياء تمثل عوائق لا يستهان بها فى طريق الدعوة إلى الله وإيصالها إلى القلوب وليس هناك حل للقيام بمسئولينا وإقامة حكم الله فى الأرض إلا بإزالة وتحطيم كل هذه الحواجز.

يقول الإمام الغزالى[1]: إن نظام الدين لا يحصل إلا بنظام الدنيا... فنظام الدين بالمعرفة والعبادة لا يتوصل إليها إلا بصحة البدن وبقاء الحياة وسلامة قدر الحاجات من الكسوة والمسكن والأقوات والأمن.. فلا ينتظم الدين إلا بتحقيق الأمن على هذه المهمات الضرورية وإلا فمن كان جميع أوقاته مستغرقًا بحراسة نفسه من سيوف الظلمة وطلب قوته من وجوه الغلبة متى يتفرغ للعلم والعمل وهما وسيلتاه إلى سعادة الآخرة؟ فإذن.. إن نظام الدنيا، أعنى مقادير الحاجة شرط لنظام الدين».

وفى هذا العصر الذى نعيش فيه يكون من الطبيعى جدًا أن يضاف الزواج إلى ما ذكره الإمام الغزالى من حاجات ضرورية للمسلم.

إن توفير هذا الحد الأدنى من الحاجات الضرورية للمسلم هو البداية الحقيقية لأى إصلاح يرجى تحقيقه.

وفى الحقيقة فإن ما قاله الإمام الغزالى لا يخرج عن كونه شرحًا لحديث الرسول ﷺ «خير عون على تقوى الله المال».

وهنا تبرز أهمية الكلام عن مشاكلنا الاقتصادية وأزمتنا الإنتاجية، وعدم القدرة على اضطلاعنا باحتياجات شعوبنا.

ولقد قال الشاعر الحكيم قديمًا:

لعمرك ما ضاقت بلاد بأهلها ولكن أخلاق الرجال تضيق

فالحياة التى يعيشها البراجماتيون والتى تقوم على التنعم والبذخ والترف والاستهتار

---

(١) الاقتصاد فى الاعتقاد.

واللهاث الجنونى من أجل تكوين أضخم الثروات والعمل الدءوب على استهلاك كل ما تقدمه عجلة الصناعة الغربية - هى المسئولة عن الجوع والحرمات والتشرد والقهر والاضطهاد والاستضعاف الذى تعيش فيه أغلب شعوبنا، فكما قال الإمام على رضي الله عنه: «ما جاع فقير إلا بما مُتع به غنى» وذلك لأن «فى أموال الأغنياء أقوات الفقراء».

وهل من الممكن أن يكون هناك فقر بيننا لو طبقنا قول الرسول ﷺ: «طعام الاثنين كافى الثلاثة، وطعام الثلاثة كافى الأربعة» متفق عليه.

وفى رواية لمسلم رضي الله عنه، عن النبى ﷺ قال: «طعام الواحد يكفى الاثنين، وطعام الاثنين يكفى الأربعة، وطعام الأربعة يكفى الثمانية».

وعن أبى سعيد الخدرى رضي الله عنه قال: بينما نحن فى سفر مع النبى ﷺ إذ جاء رجل على راحلة له، فجعل يصرف بصره يمينًا وشمالا، فقال رسول الله ﷺ: «من كان معه فضل ظهر فليعد به على من لا ظهر له» فذكر من أصناف المال ما ذكر حتى رأينا أنه لا حق لأحد منا فى فضل. رواه مسلم.

وعن سهل بن سعد رضي الله عنه قال: إن امرأة جاءت إلى رسول الله ﷺ ببردة منسوجة، فقالت: نسجتها بيدى لأكسوكها، فأخذها النبى ﷺ محتاجًا إليها، فخرج إلينا وإنها لإزاره، فقال فلان: اكسنيها ما أحسنها. فقال: «نعم» فجلس النبى ﷺ فى المجلس ثم رجع فطواها، ثم أرسل بها إليه: فقال له القوم: ما أحسنت إليها النبى ﷺ محتاجًا إليها، ثم سألته، وعلمت أنه لا يرد سائلا، فقال: إنى والله ما سألته لألبسها، إنما سألته لتكون كفنى. قال سهل: فكانت كفنه» رواه البخارى.

وعن أبى موسى رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الأشعريين إذا أرملوا فى الغزو «أى فرغ زادهم أو قارب الفراغ» أو قل طعام عيالهم بالمدينة، جمعوا ما كان عندهم فى ثوب واحد، ثم اقتسموه بينهم فى إناء واحد بالتسوية فهم منى وأنا منهم» متفق عليه «أرملوا»: فرغ زادهم، أو قارب الفراغ.

ويكون طبيعيًا الآن أن نتساءل: وهل فى المال حق آخر سوى الزكاة؟ وقبل أن نجيب على هذا السؤال نقول: إن القدر الناتج عن جمع الزكاة هائل جدًا فلك أن تتخيل ما هو القدر الناتج من تحصيل نسبة ٢,٥ فى المائة من رءوس الأموال ونفس النسبة فى الذهب والفضة وعشر الناتج الزراعى الذى سقته السماء ونصف عشر الناتج الزراعى الحاصل بالرى وغير ذلك. من الزكاة المفروضة على الأموال الأخرى.

ولكن بالرغم من كل ذلك فإن الرسول ﷺ قد أجاب إجابة صريحة على السؤال المطروح عندما قال: «إن فى المال حقًا سوى الزكاة» ثم تلا هذه الآية: ﴿ لَّيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ ﴾ إلى آخرها.

يقول الشيخ سيد سابق[٢] تعليقًا على هذا الحديث: «قلت: والحديث وإن كان فيه مقال، فقد دل على صحته معنى ما فى هذه الآية نفسها من قوله تعالى: ﴿ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ ﴾ فقد ذكر الزكاة مع الصلاة وذلك دليل على أن المراد بقوله: ﴿ وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ﴾ الذى ذكره بعد ذلك ليست الزكاة المفروضة فإن ذلك يكون تكرارًا، والله أعلم».

واتفق العلماء على أنه إذا نزلت بالمسلمين حاجة بعد أداء الزكاة فإنه يجب صرف المال إليها» أ هـ.

وفى الحقيقة فإن عموم النصوص الإسلامية التى تتحدث عن مسألة المال تصلح كلها لأن تكون شواهد واضحة للغاية على ترسيخ معنى هذا الحديث.

وعلى كل حال فقد ثبت عن ابن عمر رضي الله عنه قوله: «فى مالك حق سوى الزكاة».

وصح عن أبى عبيدة بن الجراح وثلاثمائة من الصحابة رضى الله عنهم إذ زادهم فنى أمرهم أبو عبيدة فجمعوا أزوادهم فى مِزْوَدَين، وجعل يقوتهم إياها على السواء.

فهذا إجماع مقطوع به من الصحابة رضى الله عنهم ولا مخالف لهم منهم.

وصح عن الشعبى ومجاهد وطاوس وغيرهم، كلهم يقول: «فى المال حق سوى الزكاة».

وقال عمر رضي الله عنه: «لو استقبلت من أمرى ما استدبرت لأخذت فضول أموال الأغنياء، فقسمتها على فقراء المهاجرين».

ويقول الإمام على رضي الله عنه: «إن الله تعالى فرض على الأغنياء فى أموالهم بقدر ما يكفى فقراءهم فإن جاعوا أو عروا أو جهدوا فبمنع الأغنياء وحق على الله تعالى أن يحاسبهم يوم القيامة ويعذبهم عليه».

ويقول ابن حزم: «وفرض على الأغنياء من أهل كل بلد أن يقوموا بفقرائهم ويجبرهم السلطان على ذلك إن لم تقم الزكاة بهم ولا فى سائر أموال المسلمين بهم فيقام لهم بما

---

(٢) فقه السنة.

يأكلون من القوت الذى لا بد منه واللباس للشتاء والصيف والشمس، وعيون المارة».

ومن الطبيعى أن هذه المتطلبات التى ذكرها ابن حزم للفقراء تتغير بحسب كل عصر وظروفه «ويقول الإمام الشاطبى: «لقد كانوا فى الاكتساب ماهرين ودائبين ومتعارفين لأنواع الاكتساب، لكن لا ليدخروا لأنفسهم ولا ليحتجنوا «أى يحتجزوا» أموالهم، بل لينفقوها فى سبيل الخيرات ومكارم الأخلاق وما ندب الشرع إليه وما حسنته العوائد الشرعية، فكانوا فى أموالهم الولاة على بيوت الأموال».

وصدق ابن عمر رضي الله عنه حين قال: «لقد أتى علينا زمان وما أحد أحق بديناره ودرهمه من أخيه المسلم»(٣).

إننا نعلم أن الحل للخروج من أزماتنا الاقتصادية سوف يتحمل تبعاته أغنياؤنا ولهذا فإن سعينا يجب أن يوجه مبدئيًا إلى الذين ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ والذين ﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾ لأنه كما قال الرسول ﷺ: «لا حسد إلا فى اثنتين: رجل آتاه الله مالا فسلطه على هلكته فى الحق، ورجل آتاه حكمة فهو يقضى بها ويعلمها» متفق عليه.

إن هؤلاء الذين تقوم عليهم المسئولية أولا سينالون خير الآخرة والدنيا لأنهم سوف يبعثون بعملهم هذا روح الحياة والأمل فى نفوس شعوبنا ويحرضونها على العمل والإنتاج إرضاءً لله واتباعًا لرسوله ﷺ.

وفى مجتمع يقتاد فقراؤه بأغنيائه الذين يتبعون هذه الآية الكريمة: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا﴾ لن يستهلك أهله من الثروات ما يدين بلادهم ويجعلها راكعة ذليلة أمام أعدائها، ورويدًا رويدًا سيعم الخير على البلاد وسيجتنى ثماره أغنياؤه وفقراؤه معًا.

أما الأغنياء البراجماتيون الذين لا هم لهم إلا تكديس الثروات والغرق فى الملذات فلا مفر من إرغامهم على نفس الموقف الذى سيتخذه الأغنياء المتقون اختيارًا ملتمسين جزاءهم عند الله الواحد الأحد.

وعلى التوازى مع هذه العدالة الاقتصادية فإنه يجب التوازن فى الحقوق والالتزامات ما بين الحكام والمحكومين والإمام والمأموم والآباء والأبناء والرجل والمرأة وكذلك إزالة كل

---

(٣) نقلا عن «اشتراكية الإسلام» للدكتور مصطفى السباعى.

قوى الاستكبار الطاغوتية المتمثلة فى سيطرة استعمارية أو سلطة كهنوتية أو عصبية قبلية أو قدرة اقتصادية أو جاه أو سلطان، فالعدالة الاجتماعية فى الإسلام ليست مجرد توازن اقتصادى بين أبناء الأمة وهو غاية ما يسعى إليه النمط الراديكالى للتفكير الغربى. لقد كان من نتائج غزو الفكر الغربى لنا أن اختزلت العدالة الاجتماعية عند البعض إلى مجرد معادلات حسابية بين طبقات المجتمع المختلفة وهذا ناتج طبيعى للنزعة المادية المسيطرة على هذا الفكر ولكن العدالة الاجتماعية فى الإسلام تعنى تحقيق العدالة فى شتى نواحى الإنسان الحياتية بما يشمل ذلك من مال وعمل وكرامة وحرية وتعليم وأمن وغير ذلك من الحقوق والحاجات وكما ندرك جميعًا فإن الإسلام دين شمولى وكل لا يتجزأ بل إن محاولة تطبيق جزء منه تطبيقًا منعزلا عن باقى ما جاء به هذا الدين من تعاليم وأحكام قد يكون أكثر ضررًا من عدم تطبيقه نهائيًا.

وفى مجتمع يطبق فيه هذا الإسلام الكامل وتسود فيه القيم الإسلامية السامية فى إطار من العدالة الاجتماعية الحازمة، فى مجتمع مثل هذا لن يكون لوقع أفكار وقيم مثل الأفكار والقيم البراجماتية على نفوس أفراده إلا إثارة القىء فى الصدور.

وقانا الله شر الضلال والفتن وهدانا إلى صراطه المستقيم.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

أهم المصادر والمراجع
«مرتبة بحسب أهميتها للكتاب»

العقيدة :

١ - معارج القبول: الإمام حافظ بن أحمد حكمى.

٢ - العبودية: الإمام ابن تيمية.

٣ - الفقه الأكبر: الإمام الشافعى.

٤ - العقيدة الطحاوية: الإمام الطحاوى.

٥ - فتح المجيد شرح كتاب التوحيد: الشيخ عبد الرحمن بن حسن آل الشيخ.

٦ - الاقتصاد فى الاعتقاد: الإمام الغزالى.

٧ - ٢٠٠ سؤال فى العقيدة الإسلامية: الإمام الحكمى.

٨ - الحضارة الإسلامية «الإيمان بالله...»: للعلامة المودودى.

٩ - المصطلحات الأربعة: للعلامة المودودى.

١٠ - حكمة الدين: العلامة وحيد الدين خان.

١١ - العقائد الإسلامية: الشيخ سيد سابق.

١٢ - حقيقة التوحيد: د. يوسف القرضاوى.

١٣ - الخطوط الرئيسية للدعوة السلفية: الشيخ عبد الرحمن عبدالخالق.

١٤ - الإيمان والحياة: د. يوسف القرضاوى.

الفلسفة والمنطق:

١ - البراجماتية: وليم جيمس.

٢ - تاريخ الفلسفة الغربية «الفلسفة الحديثة».

٣ - تاريخ الفلسفة الحديثة: الأستاذ يوسف مكرم.

٤ - دراسات فى الفلسفة المعاصرة: د. زكريا إبراهيم.

٥ - الفلسفة بنظرة علمية: برتراند رسل ترجمة وتلخيص د. زكى نجيب محمود.

٦ - ملامح الفكر الغربى المعاصر: د. صلاح عدس.

٧ - فلسفتنا: الإمام محمد باقر الصدر.

٨ - المشكلة الأخلاقية والفلاسفة: أندريه كريسون. ترجمة الإمام عبدالحليم محمود والأستاذ: أبو بكر ذكرى.

٩ - الإسلام دين المستقبل: الفيلسوف المسلم رجاء جارودى.

١٠ - حوارات الحضارات: جارودى.

١١ - نظرية المنطق بين فلاسفة الإسلام واليونان: د. محمد الجليند.

١٢ - الإسلام يتحدى: العلامة وحيد الدين خان.

١٣ - الدين فى مواجهة العلم: العلامة وحيد الدين خان.

١٤ - كبرى اليقينات الكونية: د. محمد سعيد رمضان البوطى.

١٥ - لمحات من منهجية الحوار والتحدى والإعجاز للإسلام: د. رشدى فكار.

١٦ - المنقذ من الضلال: الإمام الغزالى.

اقتصاد:

١ - الاقتصاد المصرى من الاستقلال إلى التبعية: الأستاذ عادل حسين.

٢ - التطبيع أو الهيمنة الاقتصادية: الأستاذ عادل حسين.

٣ - التاريخ النقدى للتخلف: د. رمزى زكى.

٤ - مشكلة مصر الاقتصادية: د. رمزى زكى.

٥ - أمريكا وصناعة الجوع: خبر.

٦ - الحركات الاشتراكية: هارى. و. ليدلر «ترجمة محمد ماهر نور».

٧ - اقتصادنا: الإمام محمد باقر الصدر.

٨ - معركة الإسلام مع الرأسمالية: الأستاذ سيد قطب.

اجتماع:

١ - المقدمة: الإمام ابن خلدون.

٢ - المدخل إلى علم الاجتماع: الدكتور محمود الجوهرى.

إنثرابولوجيا «علم الإنسان»:

١ - دراسة الإنسان: د. محمد رياض.

٢ - قصة الإنثرابولوجية: د. حسين فهيم.

علم نفس:

١ - علم النفس العام: د. يوسف مراد.

إعلام:

١ - المتلاعبون بالعقول: هربرت أ. شيلر.

٢ - النظام الإعلامى الجديد.

سياسة:

١ - خريف الغضب: الأستاذ محمد حسنين هيكل.

٢ - كم عمر الغضب: د. فؤاد زكريا.

٣ - البحث عن السادات: الأستاذ يوسف إدريس.

٤ - السلام الضائع فى كامب ديفيد: د. محمد إبراهيم كامل.

تاريخ وحضارة:

١ - الغرب والعالم: كافين رايلى.

٢ - معالم تاريخ الإنسانية: هـ. ج. ويلز - ترجمة عبدالعزيز توفيق جاويد.

٣ - العالم والغرب: أرنولد توينبى.

٤ - حضارة الإسلام تشرق من جديد: الأستاذ أنور الجندى.

٥ - أثر الحروب الصليبية على نظرة الغرب إلى الإسلام: الأستاذ محمد أسد.

اخلاق:

١ - الكشف والتبيين فى غرور الخلق أجمعين: الإمام الغزالى.

٢ - مختصر منهاج القاصدين: الإمام ابن قدامة المقدسى.

٣ - خلق المسلم: الشيخ محمد الغزالى.

٤ - قيم الحياة فى القرآن الكريم: الأستاذ محمد شديد.

٥ - الأخلاق عند الغزالى: د. زكى مبارك.

٦ - باطن الإثم: د. محمد سعيد رمضان البوطى.

٧ - الأسس الأخلاقية للحركة الإسلامية: للعلامة المودودى.

تفسير:

١ - فى ظلال القرآن: الأستاذ سيد قطب.

٢ - تفسير القرآن العظيم: الإمام ابن كثير.

٣ - مختصر تفسير الطبرى.

حديث:

١ - رياض الصالحين: الإمام النووى.

٢ - دليل أحاديث البحوث المنشورة فى المؤتمر الثالث لمجمع البحوث الإسلامية.

٣ - الأربعون النووية: الإمام النووى.

٤ - كشف الكربة فى وصف أهل الغربة: الإمام ابن رجب الحنبلى.

فقه واصول فقه:

١ - فقه السنة: الشيخ سيد سابق.

٢ - الإحكام فى أصول الأحكام: الإمام ابن حزم.

فكر إسلامى:

١ - أمريكا من الداخل «بمنظار سيد قطب»: د. صلاح عبدالفتاح الخالدى.

٢ - العودة إلى الذات: د. على شريعتى.

٣ - العدالة الاجتماعية فى الإسلام: الأستاذ سيد قطب.

٤ - اشتراكية الإسلام: د. مصطفى السباعى.

٥ - الحكومة الإسلامية: للعلامة المودودى.

٦ - نظرية الإسلام السياسية: العلامة المودودى.

٧ - خصائص التصور الإسلامى: الأستاذ سيد قطب.

٨ - قضية البعث الإسلامى: العلامة وحيد الدين خان.

٩ - الخصائص العامة للإسلام: د. يوسف القرضاوى.

١٠ - الإسلام دين وحضارة: الأستاذ عادل حسين.

١١ - السنة النبوية بين أهل الفقه وأهل الحديث: الشيخ محمد الغزالى.

الفهرس

القسم الثالث

المؤلف

محمد إبراهيم مبروك

صدر له:

- الإسلام الليبرالى بين الإخوان المسلمين والعلمانيين والوسطيين.
- الإسلام الذى تريده أمريكا: الإسلام النفعى.
- الإسلام والغرب الأمريكى بين حتمية الصدام وإمكانية الحوار.
- حقيقة العلمانية (جـ ١، جـ ٢).
- تزييف الإسلام وأكذوبة المفكر الإسلامى المستنير.
- موقف الإسلام من الحب بين الرجل والمرأة.
- كن قويًا بالإيمان، طبعة ثانية.
- مواجهة المواجهة.
- الصراع حول المادة وجوهر الحياة.
- الإسلام والعولمة (طبعة ثانية).
- ابن رشد وفيلم المصير.
- علمانيون أم ملحدون.
- نظرية الفن الإسلامى.
- أنت أعطيت البراءة لقاتلينا (شعر).
- الرد على بابا الفاتيكان وهجوم الغرب على الرسول ﷺ.

تحت الإعداد للطبع:

- قصائد استشهادية (شعر).
- نقد المذاهب والتيارات المعاصرة.
- أيتها الملكة: دمى على يديك (شعر).
- غرام تلميذة (شعر).

من قائمة الإصدارات

رحلة الكلمات	د. علي فهمي خشيم
البرهان علي عروبة اللغة المصرية القديمة	د.علي فهمي خشيم
آلهه مصر العربية	د. على فهمى خشيم
العرب والهيروغليفية	د.علي فهمي خشيم
هويتنا الثقافية مشروع فكري	أحمد محمد شومان
أعلام النهضة العربية الإسلامية فى العصر الحديث	صلاح زكى
قادة الفكر العربى (عصر الليبرالية العربية)	صلاح زكي
عالم المعلومات الجديد مايكل ديرتوزوس	ت: بهاء شاهين
ثقافة الحوار	محمود القيعي
يوتوبيا البحث العلمى: الحرية الأكاديمية	سوسن الشريف
صورة العرب والمسلمين فى العالم	د. عزة عزت
صورة الرئيس (صناعة الرئيس)	د. عزة عزت
شرعية السلطة فى الوطن العربى	أحمد بهاء الدين
الديمقراطية فى مصر والوطن العربى والعالم	أحمد بهاء الدين
مقاومة الطغيان	مستشار د. أيمن الوردانى
الانهيار "أمة فى خطر"	د. عبد الحكيم بدران
فلسفة المقاومة	د. عبد الحكيم بدران
.رسالة إلى العقل العربى (مدخل إلى فلسفة عربية للعلم)	د. عبد الحكيم بدران
خيانة المثقفين	د. عبد الحكيم بدران
أمة فى أزمة .. أمراض العرب السياسية فى الفكر والحركة	د.عمار علي حسن
العروبة المفتري عليها	د. محمد عبد الشفيع عيسى
مسارات المستقبل العربى والمصري	د. محمد عبد الشفيع عيسى
العرب وإسرائيل (ميزان القوي ومستقبل المواجهة)	د. محمد عبد الشفيع عيسى
حماس.حركة المقاومة الإسلامية	خالد أبو العمرين
عروبة القدس بين الأوطان البديلة وطرق العودة	رمضان العباسى
شهداء القدس (الأوراق الساخنة)	شهاب نصار
ورود تتساقط على الحدود	عبد الرؤوف أشريقى بريخ
اغتصاب الذاكرة (الاستراتيجية اليهودية لتهويد التاريخ)	إيهاب الحضري
فلسطينيات	أمال عويضة
ومازال اغتيال القضية مستمرًا	حسني أمين

نحن والغرب وإسرائيل	الطيب أديب
جدل الواقع العربى والصراع على الذات	محمد سعيد ريان
جدلية العقل اليهودي	محمد سعيد ريان
الثقافة الحولاء وامتناع الرؤية الصحيحة	محمد سعيد ريان
العقلية الماضوية والقرارات المسبوقة	محمد سعيد ريان
الصراع على الخليج وتوظيف الإسلام السياسى	محمد سعيد ريان
عندما يصفر التاريخ	محمد سعيد ريان
المبنى والمعرب فى دنيا السياسة	محمد سعيد ريان
المخططات اليهودية للسيطرة على العالم	أحمد أنور
أسفار العنف والمال	محمد عقيلة العمامى
التفكير الأسطوري فى الإسرائيليات	عبد الله سالم مليطان
أساطير الطوراة	عاطف عبد الغنى
التناقض فى تواريخ وأحداث التوراة	محمد قاسم
السوق الشرق أوسطية	إكرام عبد الرحيم
مشروع للانتحار القومى	مصباح قطب
السلام الفتاك (سلام أشد هولاً من الحروب)	محمد خليفة
أوهام السلام	عبد الخالق فاروق
فى جنازة المقاطعة العربية لإسرائيل	شفيق أحمد على
المقاومة من العراق إلى الأمة	سميرة رجب
Oh my'god يوميات الجنود الأمريكان في بلاد الرافدين	إعداد وترجمة: بثينه الناصري
الموت على طريقة الكوبوي	التجاني بولعوالي
المضبعة الخضراء (مقالات سياسية ساخرة)	جاسم الرصيف
ما بين المضحكتين (مقالات سياسية ساخرة)	جاسم الرصيف
ما وراء الأدلة السرية	عاتي البركات
عبادة الشيطان على ضفاف النيل	حسين عبد الواحد
التربية السياسية فى أدب الأطفال (دراسة مقارنة بين مصر وإسرائيل)	د. أسماء غريب بيومي
نظرة الغرب إلى الإسلام	ترجمة د. على فهمى خشيم
المسلمون فى الغرب بين تناقضات الواقع وتحديات المستقبل	التجانى بولعوالى
الإسلام – فوبيا (صناعة صهيونية تسوق فى الغرب)	التجانى بولعوالى
نظام الحكم فى الإسلام	د.صابر محمد دياب
العروبة والإسلام	مجدي رياض

المقدس وغير المقدس فى الإسلام	مجدي رياض
الإسلام والغرب الأمريكى بين حتمية الصدام وإمكانية الحوار	محمد إبراهيم مبروك
الإسلام النفعى (الإسلام الذى تريده أمريكا)	محمد إبراهيم مبروك
الإسلاميون الجدد ..إلى أين؟	أسامة عبد الحق
عبد الرحمن بدوي فيلسوف الوجودية الهارب إلى الإسلام	د. سعيد اللاوندي
الإخوان والسلطة (تحالفات واهية وصراعات دامية)	حمادة إمام
الإخوان والعسكر (قصة الجبهة الإسلامية والسلطة فى السودان)	حيدر طه
الكلمة والسيف "محنة الرأي فى تاريخ المسلمين"	صالح الوردانى
الشيعة الإسماعيلية الدعوة العقيدة والأثر	د. خالد السيوطى
القاديانية: عقائدها.. شرائعها	د. خالد السيوطى
أسطورة المسيح الدجال فى اليهودية وأثرها على المقدسات الإسلامية	د. خالد السيوطى
الخروج على الحاكم فى الفكر السياسى الإسلامى	د. جمال الحسينى أبو فرحة
النبى الخاتم، هل وجد؟ ومن يكون؟	د. جمال الحسيني أبو فرحة
تأملات دينية	د. جمال الحسيني أبو فرحة
أمة الإسلام (البلاليين)	د. جمال الحسيني أبو فرحة
التاو (عقيدة وفلسفة)	د. جمال الحسينى أبو فرحة
حقيقة الكتاب المقدس	د.جمال الحسيني أبو فرحة
الكنيسة المارونية الواقع والمستقبل	د. جمال الحسيني أبو فرحة
عيسى المسيح والتوحيد	محمد عطا الرحيم، ترجمة: عادل حامد
لماذا أسلم هؤلاء؟	أشرف شيتوى
الكون يشهد لله بصفاته	هالة أحمد فؤاد
النظرية العربية فى علم المصطلح	د. خيري قدري
علماء مصطلح الحديث وتأسيس النظرية العربية فى علم المصطلح	د. خيري قدري
دراسات إسلامية	جولد تسيهر ت. د. خيري قدري، د. شيخة العطية
دلالات الإشارت الجسمية عند علماء الجرح والتعديل	د.خيري قدرى
معايير ومصطلحات الجرح والتعديل (٥ أجزاء)	د. خيري قدري
معجم الجرح والتعديل/ معجم عبارات المحدثين	د. خيري قدري

بالإضافة إلى العديد من الكتب الأدبية؛ رواية.. قصة.. دراسات ونقد وكتب متنوعة: سياسية، قومية، دينية، معارف عامة، تراث، أطفال.
خدمات إعلامية وثقافية

الآراء الواردة في الإصدارات لا تعبر بالضرورة عن آراء يتبناها المركز